

علم المساجين
١

عبد بن المبارك

الإمام القدوة

تأليف
محمد عثمان جمال

دار الفقه
دمشق

أَعْلَمُ الْمَسْأَلِينَ

١

عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ

الْإِمَامُ الْقُدْوَةُ

١١٨ - ١٨١ هـ

تأليف

محمد عثمان جمال

دار القلم
دمشق

الطبعة الرابعة
١٤١٩ م - ١٩٩٨ م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : صرب : ٤٥٢٢ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

صرب : ١١٣ / ٦٥٠١

تنوع جميع كتبنا في التوثيقية عند طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - صرب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هَذَا الرَّجُلُ

« ما على وجه الأرض مثل عبد الله بن المبارك ، ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها في عبد الله بن المبارك »
إسماعيل بن عياش

« نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك ، فما رأيت لهم عليه فضلاً إلا بصحبتهم النبي صلى الله عليه وسلم وغزوهم معه »
سفيان بن عيينة

« الإمام الحافظ العلامة ، شيخ الإسلام ، فخر المجاهدين ، قدوة الزاهدين ، صاحب التصانيف النافعة ، أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً والله إنني لأحبه في الله ، وأرجو الخير بحبه ، لما منحه الله من التقوى والعبادة ، والإخلاص والجهاد ، وسعة العلم والإتقان ، والواسة والفتوة والصفات الحميدة »
الإمام الذهبي

« عبد الله بن المبارك أبو عبد الرحمن ، الإمام المجمع على إمامته وجلالته في كل شيء ، الذي تستنزل الرحمة بذكره ، وترتجى المغفرة بحبه »
الإمام النووي

مقدّمة الطبعَة الأولى

الحمد لله حمد الشاكرين ، وصلى الله وسلم على سيد
الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله واصحابه الطيبين الطاهرين ، وعلى
الأمّة المجتهدين والعلماء المجاهدين ، الذين اعلوا كلمة الحق
باجتهادهم وجهادهم إلى يوم الدين .

وبعد : فما أشد الحاجة إلى نشر سيرة السلف الصالح من
هذه الأمة ، وإلى ابتعاث ماضيها الزاهر الزاخر ، ليتصل حاضر
الأمة بماضيها ، وليطلع عليها الشباب المثقف ، ليرى من خلال تلك
السير عظمة أولئك الرجال الذين بنوا مجد الإسلام وتاريخه العظيم ،
ثم لتكون حياة هؤلاء العظماء قدوة لشباب الإسلام في هذه الأيام .
ثم بعد ذلك لتظهر روعة هذا الإسلام العظيم ، ولن تظهر روعته
واضحة جلية إلا إذا رايناه مترجماً في حياة رجاله : انتماء وولاء ،
وعقيدة وعبادة ، ودعوة وجهاداً ، وثقافة وأخلاقاً .

وعندما يرى المسلم ذلك كله في حياة رجال السلف رضي الله
عنهم ، ويقارن ذلك بحياة الذين جاؤوا بعدهم ، يدرك سر انتشار
الإسلام وانتصاره على أيدي أولئك . وسرّ انكماش الإسلام
وانحساره على أيدي من بعدهم . ويدرك كذلك صدق القائل عندما
يقول عن الإسلام :

ياله من دين لو أن له رجالاً!!

وبعد المقارنة ، وعندما يدرك الفارق الكبير بين رجال ورجال ؛
بين رجال السلف ورجال القرن الرابع عشر سينشد مع الشاعر قوله:
لا تعرضنّ بذكرنا مع ذكرهم ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد

ولقد برهن هذا الإسلام العظيم بما تزاخم في تاريخه الطويل
من أبطال ورجال على جدارته الفذة في تقديم النماذج الصالحة
للقدوة ، وهم كثرة كثرة ، اشرق بهم تاريخ الاسلام وازدانت بهم
عصوره ؛ وإمامنا الكبير ابن المبارك رضي الله عنه وارضاه - بما
تجمع فيه من أنواع المحامد والفضائل : علماً وعملاً ، وعبادة
وجهاداً ، وورعاً وأخلاقاً - هو خير من يكون نموذجاً لما ينبغي أن
يكون عليه شباب الاسلام .

وهذه الطبعة الثانية لترجمته - رحمه الله - أقدمها للإخوة
القراء بعد أن قمت بخدمتها ما استطعت : فشرحت ما يحتاج إلى
الشرح من الفاظها ، وخرّجت ما لم يكن مخرجاً من أحاديثها ،
وزدت زيادات كثيرة ومتنوعة ، وأخباراً لطيفة وطريفة ، وأشعاراً
حكيمية ومرغبة ومرهبة ، كنت عثرت عليها أو أرشدني إليها بعض
الإخوة المحبين خلال السنوات الماضية بعد الطبعة الأولى ، وسيجد
القارئ الكريم ذلك كله مبثوثاً في مختلف ابواب الكتاب .

والله سبحانه ولي التوفيق ، وله الحمد ، وبه الاستعانة وهو
المأمول ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

حلب ١٦ من رجب ١٣٩٨ هـ محمد عثمان جمال

مَقْدَمَةُ الطَّبَعَةِ الثَّانِيَةِ

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده • والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأسوة الحسنة ، وعلى آله وأصحابه ومن نهج نهجهم واقتدى بهداهم إلى يوم الدين • وبعد :

فنحن في زمن التبست فيه المناهج ، واختلطت السبيل ، وتعددت المفاهيم ؛ وذلك تبعاً لاختلاف الثقافات المتباينة ، وتعدد التصورات المتخالفة والبيئات المتناقضة • وقد استحکم هذا الالتباس حتى أصبح للإسلام الواحد الذي أنزله الله عز وجل وجاء به محمد صلى الله عليه وسلم صور متعددة ، تقترب منه حيناً وتبتعد عنه أحياناً • وإن كثيراً من المسلمين خلعوا على هذا الإسلام نعوتاً ، ورسوموا له حدوداً من عند أنفسهم ، لم يأت بها القرآن الكريم ، ولم تدل عليها السنة المشرفة •

فمن الناس من لا يرى الإسلام شيئاً غير العبادات الشكلية الظاهرة ؛ فإن أدّاها حسب أنه قد وصل إلى لبّ الإسلام وحقيقته • ومن الناس من لا يرى الإسلام إلا فلسفة فكرية جدلية ، يتلهى بها العقل دون أن تظهر آثارها في الواقع العملي • ومن الناس من لا يرى الإسلام إلا الخلق الرفيع ، والآداب الفاضلة ، والروحانية الفياضة ، والعاطفة الجياشة •• إلى غير ذلك من الصور المتعددة للإسلام في تصورات الناس •

وإن كل جماعة من هؤلاء قد تمسكت بجانب من الاسلام ،
وأوغلت فيه ، وجمدت عليه ، وجحدت أهمية الجوانب الأخرى
التي يتمسك بها غيرها من الجماعات ، فنحن أبدأ بين إفراط
وتفريط •

أما الاسلام الكامل الشامل الوسط ، البعيد عن طرفي
قصدِ الأمور ، الذي لا يميل إلى الإفراط كما لا يميل إلى
التفريط ، فهو هذا الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم
وصحابته وسلفه الصالح ، وهو وحده الحق الذي يجب أن يتبع •

ومن هنا تبرز الحاجة إلى عرض سيرة السلف الصالح الذين
أجمعت الأمة على إمامتهم وجلالتهم ، فمن خلال سيرتهم الكريمة
يظهر الفارق البعيد بين إسلامهم وإسلام العصر الحاضر ، ويبدو
واضحاً ماذا ينبغي أن يكون عليه المسلم ، وكيف يجب أن يكون
سلوكه • فعرض سيرة السلف نور يضيء ، ومشعل يهدي ، حتى
لا يسير المسلم بعينين مغمضتين في عالم يعج بالتيارات المتناحرة •
وحتى لا يسير في ردغة^(١) مستوحلة ، قد تزل فيها قدمه
فيسقط إلى الحضيض •

(١) الردغة : بفتح الدال وسكونها : الماء والطين والوحل

الشديد .

فهؤلاء الأئمة صَوَى^(١) مشرقة ، ونجوم متألثة ؛ لا يضل من اقتدى بهم ولو كان في صحراء مترامية الأطراف . ثم إن هؤلاء الأئمة حجة على الناس في استمساكهم بأوامر الله تعالى وسيرهم على الصراط المستقيم ، فكل واحد منهم بشر من لحم ودم ، يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق ، ولكنه ارتفع فوق تراب الأرض وشهواتها ، وتعالى على متاع الدنيا الزائل وحطامها الفاني ، ووصل قلبه بالله ، فكان قرآناً يمشي على الأرض وإسلاماً يتحرك ، فاستحق بذلك أن يكون أسوة حسنة وقدوة صالحة .

وإن هؤلاء كثيرون - والحمد لله - في تاريخنا الاسلامي ، ولا يحتاج الإنسان لشيء سوى أن يفتح عينيه ، ويقرأ ما حفظه التاريخ عن الأئمة العظام في العلم والتقوى ، والزهد والورع ، والجهاد والبطولة . وإن إمامنا العظيم عبد الله بن المبارك رضي الله عنه ؛ واحد من هؤلاء الذين جمعوا أنواع المحامد كلها ، ووصلوا الذروة في العلم الواسع والعمل الدائب : من حج ، وجهاد ، وكرم ، وزهد ، وورع بحيث يحس المسلم وهو يقرأ سيرته ، كيف ينبغي أن تكون عليه حياة المؤمن الصادق القوي ، والعالم العامل المخلص ، والتقوي الزاهد الورع ، والمجاهد البطل الشجاع ، مما جعله ينال أعظم ألقاب الاحترام والإجلال .

(١) الصوى: العلامات المنصوبة في الصحراء ليستدل بها على الطريق .

وقد اعتنى العلماء بترجمته على اختلاف وجهاتهم : فترجم له بين المحدثين ، وترجم له بين الفقهاء ، وُذكر في طبقات الصوفية ، وفي مختلف كتب التاريخ والتراجم ، وقد أفرده بعض العلماء بالترجمة . قال ابن العماد^(١) : « وقد صنّف في مناقبه ، وُعدّ بعضهم ما جمع من خصال الخير ، فوجدها خمساً وعشرين فضيلة » . وممن صنّف فيه كتاباً مستقلاً الحافظ ابن بشكوال في جزئين^(٢) ، وابن خلكان جمع أخباره في جزئين أيضاً^(٣) . وُذكر في كتاب هدية العارفين^(٤) أن الإمام الذهبي صنّف فيه كتاباً سماه « قضّ نهارك بسيرة ابن المبارك » وقد فقدت هذه الكتب مع ما فقد من ثروة علمية ثمينة . وللشيخ أبي الوفاء المراغي رسالة عنه ، وللأستاذ علي الطنطاوي رسالة أخرى كذلك ، جمعا فيها بعض أخباره المشهورة .

ولقد كان كل جهدي في هذا البحث متوجهاً إلى رسم صورة كاملة لحياة هذا الرجل العظيم العلمية والعملية . ولذلك رجعت إلى جميع ما وصلت إليه يدي من المصادر الموجودة في

(١) شذرات الذهب (١ : ٢٩٦) .

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي (٣ : ١٣٤٠) .

(٣) وفيات الأعيان (٢ : ٢٣٩) .

(٤) لإسماعيل باشا البغدادي .

المكتبات العامة والخاصة ، أتبع أخباره في مطوِّريِّ الكتب ،
ومتفرق الأخبار ، وقد عشت مع هذا الرجل العظيم أكثر من سنة
أكتب كل ما أعر عليه من آثار وأخبار لها صلة بحياته ، ولم يكن
الطريق معبداً سهلاً لإعطاء صورة صادقة شاملة عن حياته ، خاصة
وإن بعض المصادر قد اقتصرت في ترجمته على سطور كطبقات ابن
سعد مثلاً .

وعلى كل حال أرجو الله سبحانه أن أكون قد وفقت في
دراسة هذا الإمام القدوة ، وإبراز جوانب حياته المختلفة ونواحي
العظمة فيها ، ثم في تقديمه إلى اخوتي في العقيدة ؛ كنموذج عملي
لما ينبغي أن يكون عليه المسلم في هذا العصر وفي كل عصر .

والله أسأل أن يتقبل هذا الجهد المتواضع ، وأن يسدّد
الخطا ، ويصحح القصد ويصفي النية ، ويرزقنا الاقتداء
بأولئك الذين قال الله تعالى فيهم : « أولئك الذين هدى الله
فبهداهم اقتده » .

محمد عثمان جمال

الفصل الأول

عصر ابن المبارك

قبل أن نبدأ في الحديث عن هذا الإمام العظيم يجب علينا أن نعرض صورة موجزة للعصر الذي عاش فيه وما سبقه بقليل .
فنعرض أولاً للحالة السياسية وأهم ما وقع فيها من أحداث ، ثم للحالة الاجتماعية وأبرز ما فيها من خصائص ، ثم للحالة العلمية والمستوى الرفيع الذي بلغه العلم في ذلك العصر ، وذلك لتبين أيّ زمن عاش فيه ، وما كان يحمل ذلك العصر من سمات وخصائص .

الحالة السياسيّة (١)

ولد ابن المبارك في سنة ١١٨ من الهجرة النبوية في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ، وعاش إلى سنة ١٨١ هـ

(١) اعتمدت في هذا الفصل على : البداية والنهاية ، وشذرات الذهب ، وتاريخ الاسلام السياسي ، وأبو حنيفة ، ورجال الفكر والدعوة في الاسلام . وسأعزو ما يمكن عزوه .

حيث توفي في خلافة هارون الرشيد الخليفة العباسي . فهو قد أدرك العهد الأموي في تحدره وانطوائه ، كما أدرك العهد العباسي في أوج قوته وأزهى أيامه .

ولما توفي هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ مات معه ملك بني أمية ، وأدبر أمر الجهاد في سبيل الله ، واضطرب أمرهم جداً ، وإن كانت قد تأخرت أيامهم بعده نحواً من سبع سنين ، ولكن في اختلاف وهيج ، وما زالوا كذلك حتى خرجت عليهم بنو العباس ، فاستلبوهم نعمتهم وملكهم ، وقتلوا منهم خلقاً وسلبوهم الخلافة (٢) .

ثم جاء بعد هشام الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وكان رجلاً فاسقاً منتهكاً ، صاحب خمور وفجور ، مجاهراً بالفواحش مصراً عليها ، منتهكاً محارم الله عز وجل ، لا يتحاشى من معصية ، ولا يستحي من أحد ، قبل أن يلي الخلافة وبعد أن وليها ، وقد وقعت بينه وبين هشام وحشة عظيمة بسبب فسقه ، وعزم مرة على خلعه ، ولكنه لم يتم ذلك وليته تم ، وقد قتل أخيراً بسبب فسقه وفجوره (٣) .

ثم جاء بعده يزيد بن عبد الملك الملقب بالناقص لنقصه الناس

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٩ : ٣٥٤) .

(٣) المرجع السابق (١٠ : ٣ و ٤) .

العشرات التي زادهم إياها الوليد بن يزيد ، وكان عادلاً دَيِّناً ،
محباً للخير ، مبغضاً للشر ، قاصداً للحق (٤) .

ثم جاء بعده في سنة ١٢٧هـ أخوه إبراهيم بن الوليد بن عبد
الملك ، ثم تلاه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وكان
شجاعاً بطلاً مقداماً ، حازم الرأي ، ولكن من يَخْذُلِ الله يَخْذُلْ ،
ومن يهن الله فما له من مكرم .

وفي سنة ١٣٢هـ استولى العباسيون على مقاليد الخلافة ،
وأصبح أبو العباس السفّاح أول خليفة عباسي ، وفي عهده هرب
مروان بن محمد إلى مصر بعد أن انكسر جيشه ، ثم قتل وقتل
معه أخ لعمر بن عبد العزيز .

ثم خلف السفّاحَ أبو جعفر المنصور سنة ١٣٦هـ ، وقد
استقرت في عهده الأمور ، وتوطد أمر الخلافة العباسية . وهو
الذي أنشد بعد قتل أبي مسلم :

فألقت عصاها واستقر بها التّوَى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر (٥)

وفي سنة ١٥٨هـ جاء المهدي بن المنصور ، ثم خلفه الهادي
ابن المهدي في سنة ١٦٩هـ ، ثم تولى الخلافة الرشيد في ليلة الجمعة
لنصف من ربيع الأول لآخر سنة سبعين ومائة ، حيث توفي خليفة

(٤) البداية والنهاية (١٠ : ١٦) .

(٥) البيت لمعقر بن اوس بن حمار البارقي .

وهو الهادي ، وولي خليفة وهو الرشيد ، وولد خليفة وهو
المأمون^(٦) .

هؤلاء هم الحكام الذين عاصرهم الإمام عبد الله بن المبارك
رضي الله عنه من الأمويين والعباسيين . والظاهرة الأولى في قيام
الدولة في هذا العصر أنها ما كانت تقوم على أساس الشورى بين
المسلمين ، ولا على أساس اختيار الأصلح ، وهنا ننقل كلمة
للأستاذ الجليل محمد أبو زهرة عن قيام الدولة الأموية ، قال^(٧) :
« والظاهرة الأولى في قيام الدولة الأموية أنها قامت بعد سلطان
الخلفاء الأربعة ، وقد كان الخليفة يختار من بين الممتازين من
المسلمين ؛ بترشيح من الخليفة الذي يسبقه كما كان الأمر في
خلافة عمر ، أو من غير ترشيح كما كان الأمر في خلافة
أبي بكر وعلي ، أو بأمر وسط بينهما كما كان الأمر في اختيار
عثمان رضي الله عنه ، فلما جاءت الدولة الأموية صارت الخلافة
ملكاً عضواً ، وإذا كان مؤسس هذه الدولة قد ارتضته طائفة
كبيرة من المسلمين خليفة ، فبقية من حملوا ذلك الاسم من بعده
لم يكن من حقهم أن يحسبوا أنهم ولوا أمر المسلمين باختيار حر
من جماهير المسلمين ، ولذلك كانت الاضطرابات والاتفاضات
تتخلل عصور الدولة الأموية ، فإن سكنت ففي الظاهر والقلوب
تغلي بنيران الحقد » .

(٦) البداية والنهاية (١٠ : ١٥٨) .

(٧) أبو حنيفة ص ٧٩ .

وقد ورثت الدولة العباسية الحكم الوراثي من الدولة الأموية ، وقلدتها في أسس الحكم ومناهجه ، ولذلك كانت البلاد مسرحاً للفتن والاضطرابات والمحاولات الكثيرة التي تهدف لقلب نظام الحكم :

فقد قام بعد الحسين بن علي رضي الله عنه حفيده زيد بن علي بن الحسين ، خرج على هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي ، ومُقتل وُصلب سنة ١٢٢هـ (٨) .

وفي عام ١٤٤هـ ثار محمد بن عبد الله ذو النفس الزكية في المدينة ، ثم خرج أخوه إبراهيم بن عبد الله بالبصرة ، وخرج معه كثير من العلماء والقراء منهم : هُشَيْم ، وأبو خالد الأحمر ، وعيسى بن يونس ، وعباد بن العوام ، ويزيد بن هارون ، وأبو حنيفة ، وكان يجاهر في أمره ويحث الناس على الخروج معه، كما كان مالك يحث الناس على الخروج مع أخيه محمد . وقد جهز المنصور لحرب الأول أربعة آلاف فقتلوه وبعثوا برأسه إلى المنصور ، وجهز لحرب الثاني خمسة آلاف وكان بينهما وقعات قتل فيها خلق عظيم ، ثم مُقتل إبراهيم وُبعث برأسه أيضاً إلى المنصور (٩) .

(٨) رجال الفكر والدعوة في الاسلام للندوي ص ٧٤ .

(٩) انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (١ : ٢١٤) .

ولم يكن الأمر مقتصرأ على الشيعة وحدهم، فهؤلاء الخوارج
يتزعمهم الضحَّاك بن قيس الخارجي الذي ظهر في عام ١٢٨ هـ ،
وقتل متولي البصرة والموصل واستولى عليها ، وكثرت جموعه ،
وأغار على البلاد وكانت فتنة هائلة (١٠) .

وفي عام ١٣٠ هـ كانت فتنة الإباضية من الخوارج الذين
كفروا علماً وأكثر الصحابة ، وكان داعيتهم في هذه الفتنة عبد الله
ابن يحيى الكندي (١١) .

وفي عام ١٥٣ هـ غلبت الخوارج الإباضية على إفريقية ،
وهزموا عسكرها ، وقتلوا متوليها (١٢) .

وقد أهتم المنصور أمر الخوارج فجهز جيشاً في خمسين
ألف فارس ، وأنفق على ذلك الجيش ثلاثة وستين ألف ألف ،
فهزم الخوارج وقتل كبارهم وذلك في عام ١٥٤ هـ (١٣) .

وهذه خراسان بلد ابن المبارك تظهر فيها الراوندية في سنة
١٤١ هـ وهم قوم خراسانيون على رأي أبي مسلم صاحب الدعوة،
يقولون بتناسخ الأرواح ، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم

(١٠) شذرات الذهب (١ : ١٧٤) .

(١١) المرجع السابق (١ : ١٧٧) .

(١٢) المرجع السابق (١ : ٢٣٤) .

(١٣) المرجع السابق (١ : ٢٣٦) .

المنصور ، وأن الهيثم بن معاوية جبريل . . . فيحاربهم العسكر مع
معن بن زائدة ويضعون فيهم السيف (١٤) .

وفي سنة ١٥٠ هـ خرجت أهل خراسان على المنصور مع الأمير
(أستاذ سيس) حتى اجتمع له فيما قيل ثلاثمائة ألف مقاتل ما بين
فارس وراجل ، واستولى على أكثر خراسان ، وعظم الخطب ،
وكانت فتنة عظيمة قتل فيها سبعون ألفاً ، وانهزم أستاذ سيس
في طائفة إلى جبل . وكانت هذه الواقعة في سنة ١٥١ هـ (١٥) .

كل هذه الفتن والثورات حدثت في عصر ابن المبارك ، فإذا
أضفنا إليها الحروب الكثيرة مع مروان بن محمد ، ثم مع عبد الله
ابن علي الذي دعا إلى نفسه بالشام ، ثم العصبية بين القيسية
واليمانية التي كانت تشور بالشام في كل وقت ، ثم الحروب التي
كانت تقوم بين المسلمين والروم بين كل فترة وأخرى (١٦) علمنا
أي عصر سياسي كان يعيش فيه إمامنا ابن المبارك الذي شارك في
حروب المسلمين مع الروم .

ولا بأس بعد كل ما تقدم من أن نطلق على هذا العصر اسم
عصر الاضطرابات والفتن والثورات والحروب .

(١٤) شذرات الذهب (١ : ٢٠٩) .

(١٥) المرجع السابق (١ : ٢٢٥) .

(١٦) انظر هذه الحروب في المرجع السابق .

الحالة الاجتماعية

لقد أدرك ابن المبارك - كما سبق أن بينا - العهد الأموي في آخر أيامه • وإن أبرز سمة يتميز بها ذلك العصر الأموي العصبية العربية الشديدة التي تطاير شررها (فلقد كان في الأمويين نزعة عربية شديدة ، وقد أحيوا بها شيئاً كثيراً من تراث العرب قبل الاسلام ، وهذا التراث قد يكون فيه المحمود الذي لا يذم • ولكنهم غلوا غلواً شديداً وصلوا به إلى درجة التعصب على غير العرب وهضم حقوقهم ، وهم في الشرع سواء مع سائر المسلمين ، فإن الناس جميعاً سواء في الاسلام لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، ولكن أوقع الأمويون بالموالي ظلماً شديداً حتى لقد حرموهم حقوقهم في غنائم الجيش إذا غزوا ، وخالفوا بذلك شرعة الله التي شرعها في الغنائم) (١٧) •

وقد اشتد احتقار العرب لهؤلاء الموالي والاستهانة بهم فسموا غير العربي أعجمياً ، وابن العربي من الأمة هجيناً ، حتى إن بعض هؤلاء الموالي (اعتقدوا أن اعتناقهم الاسلام لم يسوِّ بينهم وبين العرب • ولا غرو فإن المسلمين من غير العرب قد ألحقوا بعد اعتناقهم الاسلام ببعض القبائل العربية ، ليكونوا موالي لتلك القبائل • ونظر العرب الذين كانوا لا يحترمون

(١٧) أبو حنيفة لمحمد أبو زهرة ص ٨٠ •

سوى مهنة الحرب إلى هؤلاء الموالي نظرة الاحتقار ؛ لامتهانهم طبقة العمال الذين نشأ منهم هؤلاء الموالي) (١٨) .

ولا شك أن هذه النزعة القومية العنيفة جاهلية المصدر لا يعترف بها الاسلام دين المساواة ، ولا تقرها شريعة الله التي لا تقيم لغير الإيمان بالله والعمل الصالح وزناً ، ولا تحسب للدم والعرق حساباً ، إنما الجنسية التي يعترف بها الاسلام ويراها للناس هي تلك الجنسية الربانية ، التي يتساوى فيها العربي والروماني والفارسي وسائر الأجناس والألوان ، فلا فضل لإنسان على آخر إلا بإيمان راسخ أو عمل نافع . ولقد جمع الاسلام في عصره الأول في صف واحد بين أبي بكر القرشي ، وسلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، تجمعهم رابطة الإيمان بالله وحده ، وتشدهم أخوة الاسلام التي لا تفرق بين جنس وجنس ، ولا تميز بين لون ولون ، فالكل إخوة في الله ، وإن أكرمهم عند الله أتقاهم الله ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، الناس كلهم لآدم وآدم من تراب . ولذلك كان المجتمع الاسلامي الأول مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات ، انصهرت جميعها في بوتقته ، وتمازجت وكونت ذلك المجتمع المتراس المتكاتف الذي كان

(١٨) تاريخ الاسلام السياسي (٢ : ١٢) .

كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد
بالحمى والسهر . تلك هي طبيعة الاسلام وهذه نظرتة ، وإن الله
ليرفع بالإيمان والعلم أقواماً ويضع بالكفر والجهل آخرين .
وليس لغير ذلك في نظر الاسلام وزن ولا حساب .

ولقد كان طبعياً أن تقابل هذه العصبية العربية العنيفة
الممقوتة بعصبية أخرى فارسية من بعض الموالى ، وأن تنتشر دعوة
الشعوبية في تحقير العرب وذكر مثالبهم ، بيد أن هذه النزعة
التي حاربها الأمويون قد تحوّلت إلى دعاية ضد بني أمية ،
وجعلت الموالى يسهمون في تقويض حكم الأمويين .

وقامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية ، وخلفتها
في أسس الحكم ومناهجه ، ولكن مع ظهور العباسيين اختفت
تلك الحياة العربية والتقاليد العربية ، وانتشرت التقاليد العجمية ،
وعادات الموالى ، وسرت في الدولة الروح العجمية ، وأصبحت
بعلمها وغيوبها .

هذه سمة بارزة كانت تلوح في سماء ذلك العصر الذي
نشأ فيه الإمام عبد الله بن المبارك رضي الله عنه . ولعله كان يشعر
بوطأة تلك النعرة الجاهلية لأنه كان من الموالى الذين رفعهم
علمهم وتقواهم ، فأغناهم عن الاتساع إلى أشرف القبائل
وأعلى الأحساب .

وثمة سمة أخرى كانت بارزة في ذلك العصر سواء الأموي
والعباسي وهي : وجود ترف وفساد من جهة ، يقابل ذلك دين

وخلق من جهة أخرى ، وذلك أن بعض الحكام في ذلك العصر قد تشبهوا بالملوك ، وتباهوا ببناء القصور ، وأسباب الترف والإسراف ، وقد أصبح بيت المال الذي أعد لمصالح الأمة ملكاً خاصاً لهم خاضعاً لشهواتهم وتصرفاتهم ، وأحاطت ببعض الخلفاء ثلة من الشعراء المحترفين ، والندماء المتزلفين المتملقين ، تنفق عليهم أموال الصدقات بسخاء ، وتغدق عليهم الهدايا والهبات .
ولم تكن الدولة العباسية تختلف في ذلك عن الدولة الأموية ، ولكنها تميزت عنها بشيء واحد وهو أن الدولة الأموية كانت عليها مسحة العروبة ، محافظة على التقاليد العربية ، بينما سرت في الدولة العباسية روح الحضارة العجمية وأصبحت بعيوبها .

وقد أثرت سياسة الدولة وحياة رجال الحكم المترفة تأثيرها الطبيعي في حياة الناس وميولهم ومقاييسهم للسعادة والشرف ، فنشأت في المسلمين طبقة مترفة تشبه المترفين في الأمم القديمة ، أغرقت في التنعم ، وأقبلت على اللهو والبذخ وتبذير الأموال في الحلال والحرام ، وشاع الغناء في حواضر الدولة الإسلامية ، وأصبحت بغداد منتجع أصحاب المجون والمغنين والشعراء .
وذلك لأن تأثير حياة الحاكمين وسياستهم في اتجاه الأمة وميولها وأذواقها وأخلاقها أمر معروف شائع في المجتمعات قديماً وحديثاً .
وقد حدث الطبري في تاريخه في حوادث سنة ٩٦ فقال :
« كان الوليد صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع ، وكان الناس

يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع ، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجواري ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل : ما وراءك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ ومتى تختم ؟ ومتى ختمت ؟ وما تصوم من الشهر ؟ » •

وبجانب هذه المدنية المائجة ، والحياة الباذخة ، والسرف والترف ، نرى رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، قد انقطعوا إلى الدعوة إلى الله ، وتزكية النفوس ، ونشر العلوم الدينية ، والعكوف على التعلم والتعليم ، وثاروا على حياة المادة والترف وإغراءاتها وزخارفها ، فكانوا جزراً بشرية في بحر المادية المائج ، يأوي إليها العرقى والتائهون • وقد أقاموا بجنب الحياة المترفة حياة زاهدة ، تقوم على الإيمان وتقدير القيم الروحية والخلقية ، تفوق في سلطانها على القلوب الحياة الباذخة في كثير من الأحيان ، وكثيراً ما كان يتضاءل الخليفة والأمير أمام عالم كبير أو محدث جليل ، كما حدث للرشيد أعظم ملوك الأرض مع الإمام ابن المبارك رضي الله عنه ، عندما كان في الرقة ، مما سنفضله فيما بعد • وقد ظهرت هذه الحياة الدينية بوضوح في بغداد ، فكانت إلى جانب ما فيها من لهو ومجون مَحَجَّة (١٩) لرواد العلم ، ومنتجعاً لأصحاب الإيمان واليقين •

(١٩) المَحَجَّة : بفتحين : جادة الطريق •

ومن الإنصاف أن نذكر أن معظم الشعب — رغم تلك الحياة المادية — كان يسوده الصلاح ، وذلك أن هذا العصر من العصور التي شهد لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخير والبركة . ولذلك كان للعلماء العاملين والدعاة المخلصين مكانة عظيمة في نفوس الناس ، وقد كان لبعض هؤلاء الأئمة العظام مواقف مجيدة أمام الحكام أدتوا فيها حق النصيحة ، وحذروهم من سطوة الله ، وتبرأوا من الجور الفاشي . كالذي كان من الأوزاعي وسفيان الثوري وابن أبي ذئب عند المنصور ، وصالح بن عبد الجليل عند المهدي ، وابن السمّك والفضيل بن عياض عند الرشيد .

وقد كان الإمام عبد الله بن المبارك واحداً من هؤلاء الأئمة الذين زهدوا في حطام الدنيا رغم إقبالها عليهم ، وابتعدوا عن أصحاب الحكم والسلطان ، وانقطعوا إلى الاشتغال بالدعوة ونشر العلم والنصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، فكان لهم في تقوية الإيمان وتطبيب النفوس أطيب الأثر (٢٠) .

(٢٠) انظر رجال الفكر والدعوة في الاسلام لأبي الحسن الندوي ص ٢٤ وما بعدها وص ٦٠ وما بعدها .

الحالة العلمية (٢١)

كان عصر ابن المبارك الذي عاش فيه من أزهى العصور العلمية ، فقد ازدهرت فيه أنواع العلوم من حديث وفقه وأدب ، ونبغ فيه أئمة عظام أمثال الأوزاعي والثوري ومالك وأبي حنيفة ، وجميع هؤلاء من الأئمة المتبوعين •

وقد كان جلّ اعتماد العلماء في صدر الاسلام في طلبهم للعلم على التلقّي والمشافهة ، وكانت الحافظة هي المرجع الأول ، ولذلك كان لزاماً على العالم والمتعلم إذا أراد النبوغ أن يرحل في طلب العلم واستماع الحديث ، وكان يقال : « لا ثقة بعلم من لم يرحل » • وقد أخذ ابن المبارك من قوة الحافظة ، وكثرة الرحلات لاستماع الحديث بأوفى نصيب •

وكان بجوار هؤلاء الأئمة الأعلام أولئك الذين ورثوا حضارات الأمم التي افتتحها المسلمون ، فكانوا يزودون العربية ببعض علم هذه الأمم ، إما فيما يدلونه من آراء أو أرسال (٢٢) الفكر التي يترجمونها من اللسان الفارسي وغيره ، وقد ابتدأت

(٢١) اعتمدت في معظم هذا الفصل على كتاب (أبو حنيفة)

ص ٧٨ - ٩٠ •

(٢٢) أصل معنى (أرسال) : الجماعات ، واستعملت هنا

بمعنى النظريات العديدة التي ادخلت على الفكر الاسلامي •

الترجمة في العصر الأموي وآتت أكلها في العصر العباسي ، ولقد كان لاتساع حركة الترجمة التي نقلت أرسال الفكر اليوناني والفارسي والهندي تأثير في الفكر الاسلامي ، يختلف ذلك التأثير على حسب قوة العقل والدين عند من نال من هذه الفلسفة : فمن الناس من كانت لهم عقول مستقيمة وإيمان صادق ، فكانوا بقوة عقولهم وقوة إيمانهم يسيطرون على ما يرد إليهم من أفكار فتعضمها نفوسهم ، ويستفيدون منها نماء في تفكيرهم ومداركهم ورياضة في عقولهم • ومنهم من لاتقوى نفوسهم على احتمالها ، فتضطرب عقولهم عند ورودها بين قديمها وجديدها ، فتكون في فوضى فكرية لا استقرار فيها • ولذلك رأينا قوماً بعضهم شعراء وبعضهم كتاب وبعضهم ينتسبون للعلم ، قد غزتهم تلك الأفكار ، فلم تقو على هضمها عقولهم فاضطربوا وصاروا حائرين •

وفي هذه الحقبة اتجه العلماء في آخر العصر الأموي إلى التدوين ، وأخذت العلوم الدينية والعربية تتميز ، وصار كل علم له علماء قد اختلفوا به ، يتفنون فيه ويضبطون قواعده ، لذلك أخذ الفقهاء والمحدثون في تدوين علومهم : فكان علماء الحجاز يجمعون فتاوى عبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس ومن جاء بعدهم من كبار التابعين في المدينة ، وينظرون فيها ويستنبطون منها ويفرغون عليها • كما كان العراقيون يجمعون فتاوى عبد الله ابن مسعود وقضايا علي وفتاواه وقضايا شريح وغيره من قضاة

الكوفة ، ثم يستخرجون منها ويستنبطون . فلما جاء العصر العباسي اتسعت آفاق التدوين في الحديث مرتباً ترتيباً فقهيّاً (ولم يتنصف القرن الثاني حتى كانت حركة الجمع والتدوين أنشط وأقوى ، وكان ممن سبق إليها من رجال هذا القرن : ابن شهاب الزهري (م ١٣٤ هـ) وابن جريج المكي (م ١٥٠ هـ) وابن إسحق (م ١٥١ هـ) ومعر اليميني (م ١٥٣ هـ) وسعيد بن أبي عروبة البصري (م ١٥٦ هـ) والربيع بن صبيح (م ١٦٠ هـ) وسفيان الثوري (م ١٦١ هـ) ومالك بن أنس (م ١٧٩ هـ) والليث بن سعد (م ١٧٥ هـ) وابن المبارك (م ١٨١ هـ) ثم تتابع الناس) (٣٣) .

وعلى ذلك يكون ابن المبارك في جملة من نال شرف السبق إلى تدوين الآثار والأخبار .

والعصر كان بالإضافة إلى ذلك عصر مناظرات وجدل ؛ فمناظرات شديدة اللجب قوية الأثر بين الفرق المختلفة ، وبين الشيعة والجماعة ، وبين الخوارج وغيرهم ، وبين أهل الأهواء جملة ، وبين المعتزلة والمدافعين عن الآراء الإسلامية والعقيدة السليمة القويمية . . كما كان ذلك العصر مستراداً لأفكار ومذاهب تدس بين المسلمين في الخفاء ؛ لتفسد عقيدتهم ، أو لتحيرهم في أمور دينهم ، وتلبس عليهم حقه السائع القويم

(٢٣) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص ٨٤ .

بأمر يصعب على العقل ازدرادها (٢٤) ، أو لا يعرف العقل البشري حقيقة كنهها ، مثل البحث في القضاء والقدر وإرادة الإنسان أهى حرة فيكون التكليف معقولاً والجزاء مقبولاً ؟ أم أن الإنسان ليس له إرادة حرة فيبحث عن حكمة التكليف وداعيته وغايته ؟ وكانت هذه المجادلات تثار بين المسلمين بتدبير خفي وترتيب محكم ليضطربوا في فهم دينهم ، وليجد خصوم الاسلام منفذاً ينالون منه ، وليستطيعوا أن يقيموا المحاجرات بين دينهم وتأثير الاسلام في المعتنقين له (٢٥) .

ولقد وجد بجوار هؤلاء زنادقة كانوا يعلنون آراء مفسدة للجماعة الاسلامية ويتناجون بأمر هادمة للاسلام . ومنهم من كانوا يريدون نقض الحكم الاسلامي وإحياء الحكم الفارسي القديم ، كما حدث من المقنع الخراساني الذي خرج على الدولة العباسية في عهد المهدي .

هذه هي الاتجاهات العلمية والمنازع الفكرية التي كانت بارزة في عصر ابن المبارك ، ومنها يظهر أن ذلك العصر كان عصراً ذهبياً بالنسبة للعلم وكثرة العلماء فيه ، فقد حوى من الأئمة العدد

(٢٤) ازدرادها : أي فهمها وهضمها ، يقال : ازدررد اللقمة : أي بلعها وابتلعها .

(٢٥) انظر مثلاً ما كان يذكره النصارى فيما بينهم للدس بين المسلمين في ص ٨٤ من كتاب « ابو حنيفة » لابي زهرة .

الضخم في كل علم ، كونوا حركة علمية قوية لم يشهد لها تاريخ العلم مثيلاً . وذلك بالإضافة إلى حركة الترجمة النشيطة وحركة التدوين الواسعة للعلوم الدينية من حديث وفقه .

هذه هي سمات العصر الذي نشأ فيه ابن المبارك . ولنتجه إلى ذكر كلمة موجزة عن صلة العلم بالموالي ؛ حيث كاد أن يكون وقفاً عليهم في فترة من الزمن ، ثم تكلم باختصار عن المدينة التي نشأ فيها ؛ وذلك تمييزاً للعصر ، وتوضيحاً للبيئة التي عاش فيها .

العِلْمُ وَالْمَوَالِي (٢٦)

لقد تحققت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن العلم سيكون في أبناء فارس ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو كان العلم معلقاً بالثريا لتناوله ناس من أولاد فارس » (٢٧) وفي رواية عن أبي هريرة أيضاً بلفظ : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من

(٢٦) المولى في الأصل تطلق على (المعتق والمعتق) ولما كان أكثر المعتقين غير عرب غلبت على العجم . كما في المغرب للمطريزي (٢ : ٢٦٣) .

واستعمالها هنا جاء على هذا التغليب .

(٢٧) رواه الإمام أحمد .

هؤلاء (٢٨) وأشار لفارس » • قال في معجم البلدان : العرب إذا ذكرت المشرق كله قالوا : فارس ، فعنى في الحديث أهل خراسان دخلوا في الاسلام رغبة ؛ ومنهم العلماء والنبلاء والمحدثون والمتعبدون • وإذا حررت المحدثين من كل بلد وجدت نصفهم من خراسان وجلّ رواة الرجال منها ، وأما أهل فارس فكنار خدمت لم يبق لهم بقية بذكر ولا شرف (٢٩) •

فليس غريباً أن يكون ابن المبارك العالم الفذ من الموالي وهم حملة العلم في ذلك العصر ، فأكثر فقهاء الأمصار في عصر التابعين وتابعيهم كانوا من الموالي وهو الاسم الذي أطلقه المؤرخون على غير العرب • ولقد كان الموالي في ذلك الوقت قبلة في كل علم ، ومرجعاً في كل فن ؛ حتى في أخص علوم العرب في علم العربية تبرق أسماء أعجمية تدين لها اللغة العربية ويدين لها العرب أمثال : سيويه صاحب الكتاب ، والفيروزآبادي صاحب القاموس ، وغيرهم من الأئمة الأعلام • ولقد خرج من الموالي من الأعيان وعلماء الدين والأئمة رجال عظام لا يحصرهم العدد ولا يحصيهم الحساب ، وحسبك أن تعلم أن من هؤلاء الأئمة الجبال في العلم والذين اقترنت أسماؤهم بالعلوم الاسلامية أمثال : البخاري ،

• (٢٨) رواه الشيخان (البخاري ومسلم) .

• (٢٩) فيض القدير للمناوي (٥ : ٣٢٢) .

ومسلم ، والترمذي ، وإسحاق بن راهويه ، وأبي حنيفة ، وأبي حامد الغزالي ، والجويني إمام الحرمين ، والحاكم النيسابوري ، وغيرهم من أهل الحديث والفقہ . ومن أمثال : الأزهري ، والجوهري ، والفارابي ، والهروي ، وعبد القاهر الجرجاني ، وأبي القاسم الزمخشري ، وغيرهم من أهل الأدب والنظم والنثر الذين يفوت حصرهم ويعجز الحاسب عن عددهم .

ولقد أتى على العلم حين من الدهر أصبح الموالي هم حملته وأساتذته في كل بلد حتى لا يكاد يذكر غيرهم في هذا الميدان . وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : « لما مات العبادلة : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمرو بن العاص صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالي ، ففقيه مكة عطاء ، وفقيه اليمن طاووس ، وفقيه اليمامة يحيى بن أبي كثير ، وفقيه البصرة الحسن البصري ، وفقيه الكوفة إبراهيم النخعي ، وفقيه الشام مكحول ، وفقيه خراسان عطاء الخراساني » (٣٠) .

هذه مكانة الموالي في العلم ، وابن المبارك واحد من أئمة الموالي العظام الذين تزعموا الحركة العلمية في عصرهم ، وتسلموا زمام التعليم والتحديث في ذلك الوقت . ومعظم الكتاب على أن

(٣٠) معجم البلدان لياقوت الحموي (٣ : ٤١٢ - ٤١٣) .

سبب اندفاع الموالي وراء العلم، وانصرفهم إلى الدرس والتحصيل حتى النبوغ والعبقرية ، هو أن الموالي شعروا باحتقار العرب لهم في وقت اشتدت فيه العصبية العربية ، وتناثرت شظاياها في عصر بني أمية ، مما أوجد في نفوسهم مركب النقص ، فاتخذوا من العلم وسيلة إلى الشرف ليقفوا في صف العرب ، ولينالوا حظاً من الاحترام والإجلال في قلوب الناس ؛ وقد أوصلهم العلم إلى ما يريدون ولا عجب فالعلم يرفع بيتاً لا عماد له .

ويبدو لي أن هذا القول إن صدق على البعض فلا يمكن أن يصدق على كل من لمع نجمه في سماء العلم والمعرفة من موالي، ولا يمكن أن نسلم أن اندفاع هؤلاء الذين دخلوا في الاسلام رغبة ، وقال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه المتفق عليه : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء » لا يمكن أن يكون اندفاعهم - وهم من عرفت - طلباً للشرف والمجد ، وحباً في الجاه والاحترام ، والتماساً لجلب أقطار الناس ، وإنه لمن ظلم التاريخ أن نجعل ذلك غرضهم الوحيد وغايتهم الأساسية ، وأن نفعل عن قصدهم الطيب الذي هو خدمة دين الاسلام العظيم وقرآنه الخالد وسنته المشرفة ، ولا يمنع هذا من أن يكون ذلك من جملة الأسباب الكثيرة التي دفعتهم إلى العلم .

وقد ذكر الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة السبب العلمي في أن العلم كان جُئته في الموالي في ذلك العصر ، ونحن

ثبت ذلك هنا لفائدته • قال (٣١) : لقد تضافرت عدة أسباب
فجعلت العلم للموالي في ذلك العصر منها :

(أ) - أن العرب في عصر الدولة الأموية كانت لهم السيادة
والسلطان وكان عليهم الحرب والنزال ، فشغلهم كل ذلك عن
العكوف على الدرس والاستقصاء والبحث والتعمق ، والموالي
رأوا فراغاً فأزجوه بالمدارس والتنقيب والاطلاع والتمحيص ،
ورأوا أنهم فقدوا السلطان فأرادوا أن ينالوا الشرف عن طريق
آخر وهو المعرفة والعلم • والحرمان قد يؤدي إلى الكمال وكبرى
الغايات وجلائل الأعمال ، وذلك ما كان بالنسبة لهؤلاء الموالى
فقد سيطروا على الفكر العربي الاسلامي وإن كان للعرب
الغلب المادي •

(ب) - أن الصحابة استكثروا من الموالى ، فكان هؤلاء
لهم ملازمين يصاحبونهم في غدوهم ورواحهم ، فيأخذون عنهم
ما عرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا انتهى
عصر الصحابة كان أولئك حملة العلم للعصر الذي يليه ، ولذلك
كان أكثر التابعين منهم •

(ج) - أن أولئك الموالى ينتسبون إلى أمم عريقة ذات
ثقافات وعلم ، فكان لهذا تأثير في تكوين أفكارهم ، وتوجيه

(٣١) أبو حنيفة ص ١٦ •

أذهانهم ، بل معتقداتهم أحياناً ؛ فكان النزوع إلى العلم فيهم يقارب الجبيلة والطبيعة .

(د) — أن العرب لم يكونوا أهل صناعات ، والعلم إذا تفرغ له الانسان صار كأنه صناعة له ، قال ابن خلدون من كلام طويل له في هذا المقام : « ثم صارت هذه العلوم كلها ملكات محتاجة إلى التعلم ، فاندرجت في جملة الصنائع . وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضرة ، وأن العرب^(٣٢) أبعد الناس عنها . فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد عنها العرب ، والحضرة لذلك العهد العجم ، أو من في معناهم من الموالي وأهل الحواضر » .

مَدِينَتُهُ (مَرُو) وَالْحَالَةُ الْعِلْمِيَّةُ فِيهَا

ولد ابن المبارك ونشأ في مرو أشهر مدن خراسان ، وهي مرو العظمى وتسمى مرو الشاهجان ، والنسبة إليها مَرُو وَزِي عَلَى غير قياس ، والثوب مَرُوِي عَلَى القياس . ومرو بالعربية : الحجارة البيض التي يقتدح بها النار ؛ إلا أن هذا عربي ومرو ما زالت عجمية ، وقد زارها ياقوت صاحب معجم البلدان ولم يَرَبْهَا شيئاً من هذه الحجارة . وأما الشاهجان : فهي فارسية معناها « نفس

(٣٢) يريد ابن خلدون بالعرب الاعراب .

السلطان « لأن ال (جان) هي النفس أو الروح و (الشاه) هو السلطان ، وسميت بذلك لجلالتها عندهم (٣٣) .

ومرو هذه هي مدينة العلم والعلماء ، وفيها من المكتبات العلمية ما لا يوجد في مدينة غيرها ، وقد أخرجت من الأعيان وعلماء الدين والأئمة الأعلام ما لم تخرج مدينة مثلهم ، وحسبك أن تعلم أن من هذه المدينة : إمام أهل السنة الإمام أحمد بن محمد ابن حنبل رضي الله عنه ، ومنها الإمام المحدث الفقيه الورع الزاهد سفيان بن سعيد الثوري رضي الله عنه ، ومنها أيضاً الإمام العلم إسحاق بن راهويه ، وغير هؤلاء من الأئمة والأعيان . وإليها ينسب أبو بكر القفال وحيد زمانه فقهاً وعلماً وهو أحد أركان مذهب الشافعي رضي الله عنه ، وأبو إسحاق المروزي أحد أئمة الفقهاء الشافعية .

وأهل مرو كما هو معلوم من الفرس أصحاب المدينة

(٣٣) الروان : بلدان بخراسان إحداهما هذه . والأخرى يقال لها : (مرو الروذ) ومعنى الرو : الحجارة البيض التي يقتدح بها النار . والروذ هو بالفارسية النهر ؛ فكانها (مرو النهر) وهي مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام . وهي على نهر عظيم فلهذا سميت بذلك . وهي صغيرة بالنسبة إلى مرو الأخرى . خرج منها خلق من أهل الفضل ينسبون :
مَرَوُذِي ومَرَوُذِي .

القديمة ، والحضارة الرفيعة ، وهم من جملة الموالي الذين حملوا مشاعل العلم ومنازل الهداية ، وتزعموا الحركة العلمية في عصر ابن المبارك لأسباب بينها قبل قليل . وقد سبق أن ابن المبارك كان أحد الأئمة الذين قادوا الحركة العلمية في عصرهم حتى أصبح واحد خراسان .

وقد كان في أهل مرو - المدينة التي عاش فيها ابن المبارك كثير من الصفات الحميدة والمزايا الخلقية السامية . وفيهم يقول ياقوت صاحب معجم البلدان بعد أن أقام فيها مدة طويلة : (وأقمت بها ثلاثة أعوام فلم أجد بها عيباً إلا ما يعترى أهلها من العرق المديني^(٣٤) . ولولا ما عرا من ورود التتر إلى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها إلى الممات ، لما في أهلها من الرشد ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الأصول المتقنة بها . فإني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلاً كثرة وجوده . منها خزانة في الجامع إحداها يقال لها : العزيزية فيها اثنا عشر

(٣٤) العرق المديني : نسبة إلى المدينة المنورة لكثرة بها . وهو بشرة تظهر في سطح الجلد تنفجر عن عرق يخرج شيئاً فشيئاً ثم يسقط كما في حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ص ٥١ . فهو شبيه بالحبة التي كانت تظهر على أبناء مدينة حلب دون غيرهم .

ألف مجلداً أو ما يقاربها ، والأخرى يقال لها الكمالية • وكانت
سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد ، وأكثره بغير رهن ،
تكون قيمتها مائتي دينار ، فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها •
وأنساني حبها كل بلد وألهاني عن الأهل والولد • وأكثر فوائدها
هذا الكتاب – يعني معجم البلدان – وغيره مما جمعته فهو من
تلك الخزائن ، ولما خرجت عنها جعلت أترنم بقول بعضهم :

ولما تزايدنا عن الشعب وانشى
مشرق ركب مُصْعِدٍ ومغربٍ
تيقنت أن لا دارَ من بعد عالجٍ
تسرُّ وأن لا خَلَّةً بعد زينبٍ

وبقول الآخر :

ليالٍ بمرور الشاهجانِ وشمْلنا
جميعٌ "سقاك اللهُ صوبَ عهادِ
سرقناكٍ من ريب الزمانِ وصرفه
وعينُ النوى مكحولةٌ بسهادِ
تنبه صرفُ الدهر فاستحدث النوى
وصيرنا شتّى بكلِّ بلادٍ (٣٥)

(٣٥) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي (٨ : ٣٣ - ٣٤) .

هذه مدينة ابن المبارك التي نشأ فيها • ولعله تأثر تأثراً
كبيراً في أخلاقه بتلك الصفات الأخلاقية النبيلة التي كانت موجودة
في أهل بلده ، من رقة ولطف ، ولين جانب ، وحسن عشرة ، كما
تأثر في علمه أيضاً بذلك العصر العلمي الزاهر وبذلك البيئة العلمية
وما حوته من كتب وعلماء •

وبذلك نكون قد وفينا العصر حقه من البحث في نواحيه
السياسية والاجتماعية والعلمية • فلنبداً في ترجمة هذا الإمام الفذ
رضي الله عنه وأرضاه •



الفصل الثاني

سيرة ابن المبارك

تمهيد

أسقط الاسلام الأنساب في تقدير الأشخاص ، فليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني الأرضية من حساب في ميزان الله عز وجل ؛ إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) إنه ميزان الله المبرأ من شوائب الهوى والاضطراب ، فالكريم حقاً هو الكريم عند الله ، وهو يزن الناس عن علم وعن خبرة بالقيم والموازن . وقد جاء الاسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس والعصبية للأرض والعصبية للقبيلة ، ليقم نظامه الانساني العالمي في ظل راية واحدة ، راية الله إله الجميع ورب العالمين ، لا راية الوطنية ، ولا راية القومية ، ولا راية الجنس ؛ فكلها

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

رايات لا يعرفها الاسلام دين المساواة بين الناس • ولذلك
 فليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى • وأكرم الناس عند
 الله أكثرهم تمسكاً بكتاب الله وسنة رسوله الكريم ، وأشدهم
 دفاعاً عن شرعه ودينه • وأحبهم إلى الله أنفعهم للناس • وقد أعدّ
 الله الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً ، وأعدّ النار لمن عصاه
 ولو كان شريفاً قرشياً • وقد وضع الاسلام أبا لهب وذمه وهو
 عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورفع سلمان الفارسي وجعله
 من آل بيت النبوة • وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 لابنته وفضلته كبده : « لا أغني عنك من الله شيئاً » (٢) •

فليس في الاسلام مجال للفخر بالأحساب والأنساب ،
 والتعظيم بالآباء والأجداد • فالرب واحد ، والأب واحد ، والمنشأ
 واحد ، والمصير واحد ، وإن كان لانسان أن يفخر بشيء ، فأول
 ما يفخر به العلم الراسخ ، والعمل المفيد ، والخلق الرفيع •

لعمرك ما الانسان إلا ابن دينه

فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

لقد رفع الاسلام سلمان فارساً

كما وضع الشرك الحسيب أبا لهب

(٢) أخرجه البخاري في التفسير وفي الوصايا •

اسْمُهُ وَنَسَبُهُ

بعد هذا التمهيد الموجز نقول : إن ابن المبارك واحد من أولئك العصاميين العظام الذين رفعهم علمهم وتقواهم وعملهم النافع المفيد ، فكانت نسبته إلى العلم والشرف والجهاد إن اتسبب الناس إلى الآباء والأجداد . فهو من الموالي الذين لم يكن لهم أعمدة من النسب ، ولكن كان لهم من شرف العلم والعمل ما أغناهم عن الاتسباب إلى أشرف القبائل . وقد رأيت فيما سبق مكانة الموالي في العلم حتى كاد أن يكون وفقاً عليهم في ذلك العصر الذي عاش فيه ابن المبارك .

أما اسم ابن المبارك : فقد اقتضت بعض كتب التراجم (٣) على نسبته إلى أبيه . وارتفعت بعضها (٤) بنسبه إلى جده ؛ فقالت : هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي مولاهم ، أبو عبد الرحمن المروزي . وهو من تابعي التابعين ، فقد كان

(٣) مثل : تاريخ بغداد ، والعبر في اخبار من غبر ، والجواهر المضية ، والبداية والنهاية ، وشذرات الذهب .

(٤) انظر : تهذيب الاسماء واللفات للنووي (١ : ٢٨٥)
وتذكرة الحفاظ للذهبي (١ : ٢٥٣) وتهذيب التهذيب لابن حجر
العسقلاني (٥ : ٣٨٣) ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢ : ٢٣٧)
والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٢ : ٢٠٣) .

مولى لبني حنظلة ، كما كان مولى لبني عبد شمس من بني سعد تميم . وقد لقبته بعض كتب التراجم ^(٥) (شاهنشاه) ^(٦) ومعناها ملك الملوك وذلك تعظيماً لمقامه وإجلالاً لعلمه .

وفي المدهش لابن الجوزي : المسمون بعبد الله بن المبارك ستة : أحدهم مروزي وهو هذا ، والثاني خراساني ، والثالث بخاري ، والرابع جوهرى ، والباقيان من أهل بغداد ^(٧) .

وقد أجمعت المصادر على أن أم عبدالله بن المبارك خوارزمية ، وعلى أن أباه كان تركياً ، وكان عبداً لرجل من التجار من همدان من بني حنظلة ^(٨) ، وكان رجلاً تقياً صالحاً ، كثير الانقطاع للعبادة ، محباً للخلوة ، شديد التورع . وقد حفظ لنا التاريخ من ورعه حديثاً عجياً :

(٥) حلية الاولياء لابي نعيم (٨ : ١٦٢) .

(٦) ورد النهي عن التسمية بذلك ، فعن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن أخنع اسم عند الله عز وجل رجل يسمى ملك الأملاك) متفق عليه ، قال سفيان بن عيينة : ملك الأملاك مثل شاهنشاه ، وذلك لأن ملك الملوك هو الله وحده ولا يوصف غيره بذلك .

(٧) الاعلام للزركلي (٤ : ٢٥٦) .

(٨) تاريخ بغداد للبغدادي (١ : ١٥٣) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي (١ : ٢٥٣) والبداية والنهاية لابن كثير (١٠ : ١٧٧) ، وتهذيب التهذيب للعسقلاني (٥ : ٣٨٤) ووفيات الاعيان لابن خلكان (٢ : ٢٣٧) .

يحكى عن مبارك أبي عبد الله أنه كان يعمل في بستان لمولاه
وأقام فيه زماناً ، ثم إن مولاه صاحب البستان جاءه يوماً وقال له :
— أريد زماناً حلواً ، فمضى إلى بعض الشجر وأحضر منها
زماناً فكسره فوجده حامضاً ، فحرد عليه وقال :

أطلب الحلو فتحضر لي الحامض ؟ هات حلواً • فمضى
وقطع من شجرة أخرى فلما كسره وجده أيضاً حامضاً ، فاشتد
حرده عليه ، وفعل ذلك مرة ثالثة فذاقه فوجده أيضاً حامضاً ،
فقال له بعد ذلك :

أنت ما تعرف الحلو من الحامض ؟

— فقال : لا •

— فقال : وكيف ذلك ؟

— فقال : لأنني ما أكلت منه شيئاً حتى أعرفه •

— فقال : ولم لهم ° تأكل ؟

— قال : لأنك ما أذنت لي بالأكل منه !!

فعجب من ذلك صاحب البستان ، وكشف عن ذلك فوجده
حقاً ، فعظم في عينه ، وزاد قدره عنده ، وكانت له بنت خطبت
كثيراً ، فقال له :

— يا مبارك ، من ترى تزوج هذه البنت ؟

— فقال : أهل الجاهلية كانوا يزجون للحسب ، واليهود للمال ، والنصارى للجمال ، وهذه الأمة للدين (٩) .

— فأعجبه عقله ، وذهب فأخبر به أمها وقال لها :

• ما أرى لهذه البنت زوجاً غير مبارك .

فتزوجها فجاءت بعبد الله بن المبارك (١٠) ، فتمت عليه بركة

• أبيه وأبنته الله نباتاً صالحاً ورباه على عينه .

ومن هذه القصة العجيبة يبدو أن أسرة ابن المبارك تقية
صالحة ورعة دينية ، فكأنه ورث التقوى والصلاح والورع
والصدق والاستقامة عن أبيه ، فكان شبيهاً به في دينه وخلقه
كما كان شبيهاً به في شكله وخلقِه . فقد ورد في تاريخ بغداد (١١)
عن محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة قال : سمعت عبد الله بن
المبارك يقول : نظر أبو حنيفة إلى أبي فقال : « أدعت أمه إليك
الأمانة » وذلك لأنه كان أشبه الناس بعبد الله .

(٩) وإلى هذه الخصال الأربع أشار الحديث الشريف :
« تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر
بذات الدين تربت يداك » . متفق عليه .

(١٠) وفيات الأعيان لابن خلكان (٢ : ٢٣٧) ، وشذرات
الذهب لابن العماد (١ : ٢٩٦) ، ومراة الجنان لليافعي (١ : ٣٧٩) .

(١١) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٣) .

هذه أسرة ابن المبارك رضي الله عنه ، وهذه مكاتنها في التقوى والصلاح والورع والعبادة . أما مكاتنها في العلم فإن إهمال المراجع التي رجعنا إليها ذلك على كثرة تلك المراجع ، يدلنا على أنه لم يكن لها شأن يذكر في العلم ، ونحن لا نعرف عن أبيه إلا ما ذكرنا ، ولا نعرف عن جده إلا اسمه ، إلا أنه قد ورد ما يفيد أن عبدالله بن المبارك قد روى عن أبيه عن عطاء في البيوع^(١٢) . ولا نعرف عن أولاده إلا أنه كان له ولد فمات^(١٣) ولم يترك بعده أولاداً^(١٤) .

مَوْلِدُهُ

ترددت بعض المصادر^(١٥) في السنة التي ولد فيها ابن المبارك بين ثمان عشرة ومائة أو بعدها بعام ، وقيل سنة عشر ومائة^(١٦) . ولعل سبب هذا التردد ما رواه الخطيب البغدادي^(١٧) عن ابن

(١٢) تهذيب التهذيب للعسقلاني (٥ : ٣٨٦) .

(١٣) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٨٧ .

(١٤) معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٥٢ .

(١٥) مثل : تذكرة الحفاظ (١ : ٣٥٣) وتاريخ بغداد (١٠ : ١٥٤) .

(١٦) النجوم الزاهرة (٢ : ١٠٣) .

(١٧) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٤) .

المبارك قال : ذاكرني عبد الله بن إدريس السنّ فقال : ابن كم أنت ؟ فقلت : إن العجم لا يكادون يحفظون ذلك ، ولكن أذكر أنني لبست السواد وأنا صغير عندما خرج أبو مسلم . قال : فقال لي : وقد ابتليت بلبس السواد ؟ قلت : إني كنت أصغر من ذلك ، كان أبو مسلم أخذ الناس كلهم بلبس السواد الصغار والكبار . ومن المعروف أن هذا كان في أول عهد الدولة العباسية حيث اتخذوا السواد شعارهم . وألزموا الرعية كباراً وصغاراً لبسه ، فإذا عرفنا أن الدولة العباسية وجدت سنة اثنتين وثلاثين ومائة أمكننا أن نجزم بعدم صحة كون ولادته سنة عشر ومائة .

ولكن أكثر المصادر^(١٨) على أنه ولد سنة ثمان عشرة ومائة كما قال الإمام أحمد بن حنبل وغير واحد . وهذا ما نجزم به لأن جميع المصادر المذكورة حتى التي تردت في سنة ولادته على أنه مات وله ثلاث وستون سنة ، وعلى أنه مات سنة إحدى وثمانين ومائة . وتقابل سنة مولده التي هي ١١٨ هـ السنة ٧٢٦ من التاريخ الميلادي^(١٩) .

وقد كان مولده في مدينة مرو^(٢٠) أشهر مدن خراسان ،

(١٨) مثل: تهذيب التهذيب (٣٨٦:٥) وطبقات ابن سعد (٣٧٢:٧) والبداية والنهاية (١٠ : ١٧٧) ووفيات الأعيان (٢ : ٢٣٩) وتهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٨٦) والجواهر المضية (١ : ٢٨١) والفوائد البهية (ص ١٠٣) وسير أعلام النبلاء (٦ : ٢٤٥) .
(١٩) معجم المؤلفين (٢٠) ووفيات الأعيان (٢ : ٢٣٩) .

وهي مرو العظمى وتسمى مرو الشاهجان . وقد سبق الكلام عن مكانة هذه المدينة في العلم ، وعن كثرة العلماء فيها ، وعن أخلاق أهلها ، وعمّا حوته مكتباتها من نفيس الكتب .

نشأته

نشأ الإمام عبد الله بن المبارك رضي الله عنه بمرو أعظم مدن خراسان مسقط رأسه وتربى بها ، ومرو كما سبق مدينة العلم والعلماء ، وقد قضى فيها عشرين سنة من عمره أو تزيد ، فإنه أول ما خرج في طلب العلم سنة إحدى وأربعين ومائة (٢١) . ولم تبين المصادر التي رجعنا إليها حياة أبيه وحاله ، ولكن يستنبط منها ما يشير إلى أن والده لم يكن من أهل الغنى واليسار ، وذلك أنه كان يعمل ناطوراً في بستان لرجل من همدان . ثم يبدو أنه اشتغل في التجارة بعد ذلك، فعن أبي تميلة قال : كان أبي والمبارك والد عبد الله تاجرين (٢٢) . وقد كان تقياً صالحاً ورعاً صادقاً كما يبدو ذلك واضحاً في قصته مع صاحب البستان .

أما أمه فهي ابنة صاحب البستان ذلك الرجل الذي أعطى

(٢١) تهذيب التهذيب للعسقلاني (٥ : ٣٨٤) وتاريخ بغداد للبغدادي (١٠ : ١٦٨) .

(٢٢) تهذيب التهذيب (١١ : ٢٩٤) في ترجمة أبي تميلة .

ابنته لمولاه على فقره لصلاحه وتقواه، ومنعها عن خطابها الكثيرين
ذوي الحسب والجاه • فمن هذا يتبين أنه نشأ في بيت مسلم بين
أبوين تقيين صالحين •

وقد كان ابن المبارك في أول نشأته يتردد على الكتاب (٢٣)
يتلقى هناك بعض العلوم ، وقد بدت عليه مخايل النبوغ وملامح
الذكاء منذ صغره ، شهد بذلك أصدقاؤه الذين كانوا معه في ذلك
الوقت ، فقد أورد الخطيب البغدادي (٢٤) قصة عن صديق لابن
المبارك تشهد أنه كان آية في الحفظ واستمساك الذاكرة ، قال :
كنا غلماناً في الكتاب فمررت أنا وابن المبارك ورجل يخطب ،
فخطب خطبة طويلة ، فلما فرغ قال لي ابن المبارك : قد حفظتها •
فسمعه رجل من القوم فقال : هاتها • فأعادها عليه ابن المبارك
وقد حفظها •

ولكن يبدو أن ابن المبارك انقطع عن التعلم بعد فترة طفولته
في الكتاب ، وأقبل على حياة اللهو والشباب وقتل الوقت في العود
والطنبور مع الأصدقاء والإخوان • يدل على ذلك ما جاء في الفوائد
البيهية (٢٥) أن أبا حنيفة نظر إليه يوماً وسأله عن بدء أموره ، فقال :

(٢٣) الكتاب : بالضم والتشديد الموضع الذي يتعلم فيه
الاولاد الكتابة ، وهو مفرد وجمعه : الكتاتيب . وقراءة المفرد بفتح
الكاف خطأ شائع .

(٢٤) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٥) .

(٢٥) للإمام اللكنوي (ص ١٠٢) .

كنت جالساً مع إخواني في البستان فأكلنا وشربنا إلى الليل، وكنت مولعاً بضرب العود والطنبور، ونمت سحراً فرأيت في منامي طائراً فوق رأسي على شجرة يقول: « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق »؟! قلت: بلى، فاتبعت وكسرت عودي وخرقت ما كان عندي، فكان أول زهدي. وقد أشار إلى هذه القصة أيضاً علي القاري في ذيل الجواهر المضية. والحسن النعماني في تعليقه على الجواهر المضية أيضاً. ووجدت شبيهاً لهذه القصة في كتاب كنوز الأولياء^(٢٦) وقد جاء فيه: « قيل إن سبب إنابته أنه كان في حال شبابه عاشقاً لامرأة، وهي أيضاً عاشقة له، فغلب عليه شوقه حتى لم يبق له قرار ليلاً ونهاراً من إفراط حبه. وفي ليلة من ليالي الشتاء أرسل إليها... وتكالماً بالحالة والحيرة، فإذا مؤذن أذن للفجر فنظر الله قلبيهما بالهداية». والقصة موجودة هناك بطولها. ثم إنه تاب واشتغل بتحصيل العلم والعمل به.

ويؤيد ذلك ان ابن المبارك تأخر خروجه إلى طلب العلم حتى أصبحت سنه ثلاثاً وعشرين سنة، وذلك أنه أول ما خرج سنة إحدى وأربعين ومائة. والمعروف أن علماء السلف ما كانوا

(٢٦) لأبي الليث الزيلي (ص ٨٤) مخطوط رقمه في الظاهرية

(عام ٣٩٧٢).

يتأخرون في طلب العلم إلى مثل هذه السن . وقد روى الذهبي (٢٧)
أنه طلب العلم وهو ابن عشرين سنة .

وعلى كل حال فقد كان إقبال ابن المبارك على العلم نادر المثال ،
فقد تثقف بأنواع الثقافات في عصره ، من حديث وفقه ونحو وأدب
وشعر وغير ذلك من العلوم . وكان مع هذا العلم يحترف التجارة
طول حياته ، ولعله أخذ هذه الحرفة عن أبيه فقد كان تاجراً كما
سبق ، أو عن أستاذه أبي حنيفة حيث تعلم منه العلم والتجارة (٢٨) .
ولقد تاجر وربح وكان من أعظم التجار وذلك لأنه كان يجلب العلم
من أن يجعله وسيلة للتكسب ، ويربأ بنفسه عن قبول عطايا
الحكام وهبات الموسرين كما ستجده مفصلاً فيما بعد .

وفاته وعمره

كان الإمام ابن المبارك رضي الله عنه قد خرج في غزوة ، فلما
انصرف من الغزو وصل إلى بلدة « هيت » فتوفي بها سنة
إحدى وثمانين ومائة ، وله من العمر ثلاث وستون سنة ، ودفن
فيها وقبره هناك ظاهر يزار ، وكانت وفاته في رمضان . هذا

(٢٧) سير اعلام النبلاء مصور مخطوط - المجمع - (٦: ٢٤٥) .

(٢٨) انظر العبر في اخبار من غير (ص ٢٨٠) . وشذرات

الذهب (١ : ١٩٧) .

ما اتفقت عليه جميع كتب التراجم التي رجعنا إليها^(٢٩) ولم يشك في ذلك إلا ابن خلكان^(٣٠) فقد جاء بروايتين : إحداهما توافق ما قدمنا • والأخرى أوردتها بصيغة الشك بقوله : (وقيل سنة اثنتين وثمانين ومائة) ؛ ولذلك لا يعتد بها • ومما يؤيد ذلك أيضاً ما جاء في تاريخ دمشق^(٣١) أن أحمد بن حنبل سأل الحسن بن الربيع عن سنة وفاة ابن المبارك فقال : سنة إحدى وثمانين ، أي ومائة •

أما اليوم الذي مات فيه من رمضان فما رأيت من تعرض له إلا الخطيب البغدادي ؛ فقد ساق روايتين : الأولى أنه مات ثلاث عشرة خلت من رمضان • والرواية الثانية عن الحسن بن الربيع قال : شهدت موت ابن المبارك ، مات سنة إحدى وثمانين ومائة في رمضان لعشر مضيئ منه ، مات سحراً ودفناه بهيت • وسألت ابن المبارك قبل أن يموت— يعني عن عمره — قال : أنا ابن

(٢٩) وذلك مثل : الطبقات الكبرى ، والعبير ، وتهذيب التهذيب ، وتذكرة الحفاظ ، وتهذيب الأسماء واللغات ، ومرآة الجنان ، وشذرات الذهب ، والفهرست ، والجواهر المضية ، والبداية والنهاية ، والنجوم الزاهرة ، والفوائد البهية ، وتاريخ البخاري .

(٣٠) وفيات الأعيان (٢ : ٢٣٩) .

(٣١) لابن عساكر (١ : ٤٤) .

ثلاث وستين^(٣٢) . ولعل هذه الرواية الثانية أقرب للصحة لأنها ممن
حضر الوفاة وشارك في الدفن .

وبذلك يكون قد جمع الله لابن المبارك في وفاته الخير من
أطرافه : فقد توفاه الله بعد أفضل عمل وهو الغزو والجهاد في
سبيل الله ، وفي أفضل شهر وهو شهر رمضان الذي أنزل فيه
القرآن ، وفي أفضل ساعة وهي ساعة السحر .

وقد كانت وفاته بالتاريخ الميلادي سنة ٧٩٧^(٣٣) .

وفي بلدة هيت التي توفي فيها ابن المبارك يقول صاحب معجم
البلدان^(٣٤) : بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ،
ذات نخل كثير وخيرات واسعة ، وبها قبر عبد الله بن المبارك
رحمه الله .

وقد توفي في العام نفسه الحسن بن قحطبة أحد أكابر الأمراء ،
وحمزة بن مالك الذي ولي إمرة خراسان أيام الرشيد ، وخلف بن
خليفة شيخ الحسن بن عرفة ، ومفضل بن فضالة الذي ولي قضاء

(٣٢) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٨) .

(٣٣) معجم المؤلفين لكحالة (٦ : ١٠٦) .

(٣٤) ياقوت الحموي (٨ : ٤٨٦) .

مصر مرتين وكان ثقة دينا ، ويعقوب التائب العابد الكوفي (٣٥) .
كما توفي في العام نفسه أيضاً محدث الشام ومفتي أهل حمص
إسماعيل بن عياش (٣٦) .

وسنقد في آخر البحث فصلاً خاصاً بوفاة ابن المبارك رضي
الله عنه ، وما حدث فيها ، وما رثاه به العلماء والأئمة من ثرو شعره ،
وذلك لنختم البحث بخاتمة حياة ابن المبارك رحمه الله ورضي
عنه وأرضاه .

(٣٥) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٧) .

وليعقوب التائب هذا قصة عجيبة نثبتها هنا للفائدة . قال
علي بن الموفق : عن منصور بن عمار قال : خرجت ذات ليلة وأناظن
اني قد أصبحت ، فإذا علي ليل ، فجلست إلى باب صغير ، وإذا شاب
يبكي وهو يقول : « وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ،
ولكن سولت لي نفسي ، وغلبتني شقوتي ، وغرني سترك المرخي
علي ؛ فالآن من عذابك من يستنقذني ؟ وبحبل من اتصل إن أنت
قطعت حبلك عني ؟ واسواتاه على ما مضى من أيامي في معصية ربي !
ياويلي كم أتوب وكم أعود !! قد حان لي أن أستحي من ربي
عز وجل » قال منصور : فقلت : أعود بالله من الشيطان الرجيم ،
بسم الله الرحمن الرحيم « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم
ناراً ، وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد ،
لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون » قال : فسمعت
صوتاً واضطراباً شديداً ، فذهبت لحاجتي فلما رجعت مررت
بذلك الباب فإذا جنازة موضوعة . فسألت عنه فإذا ذاك الفتى
قد مات من هذه الآية . وترجمة يعقوب التائب هذا في البداية
والنهاية . رحمه الله ورضي عنه ورزقنا الخشية منه ؛ حتى لا نتجراً
على معصية ولا نتخلف عن طاعة .

(٣٦) مرآة الجنان لليافعي (١ : ٣٧٩) .

الفصل الثالث

حياة ابن المبارك العلمية

طلبه العلم

لقد تضافرت كل الأسباب والمهيات لتجعل من ابن المبارك عالماً فذاً وإماماً حجة ، يحتل مكان الصدارة العلمية مع جملة الأئمة الأعلام الذين أشرق بهم تاريخ العلم الاسلامي ، وقامت على جهودهم أسس النهضة العلمية في ذلك العصر ، فقد كان له من قوة الحافظة - التي هي أداة العلم الأساسية في ذلك الوقت - ما مكّنه من حفظ خطبة طويلة بمجرد سماعها من قائلها في حال صغره ، ومن الجلد والصبر على تحمل المشاق في سبيل طلب العلم ، ما جعله يرحل الى البلدان ويجوب الآفاق ، ينهل من كل ينبوع ثر ، ويعترف من كل بحر زاخر . وقد ساعده في ذلك مهنته التجارية فأكثر من الأسفار ، يلتقي بعظام الأئمة ، يستخرج من عقولهم كنوز العلم وجواهر المعرفة . وقد اتفقت جميع المصادر على أنه كان طلاباً للعلم نادر المثال ، رحل الى جميع الأقطار التي كانت معروفة بالنشاط العلمي في ذلك العصر : (وقد خرج عبد الله الى العراق

أول ما خرج سنة احدى وأربعين ومائة) كما يقول عبدان بن عثمان^(١) . ومن ذلك الوقت لم يفتر عن السفر من أجل طلب العلم وفي ذلك يقول عنه الذهبي^(٢) : (السفار ، صاحب الرحلات الشاسعة . . . فإنه من صباه ما فتر عن السفر)؛ فقد رحل الى جميع الأمصار التي كان يحج اليها شداة العلم من أقصى الآفاق ، فمن اليمن في أقصى الجنوب الى الشام في أقصى الشمال الى ما بين هذين القطرين من الحجاز والبصرة والكوفة ومصر^(٣) . وفيه يقول عبد الرحمن بن أبي حاتم : سمعت أبي يقول : كان ابن المبارك ربع الدنيا بالرحلة في طلب الحديث ، لم يدع اليمن ولا مصر ولا الشام ولا الجزيرة ولا البصرة ولا الكوفة^(٤) . ويقول أبو أسامة : ما رأيت رجلاً أطلب للعلم في الآفاق من ابن المبارك^(٥) . ويقول زكريا بن عدي : رأيت ابن المبارك في النوم فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي برحلتني في الحديث^(٦) . ويشهد له الإمام

(١) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٨) .

(٢) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٨٦) .

(٤) مقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي ص ٢٦٤ .

(٥) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٤) .

(٦) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي ص ٩٠ .

أحمد بن حنبل إمام أهل السنة بأنه كان وحيد زمانه في ذلك؛ يقول:
لم يكن في زمن ابن المبارك أطلب للعلم منه ، رحل الى اليمن ومصر
والشام والبصرة والكوفة ، وكان من رواة العلم ، وكان أهل ذلك،
كتب عن الصغار والكبار ، كتب عن عبد الرحمن بن مهدي وكتب
عن الفزاري وجمع أمر عظيمًا (٧) .

وقد رويت عنه الغرائب والعجائب في هذا الموضوع ، فقد
رحل مرة من بلدته مرو الى بلاد الري ليسمع كلمة للحسن البصري:
روى الخطيب البغدادي بسنده الى هارون بن المغيرة عن اسماعيل
ابن مسلم عن الحسن قال : لا تشتتر مودة ألف رجل بعداوة
رجل واحد .

قال هارون : قدم عليّ ابن المبارك فجاء إليّ وهو على
الرحل فسألني عن هذا الحديث ، فحدثته ، فقال : ما وضعت رحلي
من مرو الا لهذا الحديث (٨) .

فهو يسافر من بلدته مرو الى هارون بن المغيرة في بلاد الري،
والمسافة بينهما تقارب الألف كيلو متراً أو تزيد يضرب آباط الابل
ويقطع الفيافي والقفار في الليالي والهواجر ؛ ليسمع هذه الكلمة

(٧) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٤) .

(٨) الرحلة في طلب الحديث (ص : ١٥٦) .

الواحدة . . . فرضي الله عنه ما أشد طلبه للعلم ، وما أشد حرصه عليه ! وبه وبأمثاله حفظ الله الاسلام وعلومه :

هم الرجال وعيب أن يقال لمن
لم يتصف بمعالي وصفهم رجل

وقد اندفع في جميع هذه الرحلات يكتب عن كل عالم فذ وعن كل شيخ ثقة ، حتى بلغ عدد من حمل عنه من الشيوخ أربعة آلاف ، فقد روى العباس بن مصعب في تاريخه ، عن ابراهيم بن اسحاق ، عن ابن المبارك ، قال : حملت عن أربعة آلاف شيخ ، فرويت عن ألف منهم . ثم قال العباس بن مصعب : وقع لي من شيوخه ثمانمائة^(٩) . وهذا يدل على أن العدد كان حقيقياً لا خيالياً وهمياً . وروي عن ابن المبارك أنه قال : دوّخت العلماء ، وعانيت الرجال بالشامات والعراقين والحجاز ، فلم أجد الأدب الا مع ثلاثة : ابن عون غريزته الأدب ، وعبد العزيز بن أبي رواد متكلف الأدب ، ووهب المكي كأنه ولد مع أدب^(١٠) .

وقد كان ينشد العلم حيث رآه ويأخذه حيث وجده ، لا يمنعه من ذلك مانع ، كتب عن هو فوّه ، وكتب عن هو مثله ، وتجاوز

(٩) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) .

(١٠) أدب الإماء والاستملاء لابن السمعاني ص ٢ . والمقصود

بالعراقين : الكوفة والبصرة .

ذلك حتى كتب العلم عن هو أصغر منه (١١) . وقد روي أنه مات ابن له فعزاه مجوسي فقال : ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد أسبوع . فقال ابن المبارك : اكتبوا هذه (١٢) . وقد بلغ به ولعه بكتابة العلم مبلغاً جعل الناس يعجبون منه ، فقد قيل له مرة : كم تكتب ؟ فقال : لعل الكلمة التي أتتفخ بها لم أكتبها بعد (١٣) .

وعابه قوم على كثرة طلبه للحديث فقالوا له : الى متى تسمع ؟ فقال : الى الممات (١٤) .

وقد كان لكثرة ما يكتب كما قال الأعرابي : لا يترك نقارة الا اتقراها، ولا نمانة الا اتمصها، وإنه لملققة الكلمة الشرود (١٥) .

(١١) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

(١٢) فيض القدير للمناوي (٣ : ٢٣٠) . وهذه الكلمة يوضح معناها ما جاء في « تنبيه المغترين » (ص : ١٦٦) أن ابن المبارك رحمه الله كان يقول : « من أصيب بمصيبة ، فليفعل في اليوم الاول ما يفعله في اليوم الخامس من مصيبته » أي من ضحك وأكل وغير ذلك لأنه علامة التسليم لأمر الله والرضا بالقضاء والقدر .

(١٣) مقدمة الجرح والتعديل (ص : ٢٨٠) .

(١٤) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١ : ٧٤) .

(١٥) القلائد من فرائد الفوائد (ص : ٨٠) .

وكان يقول : الحبر في الثياب خلوق العلماء (١٦) .

ولعل سبب هذا الاهتمام الشديد بالكتابة أنه كان جلّ اعتمادها عليها ، ومعظم فائدته منها ، فقد حدّث السندي بن أبي هارون قال : كنت أختلف مع ابن المبارك الى المشايخ فربما قلت له : يا أبا عبد الرحمن ممن نستفيد ؟ فيقول : من كتبنا (١٧) .

وقد كان منهوماً لا يشبع من كتابة الحديث وطلبه حتى ان أساتذته ليعجبون منه ، فهو يخدمهم ويكرمهم ويلطفهم ثم يستفيد من علمهم وحديثهم ، ومن طريف ذلك ما روى عيسى بن يونس — أحد أساتذته — قال : كنا بأرض الروم أنا وابن المبارك ، وربما استحييت من خدمة ابن المبارك لي ، يأخذ بركابي ، فاذا نزلنا قدم لنا الخبيص (١٨) ، فيلقمني ويقعد فيسألني عن الحديث ويكتب ،

(١٦) ادب الإماء والاستملاء ص ١٤٩ . ومن الطريف في هذا المعنى : ما حكى عن عبید الله بن سليمان أنه رأى على بعض ثيابه اثر صفرة ، فأخذ من مداد الدواة فطلاه به ، ثم قال : المداد بنا احسن من الزعفران ، وأنشد :

إنما الزعفران عطر العذارى ومداد الدوي عطر الرجال
انظر أدب الدنيا والدين ص ٥٦ .

(١٧) حلية الاولياء لابي نعيم (٨ : ١٥٦) .

(١٨) الخبيص : طعام يصنع من التمر والسمن .

فأقول : يا شيخ - من صنعه وبره بي - لله أبوك أما آن لك أن تشبع ؟ فيقول : ومن يشبع من هذا الشأن (١٩) ؟ .

وكان يرى الجلوس مع العالم فرصة لاستفادة العلم ، فهو يحاول بمختلف الوسائل أن يستخرج العلم من العالم الذي يجالسه ، فيسمع كلامه وربما سمع ما لم يسمعه من قبل . وقد روي أن ابن المبارك قال : كنت مع محمد بن النضر الحارثي في سفينة فقلت : بأي شيء أستخرج منه الكلام ؟ فقلت له : ما تقول في الصوم في السفر ؟ فقال : انما هي المبادرة يا ابن أخي ، فجاءني والله بفتياغير فتيا ابراهيم والشعبي (٢٠) . بل ربما كان يحتال ويبدل أقصى ما يستطيع من جهد ومال ليصل الى عالم فيسمع من حديثه ، ويعترف من علمه ، فعن عبدة بن سليمان قال : قال ابن المبارك : كان الربيع بن أنس مختفياً عند حائك فأتيته فجهدت أن يأذن لي عليه فأبى ، فأعطيته أربعين درهماً فأذن لي ، فدخلت عليه فسمعت منه أربعين حديثاً ، ثم عدت فجهدت أن يأذن لي عليه فأبى فتركته (٢١) .

ورغم كل ذلك فما كان يكتفي بكثرة الأسفار ، والكتابة عن الشيوخ ، بل كان يطيل الجلوس في بيته يشتغل بكتب الحديث ،

(١٩) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٨ .

(٢٠) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢ : ٨٦) .

(٢١) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٤ .

ولا يشعر بالضيق والوحشة لأنه كان يحس أنه جالس مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ، فعن نعيم بن حماد قال : كان
عبد الله بن المبارك يكثر الجلوس في بيته ، ف قيل له : ألا تستوحش؟
فقال : كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم
وأصحابه ؟ (٢٢) . ورؤي أنه قيل له : انك تكثر الجلوس وحدك؟
فغضب وقال : أنا وحدي؟! أنا مع الأنبياء والأولياء والحكماء
والنبي وأصحابه ، ثم أنشد هذه الأبيات :

ولي جلساء " ما أملّ حديثهم
البياء مأمونون غيباً ومشهدا
إذا ما اجتمعنا كان حسن حديثهم
معيناً على دفع الهموم مؤيداً
يفيدونني من علمهم علم ما مضى
وعقلاء وتأديباً ورأياً مسدداً
بلا رقة أخشى ولا سوء عشرة
ولا أتقي منهم لساناً ولا يدا
فإن قلت : أحياء " فلست بكاذب
وإن قلت : أموات " فلست مفنّدا (٢٣)

(٢٢) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٤) .

(٢٣) شرح عبيد الله بن عبد الكافي على « المضمون به على غير
اهله » لمز الدين الزنجاني ص ٥ ، وقد نسب في ص ٤ هذه الأبيات
لمحمد بن زياد الأعرابي .

وقد ظل ابن المبارك يطلب ويدأب ، حتى طارت شهرته ،
 وذاع صيته ، وملاً اسمه القلوب والأسماع ، فإذا ماشوهد ملاً
 الأبصار أيضاً ، لم يترك طلب العلم طول حياته ، وكان يقول :
 لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل (٢٤) .
 وكان كلما أتى أستاذاً من أساتذته أعجب به وأنزله المنزلة اللائقة
 بمثله ، فعن أحمد بن سنان قال : بلغني أن ابن المبارك أتى حماد
 ابن زيد في أول الأمر ، فنظر إليه فأعجبه فقال له : من أين أنت ؟
 قال : من أهل خراسان ، قال : من أيّ خراسان ؟ قال : من مرو ،
 قال : تعرف رجلاً يقال له عبد الله بن المبارك ؟ قال : نعم ، قال :
 ما فعل ؟ قال هو الذي تخاطب ، فسلم عليه ورحب به وحسن الذي
 بينهم (٢٥) . ولما أتى ابن المبارك ابن جريج واستنطقه فسمع كلامه
 قال له : أين نشأت ؟ قال : بخراسان ، قال : ما ظننت خراسان تخرج
 مثلك ، وأمكنه من كتبه (٢٦) .

هكذا كان طلب ابن المبارك رضي الله عنه للعلم ، وهكذا
 كان اقباله عليه .

وإن أول ما يجب ان ننتبه اليه انه طلب العلم لله وحده
 وابتغاء مرضاته ، ولم يطلبه ليجاري به العلماء ، ولا ليماري به
 السفهاء ، ولا ليشار اليه بالبنان ، ولا ليكسب به الدرهم

(٢٤) إحياء علوم الدين (١ : ٥٩) .

(٢٥) مقدمة الجرح والتعديل ص ١٦٧ وتاريخ بغداد (١٠٤ : ١٥٤) .

(٢٦) مقدمة الجرح والتعديل (ص : ٢٦٤) .

والدينار ، فقد كان كما يقول الخطيب البغدادي (٢٧) : «من الربانيين في العلم» ، فهو لا يطلبه إلا لوجه الله ولا يأخذه إلا ممن يحدث الله أيضاً .

ومن عجيب ما روي عنه ما رواه عبد الرحمن الأحول قال : سمعت ابن المبارك يقول : لما أردت أن أرتحل من عند معمر بعثت اليه بوصيف وألف درهم ، فلما شددت متاعي لأرتحل جاءني شاب من أصحاب الحديث فذكر لي حديثاً عن معمر لم أسمعه ، فقال لي : سله قبل أن ترتحل ، فقلت : لا آتي الشيخ بعدما وصلته ، أسأله فيحدثني به على غير ما كان يحدثني به قبل أن أصله ، فارتحل وما سأله عنه (٢٨) ، يريد أن معمرأ كان يحدثه حسبة لوجه الله تعالى ، فلعله بعد الصلاة إنما يحدثه لأجلها ، فلذلك ارتحل ولم يسأله عن الحديث ، مع العلم أنه كان يقطع البلاد ويتحمل المشاق لسماع الحديث .

من أجل ذلك نفع الله الناس بعلم ابن المبارك وبارك له فيه ، فكان من الطائفة الطيبة من الأرض التي قبلت الماء فأنبت الكلاء والعشب الكثير .

تنوع ثقافته

ابن المبارك أصدق من يمثل ثقافة ذلك العصر العلمي الزاهر فقد كان دائرة معارف واسعة ، وموسوعة علمية ضخمة ، فلا تكاد

(٢٧) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٢) .

(٢٨) مقدمة الجرح والتعديل (ص ٢٧٧) .

تجد علماء من العلوم المنتشرة في ذلك الوقت الا وترى ابن المبارك قد بلغ فيه الذروة وأصبح مرجعاً يرجع اليه الباحثون في ذلك العلم ، ولا أرى كلمة تقال في هذا المقام أصدق من كلمة العجّلي، فقد قال في ابن المبارك : « وكان جامعاً للعلم »^(٢٩) . وقد حدّث العباس بن مصعب قال : جمع عبد الله بن المبارك الحديث والفقه والغريبة وأيام الناس والشجاعة والتجارة والسخاء والمحبة عند الفرق^(٣٠) . وقال فيه أبو داود الطيالسي : ما رأيت أجمع من عبد الله بن المبارك^(٣١) فقد كان محدثاً فقيهاً أديباً شاعراً لغوياً فصيحاً . يقصده المتعلمون فيجدون عنده ما لا يجدون عند غيره . وهذا المعتمر بن سليمان يقول : ما رأيت مثل ابن المبارك ، نصيب عنده الشيء الذي لا يصاب عند أحد^(٣٢) . ومن أجل ذلك كان ينظر اليه كثير من الناس على أنه أفضل من عرفه ذلك العصر ، وأجل من عرفه العلم في تلك الأيام . قال شعبة : ما قدم علينا مثله^(٣٣) .

(٢٩) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٥) وتهذيب الاسماء واللغات للنووي (١ : ٢٨٥) .

(٣٠) المرجعان السابقان .

(٣١) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٤ .

(٣٢) المرجع السابق ص ٢٦٣ .

(٣٣) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٤) .

وقال شعيب بن حرب : ما لقي ابن المبارك رجل الا زين ، والمراد أفضل منه (٣٤) . وكان كثيراً ما يجتمع أصحابه وتلاميذه يتذاكرون أنواع ما جمعه من العلوم وأبواب ما يتحلّى به من صفات الخير ، فعن الحسن بن عيسى بن ماسرجس قال : اجتمع جماعة من أصحاب ابن المبارك فقالوا : عدوا خصال ابن المبارك من أبواب الخير ، فقالوا : جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة ، والزهد والشجاعة ، والشعر والفصاحة ، والورع والانصاف ، وقيام الليل والعبادة ، والحج والغزو والفروسية ، وترك الكلام فيما لا يعنيه ، والشدة في رأيه ، وقلّة الخلاف على أصحابه (٣٥) .

مَكَائِته الْعِلْمِيَّة

لا عجب اذن بعد ما عرفنا من سعة ثقافة ابن المبارك وتشعبها، وشمولها لأنواع العلوم والمعارف وبلوغه الغاية في كل ذلك ، مع تقوى وورع وصلاح ، وزهد وتواضع وكرم أخلاق ، وفروسية وشجاعة وجهاد في سبيل الله ، لا عجب بعد هذا كله أن تُصدّرَ به المجالس ، وأن يحجج اليه طلاب العلم والمعرفة من كل فج عميق ، وأن يكون ثناءؤه على كل لسان . ولو أننا ذهبنا نستعرض هنا كل

(٣٤) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٦) .

(٣٥) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٤) وتهذيب الاسماء واللغات

(١ : ٢٨٥) .

ما قيل في هذا الامام العظيم من كلمات الثناء والمديح لطال بنا الحديث ، ولكننا نشير الى أن أهل العلم كانوا يرون فيه الرجل الفذ والعالم الضخم النادر المثال ، حتى كان يعتبر واحداً من ثلاثة أئمة عظام لم تخرج خراسان مثلهم • يقول محمد بن عبد الوهاب الفراء : ماأخرجت خراسان مثل هؤلاء الثلاثة : ابن المبارك ، والنضر بن شميل ، ويحيى بن يحيى (٣٦) • بل كان يعتبر رجل خراسان الفرد وعالمها الوحيد ، فعن ابن أبي رزمة قال : قال لي شعبة : عرفت ابن المبارك ؟ قلت : نعم ، قال : ما قدم علينا من ناحيتكم مثله (٣٧) • بل كان يعتبره البعض واحد الدنيا وعالم الأرض في ذلك الوقت، فقد حدث معاذ بن خالد قال: تعرفت الى اسماعيل ابن عياش بعبد الله بن المبارك ، فقال اسماعيل بن عياش : ما على وجه الأرض مثل عبد الله بن المبارك (٣٨) ، وقال شعيب بن حرب: مالقي ابن المبارك مثل نفسه (٣٩) ، وقال : مالقي ابن المبارك رجلاء الا وابن المبارك أفضل منه (٤٠) •

(٣٦) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٥) .

(٣٧) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٥ .

(٣٨) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٧) .

(٣٩) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٤) .

(٤٠) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٤) .

ولم لا يكون ابن المبارك رضي الله عنه كذلك ؟ وهو عالم
 المشرق والمغرب وما بينهما كما شهد له غير واحد من الأئمة !
 فعن عبد الله بن سنان قال : قدم ابن المبارك مكة وأنا بها ، فلما
 خرج شيعة سفیان بن عيينة والفضيل بن عياض وودعاه ، فقال
 أحدهما : هذا فقيه أهل المشرق ، فقال الآخر : وفقه أهل المغرب (٤١) .
 وعن عبد الرحمن بن أبي جميل قال : قلنا لابن المبارك : يا عالم
 المشرق حدثنا . فسمعنا سفیان فقال : ويحكم ! عالم المشرق
 والمغرب وما بينهما (٤٢) .

وان اماماً كهذا الامام في العلم والعمل لهو أهل أن يتخذه
 الناس اماماً يقتدون بهداه علماء وعملاء ، وفهماً وسلوكاً . وهذا
 ما كان في الواقع ، قال أسود بن سالم : كان ابن المبارك اماماً
 يقتدى به وهو من أثبت الناس في السنة (٤٣) . وعن عبيد الله بن
 جناد قال : سمعت العمري يقول : ما رأيت في دهرنا أحداً يصلح
 لهذا الأمر الا رجلاً أتاني الى منزلي ، فأقام عندي ثلاثاً يسألني
 عن غير ما يسألني عنه أهل هذا الدهر ، فصيح اللسان الا أن اللغة
 شرقية ، يكنى أبا عبد الرحمن ، معه غلام يقال له سفير ، فقلنا له :

(٤١) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٦) .

(٤٢) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٨٦) .

(٤٣) المرجع السابق .

هذا عبد الله بن المبارك ، فقال : هكذا ينبغي ، ان كان معي أحد يصلح لهذا الأمر فذاك . قال عبيد : يعني الاقتداء بالعلم (٤٤) .

ولعل سبب هذا الاعجاب الشديد الذي جعل السنة تفصح عن مكانة هذا الامام ، وتلهج بالثناء عليه ، وتعترف بأنه واحد عصره وفريد دهره ، هو ثقافته المتنوعة ، وعلمه الجم ، وخصاله الخيرة العديدة . حتى ما يستطيع أحد أن يجد فيه مغزاً ، ولا أن يرى فيه ثغرة كبيرة أو صغيرة ، يقول شعيب بن حرب : كنا تأتي ابن المبارك نحفظ عنه ، فما نستطيع أن نعلق عليه بشيء (٤٥) . وبالجملة فقد أجمع العلماء على قبوله وجلالته وامامته وعدله كما يقول أبو عمر بن عبد البر (٤٦) . وخير ما يبيّن مكانة ابن المبارك ما قاله النسائي في وصفه اذ يقول : لا نعلم في عصر ابن المبارك أجلّ من ابن المبارك ، ولا أعلى منه ، ولا أجمع لكل خصلة محمودة منه (٤٧) .

(٤٤) حلية الاولياء (٨ : ١٦٢) .

(٤٥) تهذيب الاسماء واللفات (١ : ٢٨٦) .

(٤٦) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٩) .

(٤٧) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٧٨) .

ابن المبارك المحدث

على الرغم من ثقافة ابن المبارك المتنوعة ، وتشعب نواحي التفوق العلمي فيه ، مما يجعله شخصية علمية بأوسع ما في تلك الكلمة من معان ، وموسوعة علمية ودائرة معارف واسعة ، على الرغم من كل هذا فإن شهرته كانت في بعض العلوم أكثر منها في بعضها الآخر ، فابن المبارك المحدث أبرز من ابن المبارك الفقيه ، وابن المبارك الفقيه أبرز من ابن المبارك الشاعر الأديب واللغوي النحوي •

وان ناحية الحديث تحتل مكان الصدارة من شهرة ابن المبارك ومن ثقافته ، وقد أطالت كتب التراجم والرجال في إبراز امتياز ابن المبارك في الحديث خاصة ، فذكرت مكاتبه الرفيعة عند العلماء واتفقهم على تعديله وجلالته ، وذكرت من تلقى عنهم من الشيوخ الكثيرين الذين بلغ عددهم أربعة آلاف شيخ كما يروى عنه ، كما ذكرت من تلقى عنه أيضاً مما سنعرفه في مكانه •

وسنولي مكاتبه في الحديث أهمية خاصة لشهرته به ، وستحدث عن اتفاق الأئمة على توثيقه وسعة علمه مما جعلهم يقدمون قوله على أقوال غيره ، ثم عن حافظته العجيبة وسعة محفوظاته ، ثم عن حذقه ومهارته في هذا الفن ، ومعرفته بالآثار والرواة وحالهم في العدالة والضبط ، مما جعل الأئمة يعتمدون

على جرحه وتعديله ويتناقلون أقواله في ذلك ، ثم نورد أمثلة تدل على هذا الحدق والمهارة ، ثم نذكر بعض شيوخه وتلاميذه ، ونختم البحث بأمثلة من مروياته ونماذج منها .

اتِّفَاقُ الْأُمَّةِ عَلَى تَوْثِيقِ وَأَمَامَتِهِ

ان أول ما يلفت النظر في شخصية ابن المبارك الحديثية اتفاق علماء الجرح والتعديل على أنه : رجل صالح ، ثقة ، ثبت في الحديث ، وعلى أنه إمام المسلمين وسيد من ساداتهم ؛ وهذا قلما يتفق لأحد .

قال العجلي : عبد الله بن المبارك خراساني ، ثقة ، ثبت في الحديث ، رجل صالح ، وكان جامعاً للعلم (٤٨) . وقال يحيى بن معين فيه : كان كيساً ، مثبناً ، ثقة ، وكان عالماً صحيح الحديث (٤٩) . وحسبك أن تعلم أنه روى له الجماعة (٥٠) ، فهو أحد رجال البخاري ، وشهرة البخاري في التشدد والمبالغة في التثبت من حفظ الرجال وعدالتهم أعرف من أن نتحدث عنها . وقد قال فيه عبد الرحمن بن يوسف بن خراش : عبد الله بن المبارك مروزي ثقة (٥١) . وفي سير أعلام النبلاء : وحديثه حجة

(٤٨) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٥) .

(٤٩) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٥) .

(٥٠) الفوائد البهية ص ١٠٣ .

(٥١) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٨) .

بالاجماع ، وهو في المسانيد والاصول^(٥٢) . وقال يحيى بن معين - وقد ذكر عنده ابن المبارك - : سيد من سادات المسلمين ، وجاءه مرة رجل فقال : يا أبا زكريا من كان أثبت في معمر : عبد الرزاق أو عبد الله بن المبارك ؟ وكان متكئاً فاستوى جالساً وقال : كان ابن المبارك خيراً من عبد الرزاق ومن أهل قرينته ، ثم قال : تضم عبدالرزاق الى عبدالله؟! ^(٥٣) . وكان أبو وهب محمد بن مزاحم يقول : العجب ممن يسمع الحديث عن ابن المبارك عن رجل ثم يأتي ذلك الرجل حتى يحدثه به ^(٥٤) .

وقد بلغ من ثقتهم به أنهم اتهموا كل من يغمز ابن المبارك بشيء ، وشكثوا في دين من ينتقص منه شيئاً ، وهذا قلماً اتفق لأحد غيره ، يقول أسود بن سالم : كان ابن المبارك اماماً يقتدى به ، كان من أثبت الناس في السنة ؛ اذا رأيت رجلاً يغمز ابن المبارك فاتهمه على الاسلام ^(٥٥) .

وكان عبد الرحمن بن مهدي يقول : الأئمة أربعة : سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وحماد بن زيد ، وابن المبارك . ويقول : كان ابن المبارك أعلم من سفيان الثوري .

(٥٢) مصور مخطوط (٦ : ٢٤٦) .

(٥٣) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٥) .

(٥٤) المرجع السابق (١٠ : ١٦٨) .

(٥٥) المرجع السابق (١٠ : ١٦٨) .

وقدم عبد الرحمن بن مهدي بغداد في بيع دار له ، فاجتمع إليه أصحاب الحديث، فقالوا له : جالست سفيان الثوري وسمعت منه وسمعت من عبد الله ؛ فأيهما أرجح ؟ فقال : ما تقولون لو أن سفيان جهد جهده على أن يكون يوماً مثل عبد الله لم يقدر (٥٦)؟! • ومن أقوال ابن مهدي أيضاً : مارأت عيناى مثل سفيان، ولا أقدم على عبد الله بن المبارك أحداً (٥٧) • ومن أقواله: ابن المبارك عندنا أدب من الثوري (٥٨) • وكان أبو اسحاق الفزاري يقول: ابن المبارك امام المسلمين أجمعين • وحدث المسيب بن واضح قال : سمعت أبا اسحاق الفزاري يقول : ابن المبارك امام المسلمين • ورأيت أبا اسحاق الفزاري بين يدي ابن المبارك قاعداً يسأله (٥٩) ، مع العلم أن أبا اسحاق أكبر من ابن المبارك بعشرين سنة •

هكذا كان العلماء وتقدة المحدثين ينظرون الى ابن المبارك نظر الاعجاب ، ويطلقون عليه أسمى الألقاب العلمية ، التي ما كانت تطلق جزافاً على الناس - كما نشاهده في عصرنا - فهو: امام المسلمين أجمعين ، وهو امام يتقن به بل هو أمير المؤمنين في الحديث •

(٥٦) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦١) .

(٥٧) حلية الأولياء (٨ : ١٦٣) .

(٥٨) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) .

(٥٩) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٣) وتهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٦) .

قال أبو أسامة : ابن المبارك في أصحاب الحديث مثل أمير المؤمنين في الناس (٦٠) ، بل هو عالم أهل المشرق والمغرب وما بينهما ، كما صرح بذلك عدد من الأئمة الأعلام من أمثال سفيان والفضيل ، الذين ما كانوا يعرفون التزلف لأحد والثناء على أحد الا بالحق ، فهي كلمة صدق من قوم صادقين .

حَدَّثَ أَنْ كَانَ فَضِيلَ وَسَفِيَانَ وَمَشَيْخَةَ جَلُوسًا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فَطَلَعَ ابْنَ الْمُبَارَكِ مِنَ الثَّنِيَّةِ ، فَقَالَ سَفِيَانَ : هَذَا رَجُلٌ أَهْلُ الْمَشْرِقِ ، فَقَالَ فَضِيلُ : هَذَا رَجُلٌ أَهْلُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا . وَحَدَّثَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي جَمِيلٍ قَالَ : كُنَّا حَوْلَ ابْنِ الْمُبَارَكِ بِمَكَّةَ فَقُلْنَا لَهُ : يَا عَالِمَ الْمَشْرِقِ حَدِّثْنَا . وَسَفِيَانَ قَرِيبَ مَنَّا فَسَمِعَ ، فَقَالَ : وَيَحْكُمُ عَالِمَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا (٦١) . وَهَذِهِ شَهَادَةٌ مِنْ رَجُلَيْنِ رَبَانِيَيْنِ يَشْهَدَانِ بِهَا وَهُمَا فِي أقدسِ بَقْعَةٍ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنَّ ابْنَ الْمُبَارَكِ أَعْلَمُ أَهْلَ الْأَرْضِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ ، وَهُمَا مِنْ أَخْبَرِ النَّاسِ بِابْنِ الْمُبَارَكِ وَعِلْمِهِ ، وَقَدْ تَكَرَّرَ مِنْهُمَا هَذَا الْكَلَامُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ كَلَامًا يُقَالُ فِي مَنَاسِبَةٍ مِنَ الْمَنَاسِبَاتِ رَبَّمَا يَرْجِعُ عَنْهُ قَائِلُهُ ، فَهَذَا رَجُلٌ يَأْتِي سَفِيَانَ الثَّوْرِيَّ فَيَسْأَلُهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ ، فَيَقُولُ لَهُ سَفِيَانَ :

(٦٠) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٦) . وأبو أسامة هذا هو حماد ابن أسامة الكوفي .

(٦١) المرجع السابق (١٠ : ١٦٢) .

- من أين أنت ؟
 — قال من أهل المشرق •
 — قال : أو ليس عندكم أعلم أهل المشرق ؟
 — قال : ومن هو يا أبا عبد الله ؟
 — قال : عبد الله بن المبارك •
 — قال : وهو أعلم أهل المشرق !؟
 — قال : نعم وأهل المغرب (٦٢) •

ولا نجد سبباً معقولاً لكل هذا الاطراء والثناء والتقدير لعلمه حتى من معاصريه الا أنه بلغ من العلم ما لم يبلغه غيره ، وعرف منه ما لم يعرف سواه ، وقد انتهت اليه ثقافات عصره حتى ليُدرك عنده الشيء الذي لا يُدرك عند غيره ، وهذا واضح في أقوال الأئمة فيه • فهذا بن المديني يقول : نظرت فإذا الاسناد يدور على ستة ، ثم صار علم هؤلاء الستة الى اثني عشر ، ثم انتهى علم الاثني عشر الى ستة : الى يحيى بن سعيد ، وعبدالرحمن ابن مهدي ، ووكيع ، وعبد الله بن المبارك ، ويحيى بن زكريا بن أبي زائدة ، ويحيى بن آدم (٦٣) • ويقول ابن المديني

(٦٢) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٢) .

(٦٣) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٤ . وابن المديني الذي يقول هذا الكلام في ابن المبارك هو الإمام الذي يقول فيه البخاري : ما استصغرت نفسي بين يدي أحد من العلماء إلا بين يدي ابن المديني .

أيضاً في مكان آخر: انتهى العلم الى رجلين: الى عبد الله بن المبارك، ثم من بعده إلى يحيى بن معين . وكان يقول : عبد الله بن المبارك هو أوسع علماً من عبد الرحمن بن مهدي ويحيى بن آدم . وكان يحيى بن معين - الذي انتهى إليه العلم بعد ابن المبارك - إذا ذكر أصحاب سفيان الثوري قال : هم خمسة : ابن المبارك . . . وبدأهم به . وُذكر مرة عبد الله بن المبارك عنده ، فقال : كان عبد الله بن المبارك - رحمه الله - كَيْسًا مُتَبَتًّا ثِقَةً ، وكان عالماً صحيح الحديث ، وكانت كتبه التي حدث بها عشرين ألفاً أو واحداً وعشرين ألفاً (٦٤) .

وإن رجلاً هذه مكاتته في العلم وهذا مبلغه منه ، ليس غريباً أن يُقدِّم قوله على قول غيره . وقد سبق أن ذكرنا قول يحيى ابن معين عندما سئل عن عبد الرزاق وابن المبارك ، فقال : كان ابن المبارك خيراً من عبد الرزاق ومن أهل قرينته ، ثم قال مستنكراً: تضم عبد الرزاق إلى عبد الله؟! . وحدث جعفر بن أبي عثمان الطيالسي قال : قلت ليحيى بن معين :

— إذا اختلف يحيى القطان ووكيع ؟

— قال : القول قول يحيى .

(٦٤) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٤) ويريد بـ « كتبه » الأجزاء التي كتبها عن شيوخه المحدثين ، والجزء عند المحدثين يعدل الرسالة الصغيرة في عرفنا اليوم .

— قلت إذا اختلف عبد الرحمن ويحيى؟

— قال : يحتاج من يفضل بينهما •

— قلت : أبو نعيم وعبد الرحمن؟

— قال : يحتاج من يفضل بينهما •

— قلت : الأشجعي؟

— قال : مات الأشجعي ومات حديثه معه •

— قلت : ابن المبارك؟

— قال : ذلك أمير المؤمنين (٦٥) •

ذلك أمير المؤمنين ، هذا أكبر لقب عرفه المحدثون ، ولم يكن ابن المبارك أمير المؤمنين بمعنى الحاكم والسلطان ، ولكنه أمير المؤمنين في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم • ولم يكن هذا الاعتراف قاصراً على يحيى بن معين فقط ، بل كان ينطق بذلك كل من عرف مكانة ابن المبارك في العلم ، فهذا إبراهيم الحربي يسأل : إذا اختلف أصحاب معمر فالقول قول من ؟ قال : القول قول ابن المبارك (٦٦) •

(٦٥) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٥) .

(٦٦) المرجع السابق .

وقد بلغ من حذق ابن المبارك في هذا الفن أن أصبح قوله مقدماً على سواه ، قال القواريري : لم يكن ابن مهدي يُقدِّم عليه وعلى مالك في الحديث أحداً (٦٧) .

حفظه

وثاني ما يسترعي الانتباه أنه كان آية في قوة الحفظ ، واستمسك الذاكرة ، والحفظ بالنسبة للحديث وفي ذلك العهد خاصة آلة العلم الأولى التي تمكن العالم من الضبط ، وتوصله إلى النبوغ . وقد سبق - في الحديث عن نشأته - ما حدث به صديق لابن المبارك عن حفظه للخطبة الطويلة ثم إعادتها عن ظهر قلب في حال صغره ، فقد كان يتمتع بحافظة نادرة حتى روي أنه قال : ما أودعت قلبي شيئاً قط فخانني (٦٨) ، وعن نعيم بن حماد أنه سمع عبد الله بن المبارك يقول : قال لي أبي : لئن وجدت كتبك لأحرقنها، فقلت له: وما عليّ من ذلك وهو في صدري! (٦٩) .

أما عن طريقة حفظه للحديث فقد قال النضر بن مساور : قلت لعبد الله بن المبارك : يا أبا عبد الرحمن هل تحفظ الحديث؟

(٦٧) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٥) .

(٦٨) الطبقات الكبرى للشعراني (١ : ٦٠) .

(٦٩) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٦) .

— يعني هل تحفظه حفظاً — قال : فتغير لونه وقال : ما تحفظت حديثاً قط إنما آخذ الكتاب فأنظر فيه فما أشتهيه علق بقلبي (٧٠) .
هذا ما ورد عن قوة حفظه العجيبة ، أما عن سعة حفظه للحديث فليست هذه أقل عجباً من تلك وإليك الدليل :

حضر عبد الله بن المبارك عند حماد بن زيد مسلماً عليه ، فقال أصحاب الحديث لحامد بن زيد :

— يا أبا إسماعيل ، تسأل أبا عبد الرحمن — يعنون ابن المبارك — أن يحدثنا ؟

— فقال : يا أبا عبد الرحمن ، تحدثهم ؟ فإنهم قد سألوني .

— قال : سبحان الله يا أبا إسماعيل أحدث وأنت حاضر ؟!

— قال : أقسمت لتفعلن .

— فقال ابن المبارك : خذوا : حدثنا أبو إسماعيل حماد بن

زيد . . . وحدثهم مجلساً كاملاً ، فما حدث فيه بحرف إلا عن حماد بن زيد (٧١) .

وسرى في منهجه العلمي أنه مع شدة هذا الحفظ والتثبت ، كان لا يحدث إلا من كتاب ، وذلك من تمام الدقة والضبط حرمة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٧٠) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٥) .

(٧١) المرجع السابق (١٠ : ١٥٥) .

حذقه ومهارته ومعرفته بالآثار والرواة

وثالث ما يسترعي النظر في ابن المبارك المحدث أنه كان إماماً جهبذاً نقاداً ذا نظر ثاقب، وصيرفياً ماهراً ذا ميزان دقيق، يميز بين صحيح الحديث وسقيمه، ويفرق بين غثه وسمينه، ولذلك كان مثابة للناس، ومرجعاً يحتكم إليه أصحاب الحديث، ويصدرون عن رأيه، حتى كان يقال له: (الطبيب) لشدة معرفته بالحديث، فعن فضالة التونسي قال: كنت أجالس أصحاب الحديث بالكوفة، وكانوا إذا تشاجروا في حديث قالوا: مروا بنا إلى هذا الطبيب حتى نسأله يعنون عبد الله بن المبارك (٧٢) . وكان يحيى بن آدم يقول: كنت إذا طلبت الدقيق من المسائل، فلم أجده في كتب ابن المبارك، أيست منه (٧٣) .

وذلك أن ابن المبارك كان طبيب الحديث وأمير المؤمنين فيه كما وصفه أئمة العلم، وكان هذا يعرفه كل الناس في عصره، حتى السلطان، مع أن ابن المبارك كان أبعد الناس عن أبواب الحكام والسلاطين . فقد أخرج ابن عساكر عن ابن عثية قال: أخذ هارون الرشيد زنديقاً فأمر بضرب عنقه، فقال له الزنديق:

— لم تضرب عنقي؟

(٧٢) تاريخ بغداد (١٠: ١٥٦) .

(٧٣) المرجع السابق .

— قال له : أريح العباد منك .

— قال : فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — كلها ، ما فيها حرف نطق به ؟

— قال له الرشيد : فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق
الفزاري ، وعبد الله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً (٧٤) .
وقد قيل لابن المبارك مرة : هذه الأحاديث الموضوعة ؟ فقال :
تعيش لها الجهابذة (٧٥) . وكان ابن المبارك كان يعني نفسه فقد
عاش لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يميز بين صحيحه
وسقيمه ، وبين قويه وعليه ، حتى وصل إلى الغاية التي رأيت .

وسبب هذا الحذق الواسع وهذه المهارة النادرة أن ابن
المبارك رضي الله عنه كان عارفاً برواة الآثار ونقله الأخبار ،
وما أصبح طبيباً للحديث وصيرفياً ماهراً فيه ، إلا بذلك العلم
الغزير ، والنظر الثاقب ، والبصيرة النافذة ، مما جعل الأئمة
يعتمدون على جرحه وتعديله وتصحيحه وتضعيفه ، والأمثلة على
ذلك كثيرة جداً نقل بعضها هنا لعلاقتها بموضوعنا .

(٧٤) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٢) . وقد وردت هذه القصة
أيضاً في : معجم الأدباء لياقوت (١ : ٢١٢) وتاريخ الخلفاء
للسيوطي ص ٢٩٣ .

(٧٥) اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي
(٢ : ٤٧٢) .

فمن معرفته بالرواة : ماورد عن هشام عن ابن عبید الله الرازي قال : سألت ابن المبارك : من أروى الناس أو أحسن الناس رواية عن المغيرة ؛ أجريز ؟ قال : أبو عوانة • وقال ابن المبارك : مارأيت أحداً أروى للزهري من معمر ، إلا أن يونس كان آخذ للسند لأنه كان يكتب •

وقال ابن المبارك : لم أر رجلاً أفضل من يحيى بن أيوب • وقال عن إبراهيم بن طهمان والسكري – يعني أبا حمزة – : صحيحا الكتب • وقال : إذا اجتمع إسماعيل بن عياش وبقية فبقية أحب إليّ • وقال : إذا اختلف الناس في شعبة فكتاب عند ر حكم فيما بينهم •

وعن سعيد بن صالح قال : رأيت ابن المبارك مرّ على رجل بهمدان يحدث عن يزيد بن زريع ، فقال : عن مثله فحدّث •

وقال إبراهيم بن عيسى الطالقاني : قلت لابن المبارك : شهاب بن خراش ؟ فقال : ثقة •

وقال أحمد بن سعيد الدارمي : قال ابن المبارك : حديث الزهري عندنا كأخذ اليد •

هذه صور من تعديله للرجال ، وقد كان لا يترك الرجل حتى يتحقق من ضعفه ، ويتأكد من عدم قوته بشكل لا يبقى معه مجال للشك ، فعن نعيم بن حماد قال : « كان ابن المبارك لا يترك حديث الرجل حتى يبلغه عنه الشيء الذي لا يستطيع أن يدفعه »

فهو لا يجرح إلا بعد التأكد مما يقول فإذا قال جاء بكلام دقيق محرّر ، فعن الحسن بن عيسى بن ماسرجس قال : سمعت ابن المبارك يقول : لا يكتب عن جرير بن عبد الحميد حديث السري ابن إسماعيل ، وترك ابن المبارك حديثه •

وقال يحيى بن معين: سمعت ابن المبارك يغمز عمر بن هارون في سماعه من جعفر بن محمد ؛ وكان عمر يروي عنه ستين حديثاً أو نحو ذلك •

وقال الحسن بن عيسى : ترك ابن المبارك حديث أيوب بن خُوط ، وترك عمرو بن ثابت •

وعن نعيم بن حماد قال : رأيت ابن المبارك يقول : اطرح حديث محمد بن سالم •

وقال يحيى بن آدم لعبدالله بن المبارك: أيهما أحب إليك نصر ابن طريف أو عثمان البري ؟ قال : لا ذا ولا ذا •

فابن المبارك كما ترى دقيق في جرحه كما هو دقيق في تعديله ، لا يجرح الشخص حتى يبلغه عنه ما لا يستطيع دفعه • فإذا ظهر له الحق صدع به ، والحق لا يختلف عنده باختلاف الأشخاص ، فالحق حق مطلقاً والزيغ زيغ كائناً من كان الناطق به • ولذلك كان يقول : « دعوا ذكر الرجال عند الحجاج » كما أخرج عنه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٧٦) •

(٧٦) مقالات الكوثري ص ٣٢٥ •

وهذه المعرفة الواسعة في الرجال جعلته نافذ البصيرة ، يميز الحديث وينقده ، وينفي عنه الخبث إن وجد من أول نظرة •

ومن صور هذه المعرفة بالآثار ما يأتي من الأمثلة :

كان يحيى بن معين يقول في حديث قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « حذف السلام سنة » (٧٧) قال يحيى : كان عيسى بن يونس يرفعه • فقال له ابن المبارك : لا ترفعه ، فكان بعد لا يرفعه •

وعن قوقل بن مطهر قال : كان رجل بالكوفة يقال له حبيب المالكي ، وكان رجلاً له فضل وصحبة فذكرناه لابن المبارك فأثنينا عليه • قلت : عنده حديث غريب • قال : ما هو ؟ قلت : الأعمش عن زيد بن وهب ، قال : سألت حذيفة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقال : إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لحسن ، ولكن ليس من السنة أن تخرج على المسلمين بالسيف • فقال : هذا حديث ليس بشيء • قلت له : إنه وإنه ، فأبى ، فلما أكثرت عليه في ثنائي قال : عافاه الله في كل شيء إلا في هذا الحديث ، كنا نستحسنه من حديث سفيان عن حبيب عن أبي البخترى عن حذيفة •

وذكر لابن المبارك حديث رواه حبيب بن خالد المالكي السابق ذكره ، فقال : ليس بشيء • فقيل له : إنه شيخ صالح • فقال : هو صالح في كل شيء إلا في هذا الحديث •

(٧٧) معناه : لا يمد ولا يعرب بل يسكن آخره •

وعن نعيم بن حماد قال : سمعت ابن المبارك - وُذكر عنده
حديث سَلَم بن سالم - فقال : هذا من عقارب سلم •
وفي « الميزان » (٧٨) أنه كان يقول عن سلم هذا : اتق حيات
سلم لا تلسعك •

وحدث إبراهيم بن عيسى الطالقاني قال : قلت لابن المبارك :
أيصلي أحد عن أحد أو يصوم أحد عن أحد ؟ قال : الصدقة ليس
فيها اختلاف • قلت : فالحديث الذي يروى عن النبي صلى الله
عليه وسلم : إن من البرِّ بعد البرِّ أن تصلي لهما مع صلاتك
وتصوم لهما مع صيامك •••؟ قال : الحديث عن من ؟ قلت : عن
شهاب بن خراش • قال : ثقة ، عن من ؟ قلت : عن الحجاج بن
دينار • قال : ثقة ، عن من ؟ قلت : عن النبي صلى الله عليه وسلم •
فقال : يا أبا إسحاق ، بين الحجاج وبين النبي صلى الله عليه وسلم
مفازة تقطع فيها أعناق المطي •

وهذا معناه أنه لا يقبل المراسيل •

وقد سئل مرة عن حديث : « عليكم بالقرع فإنه يزيد في
الدماغ ، وعليكم بالعدس فإنه قدس على لسان سبعين نبياً »
فقال : ولا على لسان نبي واحد، إنه لمؤذ ينفخ (٧٩) •

(٧٨) ميزان الاعتدال (٢ : ١٨٥) •

(٧٩) المرجع السابق •

وكان يقول في أحاديث أبي بن كعب : « من قرأ سورة كذا
فله كذا ، ومن قرأ سورة كذا فله كذا ٠٠ » : أظن الزنادقة
وضعتة (٨٠) .

هذه المهارة جعلت أئمة العلم في هذا الفن قديماً وحديثاً
يتخذون منه مرجعاً يحتكم إليه ، يفتنون إليه عند الاختلاف في
الحديث ، فيجدون عنده الجواب الشافي ، وجعلت عظماء الأئمة
يقولون بقوله أمثال ابن مهدي وغيره :

فقد سئل عبد الرحمن بن مهدي عن يونس الأيلي فقال :
كان ابن المبارك يقول : كتابه صحيح . قال عبد الرحمن بن مهدي :
وأنا أقول : كتابه صحيح (٨١) . بل كان الإمام البخاري نفسه
يعتمد أقواله ويقول بها ، ففي « تهذيب التهذيب » (٨٢) في ترجمة
« أيوب بن خُوط » قال البخاري : تركه ابن المبارك . وفي
« تهذيب التهذيب » (٨٣) أيضاً في ترجمة « محمد بن سالم الهمداني »
قال البخاري : يتكلمون فيه ، وكان ابن المبارك ينهى عنه . وفيه
أيضاً (٨٤) في ترجمة « محمد بن عبيد الله العرزمي » قال

(٨٠) تأويل مختلف الحديث ص ٨٦ .

(٨١) الامثلة التي لم يسبق عزوها أخذت من كتاب مقدمة

الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ص ٢٦٩ - ٢٧٤ .

(٨٢) تهذيب التهذيب (١ : ٤٠٢) .

(٨٣) المرجع السابق (٩ : ١٧٧) .

(٨٤) المرجع السابق (٩ : ٣٢٣) .

البخاري : تركه ابن المبارك ويحيى • ويحيى هذا هو الإمام الكبير
يحيى بن سعيد القطان أحد أئمة الجرح والتعديل •

شيوخه

سبق أن أشرنا الى أن ابن المبارك كان كثير الأسفار طلاباً
للعلم ؛ يكتب العلم عن كل عالم ثقة ، كتب عن تقدمه ، وعن
عاصره ، حتى كتب العلم عن هو أصغر منه ، ولذلك كان شيوخه
لا يحصرهم العد • وقد سبق أن نقلنا ما رواه العباس بن مصعب
في تاريخه عن ابراهيم بن اسحاق عن ابن المبارك أنه قال : حملت
عن أربعة آلاف شيخ فرويت عن ألف منهم • ثم قول العباس بن
مصعب : وقع لي من شيوخه ثمانمائة^(٨٥) • وقد أطالت كتب
الرجال في سرد أسماء من تلقى عنهم من التابعين وأتباع التابعين ،
وأجمعت على أنهم لا ينحصرون لكثرتهم • وبعضها يذكر من
أساتذته شيوخاً يسقطهم البعض الآخر ، وأكثر ما رُود من شيوخه
في تهذيب التهذيب ففيه^(٨٦) أنه :

روى عن سليمان التيمي، وحميد الطويل، واسماعيل بن أبي
خالد ، ويحيى بن سعيد الأنصاري ، وسعد بن سعيد الأنصاري ،
وابراهيم بن أبي عبلة ، وأبي خلدة خالد بن دينار، وعاصم الأحول،

(٨٥) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) سبقت في بحث طلبه للعلم .

(٨٦) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٣) .

وعبد الله بن عون ، وعبد الله بن عمر ، وعكرمة بن عمار ، وعيسى
 ابن طهمان ، وفطر بن خليفة ، ومحمد بن عجلان ، وموسى بن
 عقبة ، وإبراهيم بن عقبة ، وسليمان الأعمش ، وهشام بن عروة ،
 وعن سفيان الثوري ، وشعبة ، والأوزاعي ، وابن جريج ، ومالك
 ابن أنس ، والليث بن سعد ، وابن أبي ذئب ، وإبراهيم بن طهمان ،
 وإبراهيم بن نشيط ، وأبي بردة بريد بن عبدالله بن أبي بردة ، وحسين
 المعلم ، وحيوة بن شريح ، وخالد بن سعيد الأموي ، وخالد ابن
 عبد الرحمن بن بكر السلمي ، وزكريا بن اسحاق ، وزكريا بن أبي
 زائدة ، وسعيد بن أبي عروبة ، وسعيد بن أبي أيوب ، وأبي شجاع ،
 وسعيد بن يزيد القتباني ، وسعيد بن إياس الجريري ، وسلام
 ابن أبي مطيع ، وصالح بن صالح بن حي ، وطلحة بن أبي سعيد ،
 وعبد الملك بن أبي سليمان ، وعمر بن ذر ، وعمر بن سعيد بن أبي
 حسين ، ومحمد بن عمر بن فروخ ، وعمر بن ميمون بن مهران ،
 وعوف الأعرابي ، ومحمد بن أبي حفصة ، ومعمربن راشد ،
 وهشام بن حسان ، وهيب بن الورد ، ويونس بن يزيد الأيلي ،
 وأبي بكر بن عثمان بن سهل بن حنيف ، وخلق كثير . .

وجاء في غير تهذيب التهذيب أسماء بعض الشيوخ الذين لم
 يذكرهم وذلك مثل :

إبراهيم بن سعد ، وزهير بن معاوية ، وأبي عوافة الواح

ابن خالد^(٨٧) ، والربيع بن أنس ، وخالد بن مهران
 الحذاء^(٨٨) . وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، وسفيان بن عيينة ،
 وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، ومسعر بن كدام ، وآخرين
 لا ينحسرون^(٨٩) .

وأقدم شيخ لقيه هو الربيع بن أنس الخراساني تحمّل ودخل
 إليه السجن ، فسمع منه نحواً من أربعين حديثاً^(٩٠) .

تلاميذه^(٩١)

ان تلاميذ ابن المبارك من الكثرة بحيث لا يحصرهم الحساب
 فقد حدث عنه كثير من الناس حتى من أقرانه ومعاصريه ، بل
 حتى من شيوخه الذين كان يتلقى منهم العلم كسفيان الثوري
 وغيره من الأئمة . حتى قال عنه الذهبي^(٩٢) : حدث عنه خلق

(٨٧) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٢) .

(٨٨) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

(٨٩) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٨٥) .

(٩٠) سير أعلام النبلاء - مصور مخطوط في الجمع -
 (٦ : ٢٤٥) .

(٩١) نقصد بهذا العنوان كل من له رواية عنه من العلماء .
 وقد يكون فيهم بعض أساتذته او معاصريه .

(٩٢) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

لا يحصون من أهل الأقاليم فانه من صباه ما فتر عن السفر .
وقال فيه أيضاً ابن كثير^(٩٣) : « وحدّث عنه خلائق من الناس » .
وقد أطالت الكتب في سرد من تلقى عن ابن المبارك كما أطالت من
قبل في سرد من تلقى عنهم . فمن روى عنه من الأئمة والأعلام :

سفيان الثوري، ومعر بن راشد، وأبو اسحاق الفزاري^(٩٤)،
وجعفر بن سليمان الضبعي ، وبقية بن الوليد ، وداود بن
عبد الرحمن العطار ، وسفيان بن عيينة ، وأبو الأحوص ، والفضيل
ابن عياض ، ومعر بن سليمان^(٩٥)، والوليد بن مسلم ، وأبو بكر
ابن عياش ، وغيرهم من شيوخه وأقرانه .

وروى عنه مسلم بن ابراهيم ، وأبو أسامة الكوفي ، وأبو
سلمة التبوذكي ، ونعيم بن حماد ، وعبد الرحمن بن مهدي ،
ويحيى بن سعيد القطان ، واسحاق بن راهويه ، ويحيى بن معين ،
وابراهيم بن اسحاق الطالقاني ، وأحمد بن محمد مردويه ،
واسماعيل بن أبان الوراق ، وبشر بن محمد السخيتاني ، وحبان
ابن موسى ، والحكم بن موسى ، وزكريا بن عدي ، وسعيد ابن

(٩٣) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٧) .

(٩٤) وأبو اسحاق الفزاري هذا اكبر من ابن المبارك بعشرين
سنة او اكثر . كما في مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٦ .

(٩٥) في ادب الإملاء والاستملاء ص ١٥ عن معمر بن سليمان
انه قال : كنت مع ابن المبارك فيملي علي وأملي عليه .

سليمان ، وسعيد بن عمرو الأشعشي ، وسفيان بن عبد الملك المروزي^(٩٦) ، وسلمة بن سليمان المروزي ، وسليمان بن صالح سلمويه ، وعبد الله بن عثمان عبدان ، وأبو بكر بن أبي شيبة ، وأخوه عثمان بن أبي شيبة ، وعبد الله بن عمر بن أبان الجعفي ، وعلي بن الحسن بن شقيق^(٩٧) ، وعمرو بن عون، وعلي بن حجر، ومحمد بن الصلت الأسدي ، ومحمد بن عبد الرحمن بن سهم الأنطاكي ، وأبو كريب ، وأبو بكر بن أصرم ، ومنصور بن أبي مزاحم ، ومحمد بن مقاتل المروزي ، ويحيى بن أيوب المقابري ، وسويد بن نصر، وخلق كثير آخرهم الحسن بن داود البلخي^(٩٨) .

كما روى عنه أيضاً عبد الله بن وهب، ويحيى بن آدم، وعبد الرزاق ابن همام ، ومكي بن ابراهيم ، وموسى بن اسماعيل ، ويعمر ابن بشر ، وأبو النضر هاشم بن القاسم ، والحسن بن الربيع

(٩٦) وكان سلمة بن سليمان المروزي وراق ابن المبارك . وكان محمد بن اعين المروزي خادمه ، ومعاذ بن أسد المروزي كاتبه . كما في تقريب التهذيب .

(٩٧) قال فيه يحيى بن معين : ما قدم علينا من خراسان أفضل منه ، كان عالماً بابن المبارك ، وقد سمع منه الكتب مراراً . وقال العباس بن مصعب : كان جامعاً يعد من أحفظهم لكتب عبد الله . انظر تذكرة الحفاظ (١ : ٣٣٧) .

(٩٨) تهذيب التهذيب (٥ : ٢٨٤) .

البوراني ، والحسن بن عرفة ، ويعقوب الدورقي ، وابراهيم ابن
مجشر (٩٩) .

وأحمد بن منيع ، وأحمد بن حنبل المروزي ، والحسن ابن
عيسى بن ماسرجس والحسين بن الحسن المروزي (١٠٠) .

وأبو داود الطيالسي ، ومحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ،
وخلاتق غيرهم (١٠١) .

وقد ورد أن الامام الشافعي روى عنه حديثاً في التعوذ من
النحل (١٠٢) .

ولعل سبب كثرة تلاميذه ماقدمنا من أنه من صباه ما فتر عن
الأسفار الى جميع الأمصار التي عرفت بالنشاط العلمي في ذلك
العصر . وقد كان يحدث في كل مكان حل فيه ، وفي كل بلد سافر
اليه ، حتى ولو كان ثغراً من الثغور ، لا ينضب معينه ، ولا ينفد
زاده ، لأنه كان كما يقول الامام أحمد بن حنبل (١٠٣) : « من رواة
العلم وأهل ذلك ، وجمع أمراً عظيماً ، كان صاحب حديث ،
حافظاً » .

(٩٩) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٣) .

(١٠٠) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

(١٠١) تهذيب الاسماء واللغات (١ : ٢٨٥) .

(١٠٢) مناقب الشافعي للبيهقي (٢ : ٣١٥) .

(١٠٣) تهذيب الاسماء واللغات (١ : ٢٨٦) .

رَوَايَتُهُ عَنْ ابْنِ لَهَيْعَةَ

عبد الله بن لهيعة هو الامام الكبير قاضي الديار المصرية وعالمها ومحدثها (١٠٤) . وقد روى عنه الثوري ، والأوزاعي ، وشعبة ، وابن المبارك ، وخلق ، وخرج له الترمذي وأبو داود وغيرهما (١٠٥) .

وقد اختلفت فيه أقوال أئمة الجرح والتعديل : فضعفه كثيرون منهم : كيحيى بن معين ، والليث بن سعد ، ويحيى بن سعيد ، والبخاري ، والنسائي ، وابن سعد وآخرون (١٠٦) . كما وثقه بعض الأئمة كأحمد وغيره ، وكان يقول فيه : من كان بمصر مثل ابن لهيعة في كثرة حديثه وضبطه واتقانه؟! (١٠٧) وكان الثوري يقول : عند ابن لهيعة الأصول وعندنا الفروع . ويقول : حجبت حجبا لألقى ابن لهيعة . وكان ابن وهب يقول : حدثني - والله - الصادق البار عبد الله بن لهيعة ، وكان أحمد بن صالح يثني عليه ويقول : ابن لهيعة صحيح الكتاب ، وإنما كان أخرج كتبه فأملى على الناس حتى كتبوا حديثه إملاءً ؛ فمن ضبط كان حديثه حسنا ، إلا أنه كان يحضر من لا يحسن ولا يضبط

(١٠٤) تذكرة الحفاظ (١ : ٢١٩) .

(١٠٥) شذرات الذهب (١ : ٢٨٤) .

(١٠٦) تهذيب الاسماء واللغات (١ : ٢٨٤) .

(١٠٧) شذرات الذهب (١ : ٢٨٤) .

ولا يصحح، ثم لم يخرج بعد ذلك ابن لهيعة كتاباً ولم يثر له كتاب .
وكان من أراد السماع منه استنسخ ممن كتب عنه وجاء فقرأ عليه .
فمن وقع على نسخة صحيحة فحديثه صحيح . ومن كتب من
نسخة لم تضبط جاء فيه خلل كثير (١٠٨) .

والذي يهمننا هنا رواية ابن المبارك عنه ، فقد قالوا في سبب
ضعف ابن لهيعة أنه احترقت كتبه ، ورواية ابن المبارك عنه
كانت قبل احتراقها ، وفي ذلك يقول الفلاس (١٠٩) : من كتب
عنه قبل احتراق كتبه مثل ابن المبارك وأبي المقرئ فسماعه أصح (١١٠)
ولكن يحيى بن معين يقول : هو ضعيف قبل أن تحترق كتبه وبعد
احتراقها (١١١) .

وحتى على فرض ضعف ابن لهيعة قبل احتراق كتبه
أيضاً ، فإن رواية ابن المبارك عنه تبقى مستثناة من هذا
الضعف . وفي ذلك يقول ابن مهدي : ما أعتد بشيء سمعته من
حديث ابن لهيعة الا سماع ابن المبارك ونحوه (١١٢) . ويقول

(١٠٨) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٧٦) .

(١٠٩) الفلاس : بقاء مفتوحة ولام مشددة ، نسبة الى بيع
الفلوس . وهو عمرو بن بحر البصري سكن بغداد وتوفي سنة ٢٤٩ هـ

(١١٠) ميزان الاعتدال (٢ : ٦٤) .

(١١١) المرجع السابق .

(١١٢) المرجع السابق .

عبد الغني بن سعيد الأزدي : إذا روى العبادة عن ابن لهيعة فهو صحيح • والعبادة هم : عبد الله بن المبارك ، وعبد الله بن وهب ، وعبد الله المقرئ • وذكر الساجي وغيره مثله (١١٣) •

ولعل سبب استثناء رواية ابن المبارك ومن معه من الضعف ، هو أنهم كانوا لا يكتفون بمجرد السماع من ابن لهيعة ، بل كانوا يتتبعون الأصول ، وعن هذا يقول أبو زرعة : سماع الأوائل والأواخر منه سواء ، إلا ابن المبارك وابن وهب كانا يتتبعان أصوله ، وليس ممن يحتج به (١١٤) • ومما يؤكد ذلك أن ابن المبارك نفسه كان يرى ضعف ابن لهيعة وذلك أنه سمع رجلاً يذكره فقال : قد أراب ابن لهيعة (١١٥) •

أصحُّ الأسانيدِ عندهُ

قال ابن المبارك والعجلي : أرجح الأسانيد وأحسنها سفيان الثوري ، عن منصور ، عن ابراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله ابن مسعود • وكذلك رجحها النسائي (١١٦) •

وهذا أحسن الأسانيد وأرجحها عند ابن المبارك على الإطلاق،

(١١٣) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٧٣) •

(١١٤) ميزان الاعتدال (٢ : ٦٤) •

(١١٥) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢١٧ •

(١١٦) تدريب الراوي (١ : ٨٢) •

وقد رأيت أن العجلي والنسائي يقولان بقوله أيضاً ، وكذلك فقد
« وافقه الحاكم على أنه أصح الأسانيد الى ابن مسعود (١١٧) » .
وقال أحمد بن عبد الله : انه أحسن اسناد الكوفة (١١٨) .

وكان ابن المبارك يفضل أحاديث أهل مدينة رسول الله صلى
الله عليه وسلم على غيرها من البلدان؛ فيقول: « حديث أهل المدينة
أصح ، واسنادهم أقرب » (١١٩) .

نماذج من مروياته

بعد أن عرفنا مكانة ابن المبارك الرفيعة في الحديث ، وعرفنا
ما يتمتع به من حافظة عجيبة ، وذاكرة نادرة ، ثم عرفنا بعد ذلك
من سعة حفظه للحديث ، ما مكنه من أن يحدث مجلساً كاملاً
لا يحدث فيه الا عن حماد بن زيد ، وذلك عندما طلب أصحاب
الحديث من حماد بن زيد أن يسأل ابن المبارك أن يحدثهم . بعد
ذلك يمكننا أن نعرض نماذج مما رواه ابن المبارك رضي الله عنه
من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك لتأخذ صورة -
ولو مصغرة - عن مروياته .

وفيما يلي بعض مروياته نختارها من حلية الأولياء نسوقها
بسندها :

(١١٧) تدريب الراوي (١ : ٨٤) .

(١١٨) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٢٢) .

(١١٩) تدريب الراوي ١ / ٨٥ .

١ - حدثنا أحمد بن جعفر بن معد ، حدثنا يحيى بن مطرف ،
حدثنا مسلم بن ابراهيم ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن موسى
ابن عقبة ، عن سالم بن عبد الله بن عمر ، عن أبيه قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « من ظلم شبراً من الأرض خنق به
يوم القيامة » (١٢٠) .

٢ - حدثنا جعفر بن عمر ، حدثنا ابو حصين ، حدثنا يحيى
الحمّاني ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن سليمان التيمي ، عن
أنس بن مالك قال : « عطس رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم
فشمّت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدهما ولم يشمّت (١٢١)
الآخر، وقال: ان هذا قال: الحمد لله ولم تقل أنت: الحمد لله » (١٢٢) .

٣ - حدثنا طلحة بن أحمد بن حسن العوفي، حدثنا محمد بن
علوية المصيصي، حدثنا يوسف بن سعيد بن مسلم ، حدثنا عبد الله
ابن موسى ، حدثنا ابن المبارك ، عن سليمان التيمي ، عن أنس

(١٢٠) لم أجده بمثل هذا اللفظ ، وقد روي عن كثيرين من
الصحابة ، ولفظ الشيخين : « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه
من سبع أرضين » عن عائشة لا عن ابن عمر .

(١٢١) تسميت العاطس سنة إذا حمد الله ، وهو ان يقال له:
« يرحمك الله » ويجيب هو : « يهديكم الله ويصلح بالكم » اي :
شأنكم .

(١٢٢) متفق عليه . وفي الحديث : فقال الذي لم يشمته :
عطس فلان فشمته وعطست فلم تشمّنتي ؟ فقال : هذا حمد الله
تعالى وانك لم تحمد الله تعالى .

ابن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت ليلة أسري بي رجالاً تقطع ألسنتهم بمقاريض من نار ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بما لا يفعلون » (١٢٣) .

٤ - حدثنا أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن حمزة ، حدثنا ابراهيم بن هاشم ، حدثنا أحمد بن حنبل ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا حميد ، عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، واستقبلوا قبلتنا ، وصلّوا جماعتنا ، وأكلوا ذبيحتنا ، حرمت علينا دماؤهم وأموالهم الا بحقها ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين » (١٢٤) .

٥ - حدثنا جعفر بن محمد بن عمرو ، حدثنا أبو حصين ، حدثنا يحيى بن عبد الحميد ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن عبد الله بن سعيد بن أبي هند ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » (١٢٥) .

(١٢٣) رواه ابن أبي الدنيا وابن حبان والحاكم والبيهقي .
- والفاظهم متقاربة - عن أنس .

(١٢٤) رواه البخاري عن أنس .

(١٢٥) متفق عليه .

٦ - حدثنا أبو بكر بن خلاد ، حدثنا الحارث بن أبي أسامة ،
حدثنا النضر قال : حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن أبي بكر بن
أبي مريم ، حدثنا ضمرة بن حبيب ، عن شداد بن أوس ، عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الكيِّسُ من دان نفسه وعمل
لما بعد الموت ، والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » (١٢٦) .

٧ - حدثنا أبو بكر الطلحي ، حدثنا الحسن بن جعفر القتات ،
حدثنا عبد الله بن الصالح ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا
يحيى بن عبيد الله قال : سمعت أبي يقول : سمعت أبا هريرة
يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما رأيت مثل الجنة
نام طالبها ، ولا رأيت مثل النار نام هاربها » (١٢٧) .

٨ - حدثنا أبو اسحاق بن حمزة ، وعلي بن هارون ،
وعبد الله بن محمد بن أحمد ، قالوا : حدثنا جعفر الفريابي ، حدثنا
ابراهيم ، عن عثمان بن زياد ، حدثنا ابن المبارك ، عن مالك بن
أنس ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد
الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله

(١٢٦) رواه الامام أحمد .

(١٢٧) رواه الترمذي عن ابي هريرة ، وضعفه يحيى بن
عبيد الله المذكور في سند ابن المبارك ؛ لكن رواه الطبراني في الاوسط
عن أنس بإسناد حسن .

تعالى لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ،
فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم
تعطه أحداً من خلقك ؟! فيقول : أنا أعطيتكم أفضل من ذلك أحل
عليكم رضواني فلا أسخط عليكم » (١٢٨) .

٩ - حدثنا أبو اسحاق بن حمزة ، أخبرنا أبو القاسم البغوي
- املاءً - والقاسم بن يحيى قال : حدثنا الحسن بن عيسى ،
حدثنا ابن المبارك ، عن يونس ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ،
أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفاً ، تضيء وجوههم
إضاءة القمر ليلة البدر . فقال أبو هريرة : فقام عكاشة الأسدي
فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : اللهم اجعله
منهم . ثم قام رجل من الأنصار فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ،
فقال : سبقك بها عكاشة » (١٢٩) .

(١٢٨) متفق عليه .

(١٢٩) متفق عليه ، وعكاشة : بضم أوله وتشديد الكاف
وتخفيفها أيضاً ، وهو ابن محصن : بكسر الميم . وعكاشة من
السابقين الأولين ، شهد بدرًا وأبلى فيها بلاءً حسناً ، ثم شهد أحداً
والخندق وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
واستشهد في قتال المرتدين في زمن أبي بكر رضي الله عنه . وله
أربع وأربعون سنة رضي الله عنه .

١٠ - حدثنا جعفر بن محمد ، حدثنا أبو حصين ، حدثنا يحيى بن عبد الحميد ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن عبد الله بن عقبة ، حدثني يزيد بن أبي حبيب ، أن أبا الخير حدثه ، أن عقبة ابن عاصم حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلتى على قتلى أحد بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والمودع للأموات ، ثم قال : « إني من بين أيديكم فرط (١٣٠) ، وأنا عليكم شهيد ، وإن موعدكم الحوض ، واني لأنظر اليه في مقامي هذا ، واني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها » .

قال عقبة : وكان آخر نظرة نظرتها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٣١) .

ابن المبارك الفقيه مكانته في الفقه

لم يكن ابن المبارك محدثاً فحسب ، بل كان فقيهاً أيضاً ،

(١٣٠) الفرط : بفتح الفاء والراء : الذي يتقدم الواردين فيهم لهم ما يحتاجون . وهو هنا : المتقدم للثواب والشفاعة . ومنه قيل للطفل الميت : « اللهم اجعله لنا فرطاً » أي اجراً يتقدمنا حتى نرد عليه .
(١٣١) متفق عليه .

وقد ذكره ابن النديم في الفهرست بين فقهاء المحدثين . وقد رأيت مكاتته في الحديث ، أما مكاتته في الفقه فما كانت تقل عن مكانة معاصريه من الأئمة والأفذاذ ، وإذا كان قد ذكر في طبقات المحدثين ، فقد ذكر أيضاً في طبقات الفقهاء وترجم له ، وفي أي مكان يذكر فيه ابن المبارك أول ما يقال فيه : أنه جمع الحديث والفقه والعربية . . فكما كان محدثاً من الطراز الأول كان فقيهاً من الطراز الأول . فهذا الحافظ ابن حجر يقول (١٣٢) : عبد الله بن المبارك ثقة ثبت فقيه . وهذا سفيان بن عيينة يقول : لقد كان فقيهاً عالماً (١٣٣) . وفي البداية والنهاية (١٣٤) : وكان موصوفاً بالحفظ والفقه . وقد سبق قول عبد الرحمن بن مهدي (١٣٥) : « الأئمة أربعة : سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وحمام بن زيد ، وابن المبارك » وابن مهدي هذا هو الذي يقول فيه أيوب بن المتوكل : كنا إذا أردنا أن ننظر إلى الدين والدنيا ذهبنا إلى دار عبد الرحمن بن مهدي (١٣٦) . ان ابن مهدي الذي يعد ابن المبارك في صف سفيان ومالك وحمام لا يقول هذا الكلام إلا عن خبرة ومعرفة . فقد جالس الجميع وأخذ عنهم ، وعرف مقام كل واحد منهم ، بل كان يفضل ابن

. (١٣٢) تقريب التهذيب (١ : ٤٤٥) .

. (١٣٣) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٥) .

. (١٣٤) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٧) .

. (١٣٥) في بحث (ابن المبارك المحدث) .

. (١٣٦) تذكرة الحفاظ (١ : ٣٠٢) .

المبارك على سفيان الثوري كما سبق أن نقلنا ذلك عنه (١٣٧) .
كما نقلنا قول سفيان نفسه في أن ابن المبارك عالم المشرق والمغرب،
وإذا عرفنا أن هذه شهادة أستاذ لتلميذه، أمكننا أن نتصور ما كان
عليه ابن المبارك من العلم ، وما وصل اليه من النبوغ ، وقد
بلغ من سمو مكاتته في الفقه أن أصبح فقيه العرب بعد سفيان
الثوري ، فقد حدث محمد بن المعتمر بن سليمان قال : قلت لأبي:
يا أبتِ مَنْ فقيه العرب ؟ قال : سفيان الثوري . فلما مات سفيان
قلت : يا أبتِ من فقيه العرب ؟ قال : عبد الله بن المبارك (١٣٨) .
بل كان ينظر إليه البعض على أنه أفقه الناس جميعاً في ذلك العصر،
فعن إبراهيم بن شماس قال : رأيت أفقه الناس ، وأورع الناس
وأحفظ الناس ، فأما أفقه الناس فعبد الله بن المبارك ، وأما أورع
الناس فضيل بن عياض، وأما أحفظ الناس فوكيع بن الجراح (١٣٩) .
وعن عبد الله بن سنان قال : قدم ابن المبارك مكة وأنا بها ، فلما
خرج شيعته سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض وودعاه ، فقال
أحدهما : هذا فقيه أهل المشرق ، فقال الآخر : وفقيه أهل
المغرب (١٤٠) .

(١٣٧) انظر صفحة ٧٢ من هذا الكتاب .

(١٣٨) مقدمة الجرح والتعديل ص ١٦٢ وحلية الأولياء
(١٦٣ : ٨) .

(١٣٩) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٤) .

(١٤٠) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٦) .

وقد تهيأ لابن المبارك ما لم يتهيأ حتى لكبار الأئمة المتبوعين المشهورين ، وذلك أنه بلغ من علو منزلته ، ورفعة شأنه ، وشهرة عدالته ، التي شهد بها الكبير والصغير ، أنه لم يوجد له منتقص ، فقد قال أبو عمر : لا أعلم أحداً من الفقهاء سلم أن يقال فيه شيء إلا عبد الله بن المبارك (١٤١) .

شيوخه في الفقه

جالس ابن المبارك كثيراً من الشيوخ ، وروى عن كثيرين ، وأبرز شيوخه في الفقه ثلاثة من كبار الأئمة وهم : سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وأبو حنيفة ؛ فقد جاء في بعض الروايات أنه تفقه على سفيان الثوري ، ومالك بن أنس وروى عنه الموطأ (١٤٢) ، وجاء في بعضها الآخر أنه تفقه بأبي حنيفة وأخذ عنه علمه (١٤٣) . ولذلك سنذكر نبذة عن كل واحد من هؤلاء وعن صلته بإمامنا ابن المبارك ، وذلك لنعرف أهم الموارد التي استقى منها ثقافته الفقهية .

(١٤١) الجواهر المضية (١ : ٢٨٢) .

(١٤٢) وفيات الأعيان (٢ : ٢٣٧) . وشذرات الذهب

(١ : ٢٩٦) . ومراة الجنان « ١ : ٣٧٩ » .

(١٤٣) النجوم الزاهرة (٢ : ١٠٣) .

١ - سُفْيَانُ الثَّوْرِي

هو الإمام الجامع لأنواع المحاسن ، وهو من تابعي التابعين ، وقد اتفق العلماء على وصفه بالبراعة في العلم بالحديث والفقه والورع والزهد وخشونة العيش والقول بالحق وغير ذلك من المحاسن (١٤٤) . روى عنه ابن المبارك وتفقه عليه ، وكان يقول : لولا أن الله تعالى أعانني بأبي حنيفة وسفيان كنت كسائر الناس (١٤٥) .

وكان ابن المبارك يعترف بعلمه وفضله ، ويشهد بتقدمه وبراعته ، ومن أقواله فيه : لا أعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان (١٤٦) ، ويقول : كتبت عن ألف ومائة شيخ ما فيهم أفضل من سفيان (١٤٧) ، وكان يقول : كنت أقعد إلى سفيان الثوري ، فيحدث ، فأقول : ما بقي من علمه شيء إلا وقد سمعته ، ثم أقعد عنده مجلساً آخر فيحدث فأقول : ما سمعت من علمه شيئاً (١٤٨) . ويقول : كنت إذا أعياني الشيء أتيت سفيان أسأله فكأنما اغتمسه

(١٤٤) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٢٢) .

(١٤٥) قواعد في علوم الحديث ص ٣١٠ - ٣١١ .

(١٤٦) تذكرة الحفاظ (١ : ١٩١) .

(١٤٧) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٢٢) ، وتذكرة الحفاظ

(١ : ١٩١) .

(١٤٨) مقدمة الجرح والتعديل ص ١١٥ .

من بحر ، وما نعت لي أحد فرأيته إلا وجدته دون نعته إلا سفيان
الثوري (١٤٩) . وقد قيل له مرة : من أئمة الناس ؟ فقال : سفيان
وذووه (١٥٠) .

وكما كان يذكر من سعة علمه ، ووفور فضله ، كان يذكر من
عبادته وتشعب ثقافته فيقول : كنت إذا شئت رأيت الثوري
مصلياً ، وإن شئت رأيته محدثاً ، وإن شئت رأيته في غامض
الفقه (١٥١) .

٢ - مالكُ بن أنس

هو الإمام الحافظ فقيه الأمة ، شيخ الاسلام ، وإمام دار
الهدى ، وأحد أئمة المذاهب المتبوعة ، وهو من تابعي التابعين ،
وقد أجمعت طوائف العلماء على إمامته وجلالته وعظم سيادته ،
والإذعان له في الحفظ والتثبت (١٥٢) . وقد قال الإمام الشافعي
فيه : إذا ذكر العلماء فمالك النجم (١٥٣) .

(١٤٩) مقدمة الجرح والتعديل ص ٥٧ .

(١٥٠) حلية الأولياء (٨ : ١٦٨) .

(١٥١) تهذيب الأسماء واللغات (١ : ٢٢٣) .

(١٥٢) تذكرة الحفاظ (١ : ١٩٣) ، وتهذيب الأسماء واللغات
(٢ : ٥٧) .

(١٥٣) تذكرة الحفاظ (٢ : ١٩٤) .

روى عنه ابن المبارك كتاب « الموطأ » وتفقه عليه وأخذ من علمه كما بينا ذلك قبل قليل ، وقد ذكر ابن فرحون ترجمة ابن المبارك بين المالكية في كتابه « الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب » (١٥٤) .

ويبدو أنه كان للإمام مالك مكانة عظيمة عند ابن المبارك ، حتى ليقول الشعر في مدحه والثناء عليه ، فمن قوله في وصف هيئته ووقاره :

يأبى الجوابَ فما يُراجَعُ هيبَةٌ فالسائلون نواكس الأذقان
هدّي الوقارِ وعز سلطانِ التقى
فهو المهيبُ وليس ذا سلطان (١٥٥)

وقد حكى عنه ابن المبارك من عظيم الصبر ، وعظيم الإجلال لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يدهش العقل ، قال : كنت عند مالك فلدغته عقرب ست عشرة لدغة ، فتغير لونه وتصبّر ، ولم يقطع الحديث ، فلما فرغ سألته فقال : صبرت إجلالاً لحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم (١٥٦) .

(١٥٤) الديباج المذهب ص ١٣١ .

(١٥٥) العقد الفريد (٢ : ٧٥ و ٢٧٢) . ونسبهما ابن فرحون في « الديباج المذهب » ص ٢٤ الى سفيان الثوري ، ونسبهما السيوطي في « تنوير الحوالك » ص ٤ الى « شاعر » فالله اعلم .

(١٥٦) فيض القدير (٣ : ٢٥٣) .

وقد حزن ابن المبارك لوفاة مالك رضي الله عنه ، وقال الشعر
النفيس في رثائه ، مبيناً فضله الجم ، وعلمه الغزير ، فمن رثائه له
قوله فيه :

صَموتٌ إذا ما الصمتَ زَيْنَ أهله

وفتاقُ أبكارِ الكلامِ المختَم

وعى ماوعى القرآنُ من كل حكمة

ونيطت له الآداب باللحم والدم (١٥٧)

وبالمقابل فقد كانت مكانة ابن المبارك عظيمة أيضاً عند مالك،
وكان مالك يعترف بفقده وعلمه ويسميه فقيه خراسان ، ويحترمه
ويتزحزح له من مجلسه ، فعن يحيى بن يحيى الأندلسي قال : كنا
في مجلس مالك ، فاستؤذن لابن المبارك فأذن له ، فرأينا مالكا
تزحزح له في مجلسه ، ثم أقعده بلسقه (١٥٨) ، ولم أره تزحزح
لأحد في مجلسه غيره ، فكان القارىء يقرأ على مالك ، فربما مرَّ
بشيء فيسأله مالك : ما عندكم في هذا ؟ فكان عبد الله يجيب
بالخفاء . ثم قام فخرج ، فأعجب مالك بأدبه ، ثم قال لنا : هذا
ابن المبارك فقيه خراسان (١٥٩) .

(١٥٧) العقد الفريد (٢ : ٧٦) وورد أيضاً في : عيون الاخبار

(٢ : ١٧٧) .

(١٥٨) وهذا احترام كبير من الإمام الذي كان يهابه الأمراء ؛
حتى إن أحدهم ليرى المشي حافياً راجلاً من المدينة إلى مكة أهون
عليه من المشي إلى باب مالك . انظر « مناقب الشافعي » ١ / ١٠٢ .

(١٥٩) تهذيب التهذيب (٥ : ٢٨٦) .

٣- أَبُو حَنِيفَةَ

هو الإمام البارع النعمان بن ثابت بن زوطي ، إمام أصحاب الرأي ، وفقه أهل العراق ، وأحد الأئمة المتبوعين ، كان في زمنه أربعة من الصحابة : أنس بن مالك ، وعبد الله بن أبي أوفى ، وسهل بن سعد ، وأبو الطفيل ، ولم يأخذ عن أحد منهم (١٦٠) . وهو الذي قال فيه الإمام الشافعي : الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة (١٦١) .

تفقه عليه ابن المبارك ، وأخذ عنه علماً جماً ، وإن الناظر في ترجمة ابن المبارك لبيدو له أنه كان من كبار تلامذته ، وأنه استفاد منه ما لم يستفد من غيره ، ولذلك عده بعض العلماء في أول تلامذته ، فقد قال ابن حجر الهيتمي (١٦٢) - وهو يتحدث عن فضل أبي حنيفة ومكاته - : « وتلمذ له كبار من المشايخ الأئمة المجتهدين ، والعلماء الراسخين ، كالإمام الجليل المجمع على جلالته وبراعته وتقدمه وزهده عبد الله بن المبارك » ثم ذكر بعده عدداً من تلامذته . وقد ورد ذكره في كتاب (الجواهر المضية في طبقات الحنفية) وفي ذيله أيضاً ، وترجم له في كل من الكتابين ، وقد ذكر له صاحب الجواهر بعض المسائل الفقهية ، كان يفتي فيها برأي أبي حنيفة سنورد بعضها قريباً .

(١٦٠) تهذيب الاسماء واللغات (٢ : ٢١٦) .

(١٦١) تذكرة الحفاظ (١ : ١٦٠) .

(١٦٢) الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة

النعمان ص ٦ .

وقد كان ابن المبارك شديد الإعجاب بعلم أستاذه أبي حنيفة، وعقله وتقواه ، ولذلك كان لا يفتأ يذكر أبا حنيفة وفقهه وورعه ، وعقله وزهده ، وينافح عنه ويرد عنه أقوال المتحاملين والشائنين ، حتى قال يحيى بن معين : ما سمعت أحداً يصف أبا حنيفة ويذكره بمثل ما كان ابن المبارك يصفه ويذكره به من الخير (١٦٣) . وذلك أنه كان كثير التحدث عن أبي حنيفة ، فمن أقواله في فقهه :

« ما رأيت في الفقه مثل أبي حنيفة ، وما رأيت أحداً قط تكلم في الفقه أحسن من أبي حنيفة » (١٦٤) ، « كان أفقه الناس ، ما رأيت في الفقه مثله » (١٦٥) . وكان يقول : دخلت الكوفة فسألت علماءها وقلت : من أعلم الناس في بلدتكم هذه ؟ فقالوا كلهم : الإمام أبو حنيفة (١٦٦) .

وكان يقول في عقله : ما رأيت رجلاً أعقل منه (١٦٧) .

(١٦٣) الخيرات الحسان ص ٤١ .

(١٦٤) تهذيب الأسماء واللغات (٢ : ٢٢٠) .

(١٦٥) الخيرات الحسان ص ٢٩ ، وإنهاء السكن ص ٧٦ .

(١٦٦) إنهاء السكن ص ٧٦ .

(١٦٧) الخيرات الحسان ص ٤١ .

ويقول في ورعه وثباته على الحق : ما رأيت أروع من أبي حنيفة ،
قد جرب بالسياط والأموال (١٦٨) .

ويقول في زهده وتقواه وبعده عن الدنيا : قدمت الكوفة
فسألت عن أزهد أهلها فقالوا : أبو حنيفة . . . ما رأيت أحداً
أروع منه ، ماتقدرون أن تقولوا في رجل عرضت عليه الأموال
العظيمة فنبذها ، وضرب بالسياط ، فعبدَ على السراء والضراء ،
ولم يدخل فيما كان غيره يطلبه ويتمناه؟! (١٦٩) .

من هذه الأقوال المتعددة نعرف أن ابن المبارك كان يدرك
فضل أبي حنيفة ويقدره حق قدره ، ويعترف بفضله عليه وأخذه
الكثير من علمه ، فهو يقول : لولا أن الله تعالى أعانني بأبي حنيفة
وسفيان كنت كسائر الناس (١٧٠) . بل يصل به الاعتراف بفضله
عليه أن يقول : تعلمت ما عندي من الفقه منه (١٧١) .

وإن معرفة ابن المبارك الحقيقية لأبي حنيفة وعلمه ، وصلته
الوثيقة به ، وأخذه العلم عنه ، كل ذلك جعل من ابن المبارك أكبر
المناصرين لأبي حنيفة والمدافعين عنه ضد المتحاملين عليه ، والمتهمين

(١٦٨) تهذيب الأسماء واللغات (٢ : ٢٢١) .

(١٦٩) الخيرات الحسان ص ٣٩ .

(١٧٠) إنهاء السكن ص ٧٦ .

(١٧١) الخيرات الحسان ص ٣٣ .

له بما ليس فيه ، فقد ذُكر أبو حنيفة مرة عند ابن المبارك فقال :
أتذكرون رجلاً عرضت عليه الدنيا بحذافيرها ففر منها ، وما خالط
الظلمة مع سؤالهم له في ذلك وإلحاحهم عليه وتهديده إن لم
يفعل ، وما قبل منهم شيئاً قط وإن قلَّ (١٧٢) . وقال ابن المبارك
مرة : كان أبو حنيفة آية . فقيل له : في الخير أم في الشر ؟ فقال :
اسكت يا هذا ، يقال : آية في الخير وغاية في الشر ! ثم تلا : « وجعلنا
ابن مريم وأمه آية » (١٧٣) .

وكان مع بعض أصحابه بالقادسية فجاءه رجل من أهل
الكوفة فوق في أبي حنيفة ، فقال له ابن المبارك : « ويحك أتقع في
رجل صلى خمساً وأربعين سنة خمس صلوات على وضوء واحد ،
وكان يجمع القرآن في ركعتين في ليلة ، وتعلمت الفقه الذي
عندي منه » (١٧٤) .

• وعن ابن المبارك أنه كان يحدث الناس فقال : حدثني النعمان
ابن ثابت ، فقيل له : من تعني ؟ فقال : أبا حنيفة مخ العلم .
فأمسك بعضهم عن أن يكتب ذلك للإملاء ، فسكت ابن المبارك
هنيهة ثم قال : أيها الناس ما أسوأ أدبكم وأجهلكم بالأئمة ،

• (١٧٢) الخيرات الحسان ص ٦ .

• (١٧٣) تهذيب الاسماء واللغات (٢ : ٢١٩) .

• (١٧٤) تاريخ بغداد ١٣ / ٣٥٥ .

وما أقلّ معرفتكم بالعلم وأهله ، ليس أحد أحقّ أن يُقتدى به من أبي حنيفة ؛ لأنه كان إماماً تقياً ، ورعاً عالماً ، فقيهاً ، كشف العلم كشفاً لم يكشفه أحد يبصر وفهم وفطنة وتقى ، ثم حلف أن لا يحدثهم شهراً (١٧٥) . وكان يقول : إن كان أحد ينبغي له أن يقول برأيه ، فأبو حنيفة ينبغي له أن يقول برأيه ، ويقول : إذا اجتمع سفيان وأبو حنيفة فمن يقوم لهما على فتيا (١٧٦) .

٥ فابن المبارك كما رأيت يدافع عن أستاذه دفاع عارف بعلمه ومكاته وفضله ، حتى يصل به الأمر إلى الغضب والامتناع عن التحديث من أجله ، وقد كان المتحاملون على أبي حنيفة يتهمونونه بأنه لا يعرف الحديث ، فإذا بابن المبارك يقيم الدليل على خبرته بالحديث وعلله . ففي « الاختيار » (١٧٧) ، أن أبا حنيفة يقول بجواز بيع الرطّب بالرطب وبالتمر ، وقول الصاحبين أنه لا يجوز واستدلاً بجواب النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن ذلك بقوله : « أو ينقص إذا جف ؟ قالوا : نعم . قال : لا إذن » . ورد أبو حنيفة الاستدلال بهذا الحديث لضعفه وأن مداره على زيد ابن أبي عياش . فيقول عبد الله بن المبارك تعليقاً على ذلك : كيف يقال : إنّ أبا حنيفة لا يعرف الحديث وقد عرف مثل هذا الإسناد؟!

٥ (١٧٥) الخيرات الحسان ص ٢٩

٥ (١٧٦) تاريخ بغداد (١٣ : ٣٤٣) .

٥ (١٧٧) الاختيار (٢ : ٣٢) .

وكذلك كانوا يتهمونه بالقول بخلق القرآن، فإذا بابن المبارك يقيم الحجة على كذب ذلك فيقول : ذكر جهم في مجلس أبي حنيفة فقال : ما يقول ؟ قالوا : يقول القرآن مخلوق ، فقال : «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا» . وكان ابن المبارك يقسم ويقول : والله مامات أبو حنيفة وهو يقول بخلق القرآن ولا يدين الله به (١٧٨) . وقيل لابن المبارك : فلان يتكلم في ابي حنيفة ، فأشدد :

حَسَدُوكَ إِذَا مَا فَضَّلَكَ اللهُ بِمَا فَضَّلْتَ بِهِ النِّجْبَاءَ (١٧٩)

وروي عن عبد الله بن المبارك أنه قال : قدمت الشام على الأوزاعي فرأيته ببيروت ، فقال لي : يا خراساني من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة يكنى أبا حنيفة ؟ فرجعت إلى بيتي فأقبلت على كتب أبي حنيفة ، فأخرجت منها مسائل من جواد المسائل ، وبقيت في ذلك ثلاثة أيام ، فجئت اليوم الثالث - وهو مؤذن مسجدهم وإمامهم ، والكتاب في يدي - فقال : أي شيء هذا الكتاب ؟ فناولته ، فنظر في مسألة منها وقعت عليها : قال نعمان فما زال قائماً بعد ما أذن حتى قرأ صدرأ من الكتاب ، ثم وضع

(١٧٨) من تعليق العلامة الشيخ زاهد الكوثري على كتاب «الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة» لابن قتيبة الدينوري ص ٥٩ .

(١٧٩) الخيرات الحسان ص ٤٤ .

الكتاب في كفه ، ثم أقام وصلى ، ثم أخرج الكتاب حتى أتى عليها . فقال لي : يا خراساني من النعمان بن ثابت هذا ؟ قلت : شيخ لقيته بالعراق ، فقال : هذا نبيل في المشايخ ، اذهب فاستكثر منه ، قلت : هذا أبو حنيفة الذي نهيت عنه (١٨٠) .

وكان هذا الدفاع من ابن المبارك دفاع المنصف الذي عرف الحق وجهله الناس ، فقد عرفه ابن المبارك أفقه الناس ، وأورع الناس ، وأعقل الناس ، وأزهد الناس ، وأبصرهم بالعلم ، وأنفذهم نظراً ، وأدقهم فهماً ، وأسدهم رأياً ، ولذلك كان أحياناً يفتي برأي أبي حنيفة إذا سئل . وإليك بعض الأمثلة :

— قال ابن وهب : سئل عبد الله بن المبارك عن أكل لحم العتق (١٨١) ، فقال : كرهه أبو حنيفة (١٨٢) .

(١٨٠) تاريخ بغداد (١٣ : ٣٣٨) .

قلت : وفي تاريخ بغداد في ترجمة أبي حنيفة أقوال كثيرة لابن المبارك في ذم أبي حنيفة رضي الله عنه ، والتبرؤ منه ، والظن في اجتهاده ، وعلمه ، ورأيه ، وحديثه ، ولكن هذه الأقوال مثل أقوال كثير من الأئمة غير ابن المبارك التي ساقها الخطيب في الظن في أبي حنيفة ، وقد أسرف في ذلك عفا الله عنه ، فإن لأبي حنيفة بحاراً من الفضائل يفرق فيها كل ما قيل فيه ، وقد أشبع غير واحد من الأئمة الكلام في الرد عليه إشباعاً بالغا .

(١٨١) العتق : اتفق الشافعية والحنابلة على تحريم أكله ، والمراد من قوله « كرهه أبو حنيفة » الكراهة التحريمية .

(١٨٢) الجواهر المضية (١ : ٢٨١) .

— وسئل عن وقت العشاء الآخرة فذكر عن أبي حنيفة : حتى يصبح (١٨٣) .

— وقد كان ابن المبارك إذا تردد في مسألة سأل عنها أبا حنيفة ؛ فقد سأله عن درهمين لرجل اختلطا بدرهم لآخر ، ثم ضاع منهما اثنان لا يعلم من أيهما . فقال : الدرهم الباقي لهما ؟ ثلاثاً (١٨٤) .

• — وسأله عن وقع في قدر طيخه طائر فمات ، فقال لأصحابه : ماترون ؟ فرووا له عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه يهراق المرق ويغسل اللحم ويؤكل . فقال : هذا إن وقع في حال سكونها ، فإن وقع في حال غليانها ألقى اللحم . فقال له ابن المبارك : لم ؟ قال : لوصول النجس إلى باطنه بخلاف الأول لأنه إنما وصل إلى ظاهره فقط ، فأعجبه ذلك (١٨٥) .

ويظهر مما ذكرنا أن ابن المبارك كانت صلته بأبي حنيفة قوية وطويلة ، وأنه أخذ عنه فقهاً واسعاً لم يأخذ مثله عن غيره ممن تفقه عليهم ، وربما سمع منه المسألة ولم يسمعها أصحابه المشهورون فيكتبونها عنه عن أبي حنيفة .

(١٨٣) الجواهر المضية .

(١٨٤) الخيرات الحسان ص ٤٤ .

(١٨٥) المرجع السابق ص ٤٧ .

حدّث أبو سليمان قال : سمعت ابن المبارك يقول : سألت أبا حنيفة رضي الله عنه عن الرجل يبعث بزكاة ماله من بلد إلى بلد آخر ، فقال : لا بأس بأن يبعثها من بلد إلى بلد آخر لذي قرابته ، فحدثت بهذا محمد بن الحسن فقال : هذا حسن ، وهذا قول أبي حنيفة وليس لنا في هذا سماع عن أبي حنيفة رضي الله عنه .

قال أبو سليمان : فكتبه عني محمد بن الحسن عن ابن المبارك عن أبي حنيفة (١٨٦) .

قال إسحاق بن راهويه : عمدت إلى كتب عبد الله بن المبارك ، واستخرجت منها ما يوافق رأي أبي حنيفة من الأحاديث ، فبلغت نحواً من ثلاثمائة حديث (١٨٧) .

وقد أطلنا بعض الشيء في بحث صلته بأبي حنيفة لان صلته به كانت أوثق وأطول ، وتفقهه عليه كان أكثر وأظهر كما رأيت .

بَعْضُ آرَائِهِ فِي الْفِقْهِ

كانت الصبغة العامة للفقهاء في عصر ابن المبارك أنه كان يعتمد على الاجتهاد والرأي الحر ، فكل عالم كان يفتي بما يهديه إليه اجتهاده ، بعد البحث والنظر ، فإذا تبين له فيما بعد خطؤه رجع

(١٨٦) الجواهر المضية (١ : ٢٨١) .

(١٨٧) الورع ص ٧٤ .

عنه إلى الصواب ، وله الأجر على كل حال ، إن أخطأ فله أجر الاجتهاد ، وإن أصاب فله أجر الاجتهاد وأجر الإصابة • وقد كان الإمام ابن المبارك واحداً من أولئك الأئمة المجتهدين والعلماء الراسخين الذين ضمهم ذلك العصر العلمي الزاهر ، وقد سبق قول أبي إسحاق الفزاري : ابن المبارك إمام المسلمين أجمعين • وقول أسود بن سالم : كان ابن المبارك إماماً يقتدى به • كما سبق وصف العلماء له بفضله العرب ، وفقهه أهل المشرق والمغرب •

وقد جمع ذلك العصر عدداً من الأئمة الأعلام : كالإمام مالك ابن أنس ، والإمام أبي حنيفة ، والإمام سفيان الثوري ، والإمام الليث بن سعد ، والإمام الأوزاعي وغيرهم من فقهاء ذلك العصر ، وقد كان ابن المبارك يعد مع هؤلاء الجبال في العلم والأئمة فيه • وأكثر من نقل عنه آراءه الفقهية الإمام الترمذي في كتابه السنن • وفيما يلي نورد طرفاً من آرائه الفقهية التي حكاه عنها الفقهاء ، مرتبة حسب الأبواب الفقهية ، مع ذكر من قال بقوله في أغلب الأحيان ، ومع ذكر من قال بغير قوله أحياناً •

باب الطهارة

الاستنجاء :

الاستنجاء بالحجارة يجزىء وإن لم يستنج بالماء إذا أنقى أثر الغائط والبول •

وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم ، وبه
يقول الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق (١٨٨) .

• يستحب الاستنجاء بالماء وهو أفضل .

وعليه العمل عند أهل العلم ، وبه يقول الثوري والشافعي
وأحمد وإسحاق (١٨٩) .

البول في مكان الفسل :

قال ابن المبارك : قد وَسَّعَ في البول في المغتسل إذا جرى
فيه الماء (١٩٠) .

المضمضة والاستنشاق :

إذا تركهما في الوضوء حتى صلى أعاد الصلاة ، وذلك في
الوضوء والجنابة سواء .

• وبه يقول ابن أبي ليلى وأحمد وإسحاق (١٩١) .

(١٨٨) سنن الترمذي (١ : ٢٨) طبع بحمص بإشراف عزت
عبيد الدعاس .

(١٨٩) المرجع السابق (١ : ٣١) .

(١٩٠) المرجع السابق (١ : ٣٣) . والمغتسل : هو المكان
الذي يفتسل فيه .

(١٩١) المرجع السابق (١ : ٣٨) .

مسح الرأس :

مسح الرأس مرة واحدة .

والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم ، وبه يقول جعفر بن محمد ، وسفيان الثوري ، والشافعي ، وأحمد وإسحاق (١٩٢) .

المسح على العمامة :

لا يجوز الاقتصار على مسح العمامة في الوضوء ؛ إلا أن يمسح برأسه مع العمامة ، لأن الله فرض المسح على الرأس ، والحديث في العمامة محتمل التأويل ، فلا يترك المتيقن للمحتمل ، والمسح على العمامة ليس بمسح على الرأس .

وهو قول سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، والشافعي ، وإليه ذهب أيضاً أبو حنيفة (١٩٣) .

إذا زاد في الوضوء على الثلاث :

قال ابن المبارك : لا آمن إذا زاد في الوضوء على الثلاث أن يأثم (١٩٤) .

-
- (١٩٢) سنن الترمذي (١ : ٤٤) . والمشهور من مذهب الإمام الشافعي أنه يستحب مسح الرأس ثلاثاً .
(١٩٣) نيل الأوطار للشوكاني (١ : ١٨٣) .
(١٩٤) سنن الترمذي (١ : ٥٢) .

الشك في الحدث :

قال ابن المبارك : إذا شك في الحدث فإنه لا يجب عليه
الوضوء حتى يستيقن استيقاناً يقدر أن يحلف عليه (١٩٥) .

النوم :

لا يجب على النائم الوضوء إذا نام قاعداً أو قائماً حتى ينام
مضطجعاً .

وهو قول الثوري وأحمد . وسئل عبد الله بن المبارك عن
نام قاعداً معتمداً ؟ فقال : لا وضوء عليه (١٩٦) .

القيء والرعاف :

يرى ابن المبارك الوضوء من القيء والرعاف .
وهو قول سفيان الثوري وأحمد وإسحاق (١٩٧) .

المسح على الخفين :

— مشروعية المسح .

قال ابن المبارك : ليس في المسح على الخفين عن الصحابة
اختلاف (١٩٨) .

• (١٩٥) سنن الترمذي (١ : ٨١) .

• (١٩٦) المرجع السابق (١ : ٨٣) .

• (١٩٧) المرجع السابق (١ : ٩٦) .

• (١٩٨) نيل الأوطار (١ : ١٩٦) .

— مدة المسح :

يمسح المقيم يوماً وليلة ، والمسافر ثلاثة أيام ولياليهن •

وهو قول أكثر العلماء مثل سفيان الثوري والشافعي

وأحمد وإسحاق (١٩٩) •

— محل المسح :

يمسح ظهور الخفين وبطونها • وذهب إلى ذلك مالك

والشافعي وأصحابهما والزهري ، وروي عن سعد بن أبي وقاص

وعمر بن عبد العزيز (٢٠٠) •

المسح على الجورين :

يمسح على الجورين وإن لم تكن نعلين إذا كانا ثخينين •

وهو قول غير واحد من أهل العلم • وبه يقول سفيان

الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق (٢٠١) •

(١٩٩) سنن الترمذي (١ : ١٠٨) •

(٢٠٠) نيل الأوطار (١ : ٢٠٤) •

(٢٠١) سنن الترمذي (١ : ١١٢) • وقال النووي في

المجموع (٤٩٩/١) : الصحيح من مذهب الشافعي أن الجورب

إن كان صفيقاً — قوياً متيناً — يمكن متابعة المشي عليه جاز المسح

عليه وإلا فلا •

المستحاضة :

المستحاضة إذا جاوزت أيام أقرائها اغتسلت وتوضأت لكل صلاة •

• وبه يقول الثوري ومالك والشافعي (٢٠٢) •

الجنب والحائض :

لا تقرأ الحائض ولا الجنب من القرآن شيئاً إلا طرف الآية والحرف ونحو ذلك ، ويرخص للجنب والحائض في التسبيح والتهليل •

وهو قول أكثر أهل العلم مثل الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق (٢٠٣) •

الصلاة بثوب عليه دم :

إذا كان الدم أكثر من قدر الدرهم أعاد الصلاة •

• وهو قول الثوري (٢٠٤) •

النفساء :

أجمع أهل العلم على أن النفساء تدع الصلاة أربعين يوماً ؛

• (٢٠٢) سنن الترمذي (١ : ١٤٦) •

• (٢٠٣) المرجع السابق (١ : ١٥٨) •

• (٢٠٤) المرجع السابق (١ : ١٦٨) •

إلا أن ترى الطهر قبل ذلك فإنها تغتسل وتصلي ، فإذا رأت الدم بعد الأربعين فإن أكثر أهل العلم قالوا : لا تدع الصلاة بعد الأربعين .

وهو قول أكثر الفقهاء . وبه يقول الثوري ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق (٢٠٥) .

التيمم :

التيمم ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين .
وبه يقول الثوري ومالك والشافعي (٢٠٦) .

باب الصَّلَاة

تارك الصلاة (٢٠٧) :

لا خلاف بين المسلمين في كفر من ترك الصلاة منكراً لوجوبها؛

(٢٠٥) سنن الترمذي (١ : ١٧٠) ، ونسبة هذا القول للإمام الشافعي استغربها النووي في المجموع وقال (٢ : ٥٢٢) : حكى أبو عيسى الترمذي في جامعه عن الشافعي أنه قال : أكثره أربعون يوماً ، وهذا عجيب ، والمعروف في المذهب أن أكثره ستون يوماً .

(٢٠٦) سنن الترمذي (١ : ١٧٨) .

(٢٠٧) انظر البحث مفصلاً في نيل الأوطار (١ : ٣١٥) ، والكبائر للذهبي ، وجامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي .

إلا أن يكون قريب عهد بالاسلام ، أو لم يخالط المسلمين مدة يبلغه فيها وجوب الصلاة • وإن كان تركها تكاسلاً مع اعتقاده لوجوبها كما هو حال كثير من الناس من مسلمي هذا الزمان ، فقد اختلف الأئمة في ذلك •

— فذهب عبد الله بن المبارك إلى أنه يكفر •

وهو قول إبراهيم النخعي ، وأيوب السختياني ، وأحمد ابن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وهو وجه لبعض أصحاب الشافعي ، وهو مروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه •

وهؤلاء جعلوا ترك الصلاة كفراً تمسكاً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة » وبقوله : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » وبغير ذلك من الأحاديث الكثيرة •

— وذهب الشافعي ومالك والجمهور إلى أنه لا يكفر وإنما يفسق ، فإن تاب وإلا قتل حداً بالسيف •

— وذهب أبو حنيفة وجماعة من أهل الكوفة والمزني صاحب الشافعي إلى أنه يعزَّر بالحبس حتى يصلي •

ولكل من المذاهب أدلته ، وقد رجَّح الشوكاني أنه كافر يقتل لأن الأحاديث قد صحت أن الشارع سمى تارك الصلاة بذلك الاسم •

وقد سردنا آراء الأئمة في حكم هذه المسألة ؛ ليعلم تاركو الصلاة أنهم على خطر عظيم ، حتى على رأي أرحم الأئمة بهم ، لعل حجاب الغفلة واللامبالاة ينكشف عن بصائرهم فيعادون النظر في أمر دينهم ، ويعلمون أن الصلاة التي ينظر إليها بعض عميان البصائر كرمز للجمود والرجعية؛ هي عمود الدين، والحقيقة الأولى من حقائق الاسلام .

النوم قبل صلاة العشاء :

قال ابن المبارك : أكثر الأحاديث على الكراهية .

وعلى ذلك أكثر أهل العلم . والعلة في الكراهية : لتلايذهب النوم بصاحبه ويستغرقه ، فتفوته الصلاة أو وقتها المستحب ، أو يترخص الناس في ذلك فينامون عن إقامة جماعتها (٢٠٨) .

الفاظ الإقامة :

ألفاظ الإقامة مثل الأذان مع زيادة (قد قامت الصلاة)

مرتين .

وهو قول الحنفية والثوري وأهل الكوفة (٢٠٩) .

• (٢٠٨) نيل الاوطار (٢ : ١٥) .

• (٢٠٩) المرجع السابق (٢ : ٤٣) .

حكم تكرار الجماعة في المسجد :

إذا أرادوا الصلاة في مسجد قد صلّتي فيه جماعة يصلون

• فرادى

• وبه يقول سفيان ومالك والشافعي (٢١٠) .

الصلاة خلف الصف :

• يجزئه إذا صلى خلف الصف وحده .

• وهو قول الثوري والشافعي (٢١١) .

(٢١٠) نيل الأوطار (٢ : ١٦١) ، وحكم تكرار الجماعة في المسجد الواحد جائز عند الشافعية من غير كراهة إذا كان المسجد مطروقا - كالأموي مثلا - أو ليس له إمام راتب ، أو له وضاق المسجد عن الجميع . وعند الحنفية : يجوز تكرار الجماعة من غير كراهة بشرط ألا تكون الثانية مثل الأولى في هيئتها ، فلو تغير مكان وقوف الإمام الثاني عن مكان الأول ، أو صليت الأولى في المحراب والثانية في مكان آخر لكفى وارتفعت الكراهة . وهذا كله إذا كان تكرار الجماعة في مسجد الحي - وهو ماله إمام وجماعة معينون - أما في مساجد الطرق التي يدخل عليها كل مار فجائز كيفما كان دون كراهة ، كما في الفقه على المذاهب الأربعة .

(٢١١) سنن الترمذي (١ : ٣٠٥) . وصلاته صحيحة مع

الكراهة عند الشافعية كما في المجموع (٤ : ٢٩٨) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ :

هي آية من الفاتحة ومن كل سورة غير براءة •

وذهب إلى هذا القول ابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ،
ومكحول ، وطاووس ، وعطاء ، وطائفة (٢١٢) •

قراءة الفاتحة في الصلاة :

لا تجزىء صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب •

والعمل عليه عند أكثر أهل العلم من الصحابة : منهم عمر بن
الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وجابر بن عبد الله ، وعمران بن
حصين ، وغيرهم •

وبه يقول الشافعي وأحمد وإسحاق (٢١٣) •

رفع اليدين عند الركوع :

قال ابن المبارك : قد ثبت حديث من يرفع يديه ، وذكر
حديث الزهري عن سالم عن أبيه •••

وبه يقول مالك ، ومعمّر ، والأوزاعي ، وابن عيينة ،
والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق (٢١٤) •

(٢١٢) نيل الأوطار (٢ : ٢٠٨) •

(٢١٣) سنن الترمذي (١ : ٣٣٢) •

(٢١٤) المرجع السابق (١ : ٣٤٥) •

القراءة خلف الامام

يرى ابن المبارك القراءة خلف الإمام عملاً بالحديث المتفق عليه « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » .

وهو قول مالك والشافعي وأحمد وإسحاق (٢١٥) ، وروي عن عبد الله بن المبارك أنه قال : أنا أقرأ خلف الإمام والناس يقرؤون الإقوماً من الكوفيين ، وأرى أن من لم يقرأ صلاته جائزة (٢١٦) .

استقبال القبلة

قال ابن المبارك : ما بين المشرق والمغرب قبلة . واختار عبد الله بن المبارك التياسر لأهل مرو (٢١٧) .

من صلى في الغيم لغير قبلة

إذا صلى في الغيم لغير القبلة ، ثم استبان له بعدما صلى أنه صلى لغير القبلة فإن صلاته جائزة .

وبه يقول الثوري وأحمد وإسحاق (٢١٨) .

(٢١٥) سنن الترمذي (١ : ٤١٩) .

(٢١٦) المرجع السابق (١ : ٤٣٤) .

(٢١٧) المرجع السابق (٢ : ٤١) ، ونيل الأوطار (٢ : ١٧٦) .

(٢١٨) سنن الترمذي (٣ : ٤٣) .

إذا صلى الإمام قاعداً

إذا صلى الإمام جالساً لم يصل من خلفه إلا قياماً ، فإن
صلّوا قعوداً لم تجزهم .

• وهو قول سفيان الثوري ومالك بن أنس والشافعي (٢١٩) .

القنوت في الفجر

• لم ير ابن المبارك القنوت في الفجر (٢٢٠) .

الكلام في الصلاة

• إذا تكلم الرجل عامداً في الصلاة أو ناسياً أعاد الصلاة .

• وهو قول سفيان الثوري وأهل الكوفة (٢٢١) .

من فاتته الركعتان قبل الفجر

• لم ير ابن المبارك بأساً أن يصلي الرجل الركعتين بعد
المكتوبة قبل أن تطلع الشمس .

• وبه يقول سفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق (٢٢٢) .

• (٢١٩) سنن الترمذي (٢ : ٦١) .

• (٢٢٠) المرجع السابق (٢ : ١٢٠) .

• (٢٢١) المرجع السابق (٢ : ١٢٣) .

• (٢٢٢) المرجع السابق (٢ : ١٤٩) .

القنوت في الوتر

يقنت قبل الركوع في الوتر في السنة كلها .

وهذا رأي عبد الله بن مسعود ، وبه يقول سفيان الثوري وإسحاق وأهل الكوفة (٢٢٣) .

لاوتران في ليلة

إذا أوتر من أول الليل ثم نام ، ثم قام من آخر الليل ، فإنه يصلي ما بدا له ولا ينقض وتره ، ويدع وتره على ما كان .

وهو قول الثوري ، ومالك ، والشافعي ، وأهل الكوفة وأحمد (٢٢٤) .

من أدرك من الجمعة ركعة

من أدرك ركعة من الجمعة صلى إليها أخرى ، ومن أدركهم جلوساً صلى أربعاً .

وبه يقول الثوري ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق (٢٢٥) .

(٢٢٣) سنن الترمذي (٢ : ١٨٥) .

(٢٢٤) المرجع السابق (٢ : ١٨٩) .

(٢٢٥) المرجع السابق (٢ : ٢٥٩) ، يعني يتمها أربعاً وتحسب ظهراً وإن نوى الجمعة أول الصلاة .

خروج النساء في العيدين إلى المصلى

كرهه ابن المبارك ، وقد حكاه الترمذي عن الثوري ، وهو قول مالك وأبي يوسف (٢٣٦) ، وروي عن عبد الله بن المبارك أنه قال : أكره اليوم الخروج للنساء في العيدين ، فإن أبت المرأة إلا أن تخرج ، فليأذن لها زوجها أن تخرج في أطمارها الخلقان ، ولا تتزين ، فإن أبت أن تخرج كذلك فلزوج أن يمنعها عن الخروج (٢٣٧) .

بابُ الزكاة

زكاة الحلي

في الحلي زكاة ، ما كان منه ذهباً وفضة .

وهو رأي بعض أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين .

وبه يقول سفيان الثوري (٢٣٨) .

زكاة مال اليتيم

ليس في مال اليتيم زكاة .

(٢٢٦) نيل الاوطار (٣ : ٣٠٦) ، وفيه تفصيل آراء الأئمة

في ذلك .

• (٢٢٧) سنن الترمذي (٢ : ٢٨٠) .

• (٢٢٨) المرجع السابق (٢ : ٤٠٠) .

• وبه يقول سفيان الثوري أيضاً (٢٢٩) .

المالك الذي عليه ديون

المالك الذي عليه ديون تستغرق أمواله أو ما تجب فيه الزكاة من أمواله ، وييده مال تجب فيه الزكاة ، قال : لا زكاة في مال حياً كان أو غيره ، حتى تخرج منه الديون ، فإن بقي ماتجب فيه الزكاة زكياً وإلا فلا .

• وهو قول الثوري ، وأبي ثور ، وجماعة (٢٣٠) .

ما تخرجه الأرض المستأجرة

• الزكاة على صاحب الزرع .

• وهو قول مالك ، والشافعي ، والثوري ، وأبي ثور ، وجماعة (٢٣١) .

من تحل له الزكاة

• إذا كان عند الرجل خمسون درهماً لم تحل له الصدقة .

• وبه يقول الثوري وأحمد وإسحاق (٢٣٢) .

• (٢٢٩) سنن الترمذي (٢ : ٤٠٥) .

• (٢٣٠) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد (١ : ٢٤٦) .

• (٢٣١) المرجع السابق (١ : ٢٤٧) .

• (٢٣٢) سنن الترمذي (٣ : ١٣) .

صدقة الفطر

- من كل شيء صاع ؛ إلا من البر فإنه يجزىء نصف صاع .
- وهو قول سفيان الثوري (٢٣٣) .

بابُ الصَّيَامِ

صوم يوم الشك

- يكره أن يصوم الرجل اليوم الذي يشك فيه .

وبه يقول سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق . ورأي أكثرهم : إن صامه فكان من شهر رمضان أن يقضي يوماً مكانه (٢٣٤) .

الشهادة في الصوم

- تقبل شهادة رجل واحد في الصيام .
- وبه يقول الشافعي ، وأحمد ، وأهل الكوفة (٢٣٥) .

صوم شعبان

ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يصوم من السنة

• (٢٣٣) سنن الترمذي (٣ : ٣٤) .

• (٢٣٤) المرجع السابق (٣ : ٤٦) .

• (٢٣٥) المرجع السابق (٣ : ٥٠) .

شهرأ تاماً إلا شعبان يصل به رمضان • وورد أنه كان يصومه إلا قليلاً •

قال ابن المبارك : جائز في كلام العرب إذا صام أكثر الشهر أن يقال : صام الشهر كله • ويقال : قام فلان ليلته أجمع ، ولعله قد تعشى واشتغل ببعض أمره • قال الترمذي : كأن ابن المبارك جمع بين الحديثين بذلك (٢٣٦) •

صيام المسافر

قال ابن المبارك : إن وجد قوة فصام فحسن ، وهو أفضل • وهو قول سفيان الثوري ومالك بن أنس •

وقال الشافعي : وإنما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « ليس من البر الصيام في السفر » وقوله — حين بلغه أن ناساً صاموا فقال — : « أولئك العصاة » فوجه هذا إذا لم يحتمل قلبه قبول رخصة الله ، فأما من رأى الفطر مباحاً وصام وقوي على ذلك فهو أعجب إليّ (٢٣٧) •

الكحل للصائم

اختلف أهل العلم في الكحل للصائم : فكرهه بعضهم ،

• (٢٣٦) نيل الاوطار (٤ : ٢٥٩) .

• (٢٣٧) سنن الترمذي (٣ : ٦٣) .

وهو قول سفيان وابن المبارك وأحمد وإسحاق . ورخص بعض أهل العلم في الكحل للصائم . وهو قول الشافعي (٢٣٨) .

قيام رمضان

هو عشرون ركعة . وهو قول الثوري والشافعي ، وعليه أكثر أهل العلم ، وقد رُوِيَ عن عمر وعلي وغيرهما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (٢٣٩) .

الحج عن الغير

يجوز الحج عن الميت ، وعن الحي إذا كان كبيراً ، أو بحال لا يقدر أن يحج .
وهو قول الشافعي أيضاً (٢٤٠) .

كتاب الجنائز

ما يستحب من الاكفان

قال ابن المبارك : أحب إليّ أن يكفّن في ثيابه التي كان يصلي فيها (٢٤١) .

-
- (٢٣٨) سنن الترمذي (٣ : ٧٨) .
 - (٢٣٩) المرجع السابق (٣ : ١٤٨) .
 - (٢٤٠) المرجع السابق (٣ : ٢٩٥) .
 - (٢٤١) المرجع السابق (٣ : ٣٧٦) .

البكاء على الميت

قال ابن المبارك : أرجو إن كان ينههم في حياته، أن لا يكون عليه من ذلك شيء (٢٤٢) .

البُيُوع

من باع شيئاً ممن تكره معاملته لشبهة ماله أو لبدعته

قال ابن المبارك : يتصدق بالربح خاصة (٢٤٣) .

متى يكون اللزوم في البيع ؟

البيع لازم بالافتراق من المجلس ، وإنهما مهما لم يفترقا فليس يلزم البيع ولا ينعقد ، قال به ابن المبارك .

وهو قول الشافعي ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبي ثور ، وداود ، وابن عمر من الصحابة رضي الله عنهم (٢٤٤) .

(٢٤٢) سنن الترمذي (٣ : ٣٨٣) .

(٢٤٣) جامع العلوم والحكم ص ٩٠ ، وفي «الورع» : أن الثوري وابن المبارك اختلفا في رجل خلف متاعه عند غلامه فباع ثوباً ممن تكره مبيعته ، فقال الثوري : يخرج قيمة الثوب . وقال ابن المبارك : يتصدق بالربح . فقال الرجل : ما أجد قلبي يسكن إلا إلى أن أتصدق بالكيس - وقد كان القى الدراهم في الكيس - فقال أبو عبد الله أحمد بن حنبل : بارك الله فيه . من كتاب الورع ص ١٦ .

قلت : هذا تدين وورع عوام ذلك العصر ، فتدبر !!

(٢٤٤) بداية المجتهد (٢ : ١٧٠) .

الأضحية

قال ابن المبارك : لا تجزى الأضحية إلا عن نفس واحدة (٢٤٥) .

تقسيم الغنيمة

للفارس ثلاثة أسهم : سهم له ، وسهمان لفرسه . وللراجل سهم .
وهو قول سفيان الثوري ، والأوزاعي ، ومالك بن أنس ،
والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق (٢٤٦) .

علوم أخرى

ومع هذه المكانة السابقة التي رأيت ، فلم يكن ابن المبارك رضي الله عنه محدثاً فقط ، ولا فقيهاً فقط ، ولكنه كان جامعة علمية واسعة ، وقد رأيت فيما سبق أنه كان جامعاً لأنواع العلوم والمعارف ، فهو في الحديث طيب ، وفي الفقه إمام ، وهو فوق ذلك : أديب ، وشاعر ، ولغوي ، ومفسر ، ومؤرخ ، ونحوي
وإن كنا قد خصصنا حديثه وفقهه بالبحث ، فذلك لأنهما

(٢٤٥) سنن الترمذي (٥ : ٢١٩) ، والمراد بالأضحية هنا الشاة .

(٢٤٦) المرجع السابق (٥ : ٢٧٥) .

أهم العلوم ، وغيرهما تابع لهما • وسنرى فيما بعد نماذج من شعره الرائق ، وأمثلة من حكمه البليغة المؤثرة •

مَنْهَجُ الْعِلْمِيِّ

منهج ابن المبارك العلمي يتميز بسمات التحري والتمحيص والدقة العلمية في كل شيء ، ويمكننا أن نجمل منهجه العلمي وما يتميز به في خمس مزايا :

الأولى - تشدده في التحري والتثبت :

فمع ما كان عليه ابن المبارك من الحفظ والضبط والتثبت كان يرى أن لا يعتمد على حفظه ، وأن لا يحدث إلا من كتاب ، فكان يحدث من كتبه التي بلغت عشرين ألفاً أو واحداً وعشرين ألفاً • وعن هذا يقول فيه إمام أهل السنة أحمد بن حنبل : جمع أمراً عظيماً ، ما كان أحد أقل سقطاً منه ، كان رجلاً صاحب حديث حافظاً ، وكان يحدث من كتاب (٢٤٧) •

وكان رضي الله عنه شديد التمحيص في الرجال ، لا يروي إلا عن الثقات إذا روي عن الثقات ، وقد سبق أنه حمل عن أربعة آلاف شيخ فلم يحدث إلا عن ألف منهم ، وقد سئل مرة عن نأخذ؟ فقال : من طلب العلم لله •

(٢٤٧) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٤) •

وكان في إسناده أشد ، قد يلقي الرجل ثقة وهو يحدث عن غير ثقة ، ويلقى الرجل غير ثقة وهو يحدث عن ثقة ، ولكن ينبغي أن يكون ثقة عن ثقة (٢٤٨) .

وكان يقول : ليس جودة الحديث قرب الاسناد ؛ جودة الحديث صحة الرجال (٢٤٩) .

وقد قيل له مرة في التشدد في سند الحديث : الرجل يطلب الحديث لله فيشتد في سنده !؟ فقال : إذا كان يطلب الحديث لله فهو أولى أن يشتد في سنده (٢٥٠) .

وعن أبي إسحاق الطالقاني قال : سألت ابن المبارك عن حديث لإبراهيم الخوزي فأبى أن يحدثني به ، فقال له عبد العزيز بن أبي رزمة : حدثه يا أبا عبد الرحمن ، فقال : تأمرني أن أعود في ذنب قد ثبت منه (٢٥١) . وسأله الحسن بن عيسى عن رجل فقال : « قد عرفته » وكان إذا قال : « قد عرفته » فقد أهلكه (٢٥٢) .

(٢٤٨) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) .

(٢٤٩) ادب الإملاء والاستملاء ص ٥٧ .

(٢٥٠) حلية الأولياء (٨ : ١٦٦) .

(٢٥١) تهذيب التهذيب (١ : ١٨٠) .

(٢٥٢) المرجع السابق (٦ : ٣١٧) . وهذه الكلمة اصطلاح

لطيف لابن المبارك في الجرح .

وقال ابن المبارك في عبد الله بن شبرمة : جالسته حيناً ولا أروي عنه (٢٥٣) . وقد أراد أن يأتي أبا منيب العتكي المروزي ، فأخبر أنه روى عن عكرمة قال : لا يجمع الخراج والعشر ، فلم يأتته (٢٥٤) .

وذكر له رجل ممن كان يدلس فقال فيه قولاً شديداً ، وأنشد فيه :

دكس للناس أحاديثه والله لا يقبل تدليسا (٢٥٥)

وذلك لأنه من تمام تشدده في الثبوت كان لا يرى الاشتغال بكتابة أحاديث الضعفاء ، وكان يقول : لنا في صحيح الحديث شغل عن سقيمه . وهذه نظرة سديدة إذ أن من يشتغل بكتابة أحاديث الضعفاء أقل ما يفوته أن يفوته من حديث الثقات بقدر ما كتب من حديث أهل الضعف ؛ كما يقول ابن مهدي (٢٥٦) .

وعلى العكس من ذلك فقد كان يتبع أحاديث الثقات ويجمع متفرقاتها ، حدث بقيّة قال : قال لي ابن المبارك : أخرج لي حديث ثابت بن عجلان . قلت : إنها متفرقة . قال : اجمعها لي . فجعلت أتذكرها وأملي عليه (٢٥٧) . وابن عجلان هذا الذي يجمع حديثه

(٢٥٣) ميزان الاعتدال (٢ : ٤٥) .

(٢٥٤) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٤ .

(٢٥٥) معرفة علوم الحديث للحاكم ص ١٠٣ .

(٢٥٦) فيض القدير (١ : ٤٠) .

(٢٥٧) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧١ .

هو الذي يقول فيه ابن المبارك : لم يكن بالمدينة أحد أشبه بأهل العلم من ابن عجلان ، كنت أشبهه بالياقوتة بين العلماء (٢٥٨) .

الثانية - حرصه على السند :

لقد أكرم الله هذه الأمة بالإسناد ، وجعله من خصوصياتها من بين العباد ، فلم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم أمة يحفظون آثار نبيهم غير هذه الأمة . ولو كتب الحديث بدون سند لاختلط الصحيح بالضعيف بل وبالموضوع ، فيقع الزلل وينسب للرسول صلى الله عليه وسلم ما لم يقل . ومن أجل ذلك كان ابن المبارك يحرص على السند في طلب الحديث أشد الحرص ، ويقول : « طالب العلم بلا سند كراقي السطح بلا سلم » ومثل هذا قول الشافعي رضي الله عنه : « الذي يطلب العلم بلا سند كحاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى وهو لا يدري » (٢٥٩) .

ومن مشهور كلام ابن المبارك رضي الله عنه في الإسناد قوله : « الاسناد من الدين ، ولولا الاسناد لقال من شاء ما شاء » وكان إذا اختلف مع جماعة في حديث يقول : « بيننا وبين القوم القوائم » يعني بذلك الإسناد (٢٦٠) .

• (٢٥٨) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٣ .

• (٢٥٩) فيض القدير (١ : ٤٣٣) .

• (٢٦٠) صحيح مسلم (١ : ٢٢) .

الثالثة - دقته في الجرح والتعديل :

فن الجرح والتعديل يحتاج أول ما يحتاج من يشتغل فيه إلى علم غزير ، واطلاع واسع على أحوال الرجال ، ونباهة عجيبة ، ولا يكفي فيه التقوى والصلاح مع الغفلة والسذاجة . وقد كانت هذه المؤهلات متوفرة في ابن المبارك رضي الله عنه ، فقد رأيت مكاتبه في العلم والضبط واستمسك الذاكرة ، ولذلك كان كبار الأئمة في الحديث يعتمدون على أقواله في الجرح والتعديل : كالإمام البخاري ، والإمام مسلم ، وغيرهما من جهابذة العلم في هذا الفن ، وذلك أنه كان على غاية الدقة العلمية في ذلك ، وقد رأيت صوراً من جرحه وتعديله تشهد له بذلك وتؤيد ما نقول ، ولا نرى حاجة لإعادتها .

وقد كان من دقته أنه ما كان يمنعه صلاح الرجل وتقواه وعبادته وتقدمه في ضروب الخير من أن يتكلم فيه ، وينهى الناس عن الأخذ عنه إذا كان لا يصلح للأخذ عنه وإليك مثلاً على ذلك :

كان عبّاد بن كثير الثقفي البصري من العبّاد الصالحين ، ومع ذلك فإن ابن المبارك كان إذا ذكره يقول : ما أدري من رأيت أفضل من عبّاد بن كثير في ضروب من الخير ! فإذا جاء الحديث فليس منه في شيء (٢٦١) . وسبب ذلك أنه كان إذا حدث جاء

(٢٦١) ميزان الاعتدال (٢ : ١٢ - ١٤) .

بما ينكر عليه من الحديث ، كما يبدو ذلك من قول ابن المبارك : قلت لسفيان الثوري : إن عبّاد بن كثير من تعرف حاله ، وإذا حدث جاء بأمر عظيم ، فترى أن أقول للناس لا تأخذوا عنه؟ قال سفيان : بلى . قال عبد الله : فكنت إذا كنت في مجلس ذكر فيه عبّاد أثنت عليه في دينه وأقول : لا تأخذوا عنه (٢٦٢) .

فابن المبارك لم يمنعه صلاح عبّاد بن كثير وتقواه من أن ينهى الناس عن أخذ الحديث عنه ، وذلك لأن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه التحليل والتحرّيم ، والترغيب والترهيب ، فإذا كان الراوي ليس أهلاً للرواية ، ثم أقدم على الرواية عنه من قد عرفه ، ولم يبين ما فيه لغيره ممن جهل معرفته ؛ كان آثماً بفعله ذلك ، غاشياً لعوام المسلمين ، إذ لا يؤمن على بعض من سمع تلك الأخبار أن يستعملها أو يستعمل بعضها (٢٦٣) . وهذا هو الذي دعا ابن المبارك وغيره إلى كشف معاييب رواة الأحاديث وناقلي الأخبار ، مع التزام جانب الإنصاف سواء في الجرح أو التعديل ، فهو لم ينس أن يثني على عبّاد في دينه وتقواه في الوقت الذي ينهى الناس عن الأخذ عنه .

وأمثلة دقة ابن المبارك في ذلك كثيرة ، فهو عندما يذكر

• (٢٦٢) صحيح مسلم (١ : ١٣) .

• (٢٦٣) انظر صحيح مسلم (١ : ٢٢) .

بقية بن الوليد يقول: «بقية صدوق اللسان، ولكنه يأخذ عن أقبل وأدبر» (٢٦٤) «يعني عن الثقات والضعفاء ، ويقول : « نعم الرجل بقية ؛ لولا أنه كان يكنى الأسمي ، ويسمى الكنى ، كان دهرأ يحدثنا عن أبي سعيد الوحاظي ، فنظرنا فإذا هو عبد القدوس » مع العلم أن ابن المبارك ما كان يفصح بقوله كذاب إلا لعبد القدوس ، فقد كان يقول له ذلك (٢٦٥) .

ومن ذلك قول ابن المبارك للحسن بن عيسى : إذا قدمت على جرير فاكتب علمه كله إلا حديث ثلاثة : لا تكتب حديث عبدة بن معتب ، والشري بن إسماعيل ، ومحمد بن سالم (٢٦٦) .

وذلك أن الرجل مهما كان صالحاً تقياً ، ومهما كانت منزلته في العلم ، يجب أن لا يتابع في زلته إذا زل ، ولا في كبوته إذا كبا أو نبوته إذا نبا ، وفي هذا المعنى يقول ابن المبارك رضي الله عنه : « رب رجل حسن ، وآثاره سالحة ، كانت له هفوة وزلة ، فلا يقتدى به فيهما (٢٦٧) » .

• (٢٦٤) صحيح مسلم (١ : ١٤) .

• (٢٦٥) المرجع السابق (١ : ٢٠) .

• (٢٦٦) المرجع السابق (١ : ٢١) .

• (٢٦٧) فيض القدير (١ : ١٨٧) .

الرابعة - دقته في النقل :

بالإضافة إلى كل ما سبق فقد كان من أمانة ابن المبارك المتناهية في ذكر السند وطريقة السماع ما قاله نعيم بن حماد، قال :
ما رأيت ابن المبارك يقول قط : « حدثنا » كأنه يرى « أخبرنا » أوسع (٢٦٨) . والفرق بين حدثنا وأخبرنا أن الأولي تستعمل في رواية ما سمعه الراوي من شيخه ، والثانية تستعمل في رواية ما قرىء على الشيخ ، والشيخ يسمع ، والطالب يقرأ أو يسمع . وهذه التفرقة للإمام مسلم وغيره ، وسوى الإمام البخاري بين اللفظين .

الخامسة - جمعه بين الحديث وخير الرأي :

كانت هناك حملات عنيفة بين أهل الرأي وأهل الحديث ، ويبدو أن ابن المبارك كان جامعاً بين الحديث وخير الرأي ، ولعل الذي جعله يتجه هذا الاتجاه الوسط بين الرأي والحديث ، هو أن أساتذته لم يكونوا من أهل الرأي وحدهم ، ولا من أهل الحديث وحدهم ، فأستاذه أبو حنيفة كان زعيماً لأهل الرأي ، بينما كان أستاذه سفيان الثوري من زعماء أهل الحديث .

ولقد كان ابن المبارك يعتمد على الأثر ، فهو - كما يقول

(٢٦٨) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) .

علي بن الحسين بن شقيق - « لا يفتي إلا بقوة وأثر » (٢٦٩) .
 وكان ينصح الناس بالاعتماد عليه أيضاً . فقد قال ابن المبارك
 لرجل : إن ابتليتَ بالقضاء فعليك بالأثر (٢٧٠) ، وكان يذمُّ
 الذين يقولون في العلم برأيهم من غير استناد إلى أصل شرعي
 من كتاب أو سنة ، وقد روي عنه أنه خرَّج حديثاً : « إن من
 أشرط الساعة ثلاثاً ، وإحداهن : أن يُلتمس العلم عند الأصغر »
 فقيل له : من الأصغر ؟ قال : الذين يقولون برأيهم . فأما صغير
 يروي عن كبير فليس بصغير (٢٧١) . ولكنه مع أخذه بالأثر ،
 واعتماده الشديد عليه ، كان في الوقت نفسه يناصر أبا حنيفة
 ويأخذ عنه ، وقد اعتبر المتحاملون على أبي حنيفة أن الزلَّة
 الوحيدة لابن المبارك هي روايته عن أبي حنيفة (٢٧٢) . ولعل
 أوضح ما يبيِّن موقفه بين الحديث والرأي قوله : « ليكن الذي
 يعتمد عليه الأثر ، وخذ من الرأي ما يفسر لك الحديث » (٢٧٣) .

(٢٦٩) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٢ .

(٢٧٠) حلية الأولياء (٨ : ١٦٦) .

(٢٧١) الاعتصام للشاطبي (١ : ١٠١) .

(٢٧٢) انظر ذلك في كتاب الورع للإمام أحمد بن حنبل

ص ٧٦ .

(٢٧٣) الخيرات الحسان ص ٦٠ ، وورد مثلها في حلية

الأولياء (٨ : ١٦٥) .

عقيدة ابن المبارك

ليس فيما رجعنا إليه من المصادر التاريخية وكتب التراجم ما يدلنا على اتجاهات ابن المبارك وآرائه في المسائل التي كانت تشغل بال الكثيرين من علماء ذلك العصر ، سواء منها المسائل السياسية والكلامية ، ولذلك وجب علينا البحث عن ذلك في نثر الأخبار ومتفرق الآثار ؛ لأخذ فكرة - ولو موجزة - عن بعض اتجاهاته . ولدى البحث عثرنا له على بعض الأقوال يمكننا أن نستنتج منها بعض اتجاهاته وآرائه ، وقبل أن نبدأ في سرد بعض اتجاهاته نبين أنه كان يحمل العقيدة التي عليها معظم المسلمين من أهل السنة والجماعة .

فضل الصحبة :

حب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دين ، ولذلك كان ابن المبارك رحمه الله يقول : خصلتان من كاتنا فيه نجا : الصدق ، وحب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (٢٧٤) .

وقد سئل : أيهما أفضل معاوية بن أبي سفيان أو عمر بن عبد العزيز ؟ فقال : والله إن الغبار الذي دخل في أنف معاوية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عمر بألف مرة ، صلى

(٢٧٤) الشفا للقاضي عياض (٢ : ٤٢) .

معاوية خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : سمع الله لمن حمده ، فقال معاوية : ربنا ولك الحمد ، فما بعد هذا (٢٧٥) ؟

(٢٧٥) وفيات الأعيان (٢ : ٢٣٨) . قلت : انظر قول هذا الإمام الكبير في سيدنا معاوية رضي الله عنه ، وما يفوه الناس والكتاب المعاصرون في حقه !! ولا شك أن الإمام ابن المبارك يفاضل بين الرجلين كل هذه المفاضلة لسبب الصحبة الكريمة للنبي صلى الله عليه وسلم التي حازها معاوية وتأخر عنها عمر بن عبد العزيز ، ولا ينكر أن في خواص التابعين من هو أوسع علماً وأكثر تعبداً من بعض الصحابة ، ومع ذلك فإن رتبة الصحابة أعلى من رتبة التابعين إجمالاً وتفصيلاً . فقد روى الإمام أحمد في المسند (١ : ١٨٧) وأبو داود (٤ : ٣٤٤ بشرحه عون المعبود) بسند صحيح عن سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة أنه قال - بعدما روى حديث : « أبو بكر في الجنة ، عمر في الجنة . . إلى تمام العشرة » - : « والله لمشهد شهده رجل يفخر فيه وجهه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عمل أحدكم ولو عمّر عمر نوح عليه السلام » . فهذا دليل واضح على صحة قول ابن المبارك ، حتى كأنه رحمه الله اقتبس قوله من قول هذا الصحابي الجليل .

فسعيد بن زيد صحابي جليل يخاطب التابعين - وعمر بن عبد العزيز منهم - ويخص بالذكر الإغبرار في الجهاد في سبيل الله ، - وهو ما ذكره ابن المبارك تماماً - ثم يذكر أن هذا الموقف الواحد أفضل من العمل الصالح طوال ذلك العمر الطويل المديد .

كل ١
أحلى ١
المال عاقل القسم لا
لا بعد لو

وهذا يشير إلى عظم فضل الصحبة وشرفها ورفع شأنها .

أحس من السائل غصاً من مقام معاوية ، ورغبة في الطعن فيه ، حيث قرن بينه وبين عمر بن عبد العزيز المتفق على فضله حتى من أهل الدولة العباسية ، فأجابه ابن المبارك بما ترى من مبالغة في تصوير التفاوت بين الرجلين رضي الله عنهما ردعاً للسائل ، ونهياً له عن النيل من الصحابة رضي الله عنهم جميعاً .

ويشبه كلمة ابن المبارك هذه ما قاله المعافى بن عمران لمن قال له : أين عمر بن عبد العزيز من معاوية - يعني أيهما أفضل - ؟ فغضب المعافى وقال : لا يقاس بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد ، معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وأمينه على وحي الله (١) .

وينبغي أن لا ننسى أن الصورة الحقيقية لهذا الصحابي تخالف تمام المخالفة الصورة الكاذبة التي رسمتها أخبار بعض المؤرخين وجهلة الرواة وضلال بعض الفرق والمبتدعين ، ويكفي أن نعلم من فضائل هذا الصحابي الجليل : ما ذكره المعافى بن عمران ، فلو لم يستأمنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما استكتبه الوحي ، وكفى بهذا مرتبة وشرفاً ، وفي الترمذي بسند حسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية : « اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به » (٢) ، وفي البخاري أن ابن عباس قال فيه : « إنه فقيه » . وهذا الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يذكر الناس أمامه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : رحمهم الله أجمعين ،

(١) الشفا للقاضي عياض (٢ : ٤٣) .

(٢) سنن الترمذي (٩ : ٣٧٠) .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيراً إلى رفعة شأن

ومعاوية ، وعمرو بن العاص ، وأبو موسى الأشعري ، والمغيرة ، كلهم وصفهم الله تعالى في كتابه فقال : « سيماهم في وجوههم من أثر السجود » . وقيل له مرة : يا أبا عبد الله ، ما تقول فيما كان بين علي ومعاوية ؟ فقال : ما أقول فيهم إلا الحسنى . . . ويسأله رجل عما جرى بين علي ومعاوية ، فيعرض عنه ، فيقال له : يا أبا عبد الله هو رجل من بني هاشم ، فيقبل عليه ويقول له : اقرا « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » . وكان رحمه الله يقول : إذا رأيت رجلاً يذكر أحداً من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوء فاتهمه على الاسلام (١) .

فواجب المسلم أن يحفظ لسانه من الخوض في طعن سلف الأمة لاسيما الذين تشرّفوا بصحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجهادهم معه . وقد قال الإمام الشاطبي في « الموافقات » (٢) إذا قبلنا تعديل بعضنا بتزكية واحد منا ، فكيف لا نقبل فيهم تزكية رب العالمين ، ورسوله الصادق الأمين ، ولذلك فإن أهل السنة عدّوا الصحابة على الإطلاق والعموم ، وأخذوا عنهم رواية ودراية من غير استثناء ولا محاشاة . والآيات في مدحهم كثيرة ، والأحاديث أكثر ، وقد اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم اختياراً واصطفاهم اصطفاً ، فقد روى الإمام أحمد

(١) انظر ذلك في « مناقب الإمام أحمد بن حنبل » لابن الجوزي ص ١٦٠ .

(٢) الموافقات (٤ : ٧٥) .

الصحابة : « والذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهباً

بإسناد حسن (١) عن ابن مسعود قال : إن الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه ، يقاتلون على دينه ، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوه سيئاً فهو سيء .

وقد أطلت التعليق هنا لأنبه على ضرورة الأدب مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوقيرهم ، ومعرفة حقهم ، وحسن الثناء عليهم ، والإمساك عما شجر بينهم من فتن ، وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه أراد قطع لسان أحد أولاده لأنه شتم واحداً من الصحابة ، ثم كلمه الناس في ذلك فقال : دعوني أقطع لسانه حتى لا يشتم أحدٌ بعد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم تكون سنة يعمل بها من بعدي ، لا يوجد رجل شتم رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قطع لسانه (٢) .

وما أعظم تلك الكلمة الرائعة التي قالها الخليفة العادل عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه لما سئل عن أهل صفين فقال : تلك دماء طهر الله منها يدي ، فلا أحب أن أخضب لساني بها (٣) .

(١) المسند (١ : ٣٧٩) وقال الشيخ أحمد شاکر في تعليقه

على المسند (٥ : ٢١١) : إسناده صحيح .

(٢) انظر « الشفا » (٢ : ٢٦٨) وحياة الصحابة (٢ : ٣٩٩) .

(٢ : ٣٩٩) .

(٣) مناقب الشافعي للبيهقي (١ : ٤٤٩) .

ما بلغ مدء أحدهم ولا نصيفه» (٢٧٦) والحديث في الصحيحين .

محاربة البدع :

كان رضي الله عنه يرى ظهور المبتدعة مصيبة حلت بالأمة، وآفة تعين على ثلَم الدين ، وهدم الاسلام ، فمن كلامه مارثوي عنه أنه قال : اعلم أي أخي ، أن الموت كرامة لكل مسلم لقي الله

فلتكن هذه الكلمة اسوة لنا في الكف عما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم ، لا سيما ورسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نذكر محاسن موتانا وأن نكف عن مساوئهم ، وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الأموات فإنهم قد افضوا إلى ما قدموا » . فكيف إذا كان الميت من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فأقل درجات الأدب معه أن نكف السنننا عنه وأن نخلّي بينه وبين ربه ، وقد كان هذا ما أوصى به معاوية رضي الله عنه عند موته ، فقد ذكر السيوطي في (تاريخ الخلفاء) أنه كان عند معاوية شيء من شعَر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلامه أظفاره فأوصى أن تجعل في فمه وعينيه، وقال: افعلوا ذلك وخلّوا بيني وبين أرحم الراحمين .
رحمهم الله جميعاً ورضي عنهم فهم أهل لكل ثناء وهم نقلة الاسلام إلى من بعدهم .

(٢٧٦) النصيف : بفتح النون وكسر الصاد هو النصف .
كما في النهاية .

على السنة ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، فإلى الله نشكو وحشتنا ،
وزهاب الإخوان ، وقلة الأعوان ، وظهور البدع (٢٧٧) .

ولذلك كان رضي الله عنه يحارب البدعة والمبتدعين حرباً
شديدة لا هوادة فيها ، ويوصي الناس بالابتعاد عن أهل البدع ،
وكان يقول : يكون مجلسك مع المساكين وإياك أن تجلس مع
صاحب بدعة (٢٧٨) . وبلغ ابن المبارك أن الحارث أكل عند
صاحب بدعة أكلة ، فقال له ابن المبارك : لا كلمتك ثلاثين
يوماً (٢٧٩) . ولكنه مع ذلك كان لا يمتنع من الرواية عن المبتدع
إذا لم يكن داعياً إلى بدعته ، وهذا من إنصافه وعلمه وتسامحه ،
فقد قيل له : لم رويت عن سعيد وهشام الدستوائي وتركت
حديث عمرو بن عبيد ورأيهم واحد ؟ قال : كان عمرو يدعو إلى
رأيه وكانا ساكتين (٢٨٠) .

وسنرى مواقفه ورأيه في أهل البدع .

(٢٧٧) الاعتصام للشاطبي (١ : ٨٦) .

(٢٧٨) حلية الأولياء (٨ : ١٦٨) .

(٢٧٩) المرجع السابق . والحارث هذا : هو الحارث
المحاسبي المشهور .

(٢٨٠) تاريخ الاسلام للذهبي (٦ : ١٠٩) في ترجمة
عمرو بن عبيد .

موقفه من المعتزلة والجهمية :

كان عمرو بن عبيد المتكلم الزاهد المشهور شيخ المعتزلة في وقته ، وقد كان يجالس الحسن واشتهر بصحبته ، حتى أزاله واصل بن عطاء عن مذهب أهل السنة وقال بالقدر ودعا إليه واعتزل أصحاب الحديث ، ولذلك كان ابن المبارك ينهى الناس عن الأخذ عنه وكان يقول :

أيها الطالب علماً
فخذ العلمَ بحلمٍ
وذِرْ البدعةَ من
إيتِ حمَّادَ بنَ زيدٍ
ثم قيِّدْهُ بقيدٍ
آثار عمرو بن عبيد^(٢٨١)

وقال نعيم بن حماد : قلت لابن المبارك : لأي شيء تركوا عمرو بن عبيد ؟ قال : إن عمراً كان يدعو إلى القدر^(٢٨٢) .

ومعنى هذا أن ابن المبارك رحمه الله كان يسقط حديث المبتدع إن كان يدعو إلى بدعته ، وعمرو بن عبيد هذا كان يدعو إلى بدعته ، ويجادل عليها ، وربما أداه ذلك إلى الطعن في مخالفه من أهل السنة . قال السهيلي^(٢٨٣) : « وأما عمرو بن عبيد فقد كان عظيماً في زمانه ، عالي الرتبة في الورع ، حتى افتتن به وبمقالته أمة » ، فصاروا قدرية ، وقد تميز بمذهبه قوم من أهل

(٢٨١) البداية والنهاية (١٠ : ٧٩) .

(٢٨٢) مقدمة الجرح والتعديل ص ٣٧٣ .

(٢٨٣) الروض الأنف (٣ : ٢٥٥) .

الحديث فلم يسقط حديثهم لأنهم لم يجادلوا على مذهبهم ولا طعنوا في مخالفهم من أهل السنة ، كما فعل عمرو بن عبيد» .

وقد كان ابن المبارك يرى أن الجهمية والقدرية كفار كما يراهم أستاذه ، فعن ابن المبارك أنه قال : سمعت سفيان الثوري يقول : الجهمية كفار والقدرية كفار . فسأل عمار بن عبد الجبار ابن المبارك : فما رأيك ؟ فقال : رأي رأي سفيان (٢٨٤) . وذكر جهنم "عنده فقال :

عجبت لشیطان أتى الناس داعياً

إلى الشرِّ وانشق اسمه من جهنم (٢٨٥)

موقفه من المرجئة :

قيل له : إن شيان يزعم أنك مرجئ ، فقال : كذب شيان ، أنا أخالف المرجئة في ثلاثة أشياء : فإنهم يزعمون أن الإيمان قول بلا عمل وأنا أقول هو قول وعمل . ويزعمون أن تارك الصلاة لا يكفر وأنا أقول إنه يكفر . ويزعمون أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وأنا أقول إنه يزيد وينقص (٢٨٦) .

موقفه من خلق القرآن :

قاسى أهل الحديث ألواناً من التعذيب من أجل هذه

(٢٨٤) حلية الاولياء (٧ : ٢٨) .

(٢٨٥) سير اعلام النبلاء (٦ : ٢٥٥) .

(٢٨٦) الطبقات الكبرى للشعراني (١ : ٦٠) .

المشكلة ، ورأي ابن المبارك في ذلك هو رأي الحديثين ، فعن أحمد ابن عبد الله بن يونس قال : سمعت ابن المبارك قرأ شيئاً من القرآن ثم قال : من زعم أنه مخلوق فقد كفر بالله العظيم (٢٨٧) .

موقفه ممن يسب السلف :

كان يرى أن من يسب السلف يجب أن يترك حديثه ، وكان يدعو الناس إلى تركه ، فعن علي بن شقيق قال : سمعت عبد الله بن المبارك يقول على رؤوس الناس : دعوا حديث عمرو ابن ثابت فإنه كان يسب السلف (٢٨٨) . وعن عبيد الله بن موسى قال : كنا عند أبي حمزة الشمالي فحضره ابن المبارك ، فذكر أبو حمزة حديثاً في ذكر عثمان رضي الله عنه فقال من عثمان ، فقام ابن المبارك ومزق ما كتب ومضى (٢٨٩) .

ومن شعر ابن المبارك في موضوع سب السلف قوله :

إني امرؤ ليس في ديني لغامزة لين "ولست على الاسلام طعانا
فلا أسب أباً بكر ولا عمراً ولن أسب معاذ الله عثمانا
ولا ابن عم رسول الله أشتمه حتى ألبس تحت التراب أكفانا
ولا الزبير حوارى الرسول ولا أهدي لطلحة شتماً عز أو هانا

(٢٨٧) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٧) .

(٢٨٨) صحيح مسلم (١ : ١٢) .

(٢٨٩) ميزان الاعتدال (١ : ٣٦٣) .

ولا أقول علي في السحاب إذا
 ولا أقول بقول الجهم إن له
 ولا أقول تخلى عن خليقته
 ما قال فرعون هذا في تجبره
 قد قلت - والله - ظلماً ثم عدواناً
 قولاً يضارع أهل الشرك أحياناً
 رب العباد وولي الأمر شيطاناً
 فرعون موسى ولا هامان طغياناً (٢٩٠)

رأيه في أحاديث الصفات وفي النزول المذكور في الأحاديث :

طوّل علماء الإسلام الكلام في تأويل ذلك ، وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذه الأحاديث المتعلقة بالصفات ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا قالوا : قد تثبت الروايات في هذا ويؤمن بها ولا يتوهم ولا يقال كيف ؟

وأنكرت الجهمية هذه الروايات وقالوا : هذا تشبيه ،

(٢٩٠) طبقات الشافعية الكبرى (١ : ١٥١) ، وهي قصيدة طويلة منها : الله يدفع بالسلطان معضلة . . التي ستأتي فيما بعد .
 واطن أن ابن المبارك أراد بهذه القصيدة معارضة عمران بن حطان الخارجي في أبياته التي قالها في مدح ابن ملجم قاتل علي كرم الله وجهه وهي هذه :

يا ضربة من كمي ما أرادها	إلا ليبلغ عند الله رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه	أوفى البرية عند الله ميزانا
له در المرادي الذي سفكت	كفاه مهجة شر الخلق إنسانا

فأخزى الله قائل هذه الأبيات وقبحه ما أجراه على الله !!

وتأولوا الآيات التي ذكر الله عز وجل فيها اليد والسمع والبصر...
ففسروها على غير ما فسرهما أهل العلم .

ورأي ابن المبارك في ذلك هو رأي أهل العلم من أهل السنة
والجماعة حيث قالوا في هذه الأحاديث : أمرها بلا كيف (٢٩١) .
وهذه هي الطريقة المستقيمة التي كان عليها السلف : كالزهري
ومكحول والسفيانين والليث وحماد بن سلمة وحماد بن زيد
والأوزاعي ، والأئمة الأربعة : مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد
وغيرهم ، فإنهم أجروها كما جاءت بلا كيفية ولا تعرض
لتأويل (٢٩٢) .

كَيْفُهُ

ابن المبارك من السابقين إلى تدوين الحديث :

ولقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم من الصحابة
والتابعين لا يكتبون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم
ولكنهم يؤدونه لفظاً ، ويأخذونه حفظاً ، إلا كتاب الصدقة
وشيئاً يسيراً يقف عليه الباحث بعد الاستقصاء ، حتى خيف عليه
الدروس ، وأسرع في العلماء الموت ، فكتب عمر بن عبد العزيز

(٢٩١) انظر سنن الترمذي (٣:٢٤) والتي بعدها، و(٧:٢٣٦).

(٢٩٢) نيل الاوطار (٣:٦٣) .

رضي الله عنه إلى عامله على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري التابعي : « اظفر ما كان عندك - أي في بلدك - من سنة أو حديث فاكتبه ، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، ولا تقبل إلا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وليفشوا العلم ، وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً » . وكان عمر قد كتب بمثل ذلك أيضاً إلى أهل الآفاق ، وأمرهم بالنظر في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمعه (٢٩٣) ، ومنذ ذلك الوقت بدأ العلماء في التصنيف لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد كان للإمام عبد الله بن المبارك شرف السبق إلى تدوين حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن سبق من الأئمة . قال في تدريب الراوي (٢٩٤) :

« أول من جمع ذلك - يعني الآثار - ابن جريج بمكة ، وابن إسحاق أو مالك بالمدينة ، والربيع بن صبيح أو سعيد بن أبي عروبة أو حماد بن سلمة بالبصرة ، وسفيان الثوري بالكوفة ، والأوزاعي بالشام ، وهشيم بواسط ، ومعر باليمن ، وجرير بن عبد الحميد بالري ، وابن المبارك بخراسان » . قال العراقي وابن حجر : وكان هؤلاء في عصر واحد فلا ندري أيهم سبق .

• (٢٩٣) الرسالة المستطرفة ص ٤ .

• (٢٩٤) التدريب ١ : ٨٩ .

ثم تلا المذكورين كثير من أهل عصرهم يدونون الآثار
ويجمعونها في تصانيف يجمعون الصحيح مع غيره دون تمييز ،
وأول من صنّف في الصحيح المجرد - على ما قاله غير واحد - الإمام
أبو عبد الله البخاري ، وكانت الكتب قبله ممزوجة فيها الصحيح
وغيره (٢٩٥) . وبذلك يكون ابن المبارك من الذين حازوا فضيلة
السبق إلى جمع الآثار ، وتدوين أحاديث النبي صلى الله عليه
وسلم ، كما سبق له أن صنّف في أبواب من العلم كالأربعينات
والجهاد ، كما سيأتي بعد قليل .

كُتِبَهُ

يظهر أن ابن المبارك كان من المكثرين للتصنيف ؛ فمع أن
العهد كان - كما رأيت - عهد الابتداء في التدوين ، فقد ورد
ما يشعر أن لهذا الإمام تصانيف كثيرة في أنواع العلوم وألوان
المعرفة . فقد جاء في طبقات ابن سعد : روى رواية كثيرة ، وصنف
كتباً كثيرة في أبواب العلم و صنوفه ، حملها عنه قوم وكتبها
الناس عنهم (٢٩٦) .

وجاء في العبر : وصنف التصانيف الكثيرة (٢٩٧) .

وقال الذهبي : دوّن العلوم في الأبواب والفقّه (٢٩٨) .

(٢٩٥) الرسالة المستطرفة ص ٥ .

(٢٩٦) طبقات ابن سعد (٧ : ٣٧٢) .

(٢٩٧) العبر ص ٢٨٠ وكذلك شذرات الذهب (١ : ٢٩٥) .

(٢٩٨) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

وقد كانت تصانيفه محل استحسان عند الناس ، يتدارسونها
وينتفعون بها ، وقد وصفها ابن كثير بالتصانيف الحسان (٢٩٩) .

وقال ابن ناصر الدين في ابن المبارك : أحد أئمة الأنام ذو
التصانيف النافعة (٣٠٠) .

وقد كانت كتبه التي صنّفها في مختلف فنون العلم تشهد
بثقافته الواسعة ومعارفه المتشعبة ، حيث ألم بثقافة عصره أحسن
إمام ، فقد دوّن العلم في الأبواب والفقّه ، وفي الغزو ، والزهد ،
والرقائق ، وغير ذلك (٣٠١) من صنوف العلم والمعرفة .

وقد سبق قول يحيى بن آدم في نفع كتبه وشمولها لدقيق
المسائل حيث يقول : كنت إذا طلبت الدقيق من المسائل فلم أجده
في كتب ابن المبارك أيسر منه (٣٠٢) .

ولذلك كان العلماء يعتمدون عليها ، ويجيدون حفظها ، وقد
ذكر في ترجمة الإمام البخاري أنه حفظ كتب ابن المبارك قبل
خروجه لطلب الحديث ، وهو ابن ست عشرة سنة (٣٠٣) .

• (٢٩٩) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٧) .

• (٣٠٠) شذرات الذهب (١ : ٢٩٦) .

• (٣٠١) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

• (٣٠٢) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٦) .

• (٣٠٣) تاريخ بغداد (٢ : ٧) .

ومن المؤسف أن كتب ابن المبارك قد فقد أكثرها مع ما فقد من ثروة علمية وفكرية ثمينة ، ولم يحفظ لنا التاريخ إلا أسماء بعضها ، وقد رأيت أجزاء من بعض كتبه أفلتت من يد الضياع ، عثرتُ عليها مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق ، وفيما يلي أسماء كتبه التي عثرنا على ذكرها في كتب التراجم والمعاجم المتفرقة ، مرتبة حسب الأحرف الهجائية :

١ - كتاب الأربعين حديثاً (٣٠٤) .

ابن المبارك أول من عمل على جمع أربعين حديثاً ، وذلك تطبيقاً للحديث القائل : « من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله تعالى يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء » ثم تبعه العلماء يجمعون ذلك .

وممن صنّف في الأربعينات بعد ابن المبارك : محمد بن أسلم الطوسي العالم الرباني ، ثم الحسن بن سفيان النسائي ، وأبو بكر الآجري ، وأبو بكر محمد بن إبراهيم الأصفهاني ، والدارقطني ، والحاكم ، وأبو نعيم ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو سعيد الماليني ، وأبو عثمان الصابوني ، وعبد الله بن محمد الأنصاري ، وأبو بكر البيهقي ، وخلائق لا يحصون من المتقدمين والمتأخرين (٣٠٥) .

(٣٠٤) الرسالة المستطرفة ص ٨٦ .

(٣٠٥) انظر مقدمة الأربعين النووية .

والمشهور من الأربعينات كتاب الأربعين النووية للإمام
محيي الدين النووي رحمه الله تعالى .

٢ - كتاب الاستئذان (٣٠٦) .

٣ - كتاب البر والصلة .

حديثه رواية الحسن بن سفيان ، عن جبان بن موسى ،
عن عبد الله بن المبارك ، ويوجد منه في المكتبة الظاهرية برقم
(حديث ٣٢٨ ق ١٠٠ - ١٢٣ مخطوط) الجزء الثاني فقط ، وهو
نسخة عتيقة عليها سماع بتاريخ سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة .

وأول حديث في هذا الجزء : ابن المبارك ، عن معمر ، عن
الزهري ، عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه ، عن النبي صلى الله
عليه وسلم : « لا حسد إلا على اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فهو
ينفق منه آتاء الليل وآتاء النهار ، ورجل آتاه هذا القرآن فهو
يقوم به آتاء الليل وآتاء النهار » .

٤ - كتاب التاريخ (٣٠٧) .

٥ - كتاب تفسير القرآن (٣٠٨) .

٦ - كتاب الجهاد .

ذكره صاحب كشف الظنون ، وصاحب الرسالة المستطرفة ،
ويجب الإشارة هنا إلى أن ابن المبارك رحمه الله هو أول من

٣٠٦) ذكر في الرسالة المستطرفة ص ٤٢ .

٣٠٧) ذكر في هدية العارفين للبغدادي (١ : ٤٣٨) .

٣٠٨) المرجع السابق .

صنف في الجهاد ، وقد جمع في كتابه هذا مائتين واثنين وستين من الأحاديث المرفوعة ، وأقوال الصحابة والتابعين ، وقصص جهادهم رضي الله عنهم ، مما يرغب في الجهاد والشهادة في سبيل الله ويبين فضل المجاهدين والشهداء وما أعده الله لهم من عظيم الإكرام وعلو المقام .

وقد طبع هذا الكتاب في بيروت بتحقيق الأستاذ نزيه حماد سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

٧ - كتاب الدقائق في الرقائق (٣٠٩) .

٨ - كتاب رفاع الفتاوى (٣١٠) .

٩ - كتاب الزهد والرقائق .

ذكره ابن النديم والبغدادي وصاحب كشف الظنون .

وقد جمع فيه ابن المبارك ماورد من الأحاديث المرفوعة وأقوال الصحابة والتابعين مما يرغب في الآخرة ، ويزهد في الدنيا ، ويرقق القلوب ، وهو مرتب على الأبواب ، وقد طبع في الهند ، وصور حديثاً في بيروت ، وقد قام بتحقيقه العلامة المحقق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي - حفظه الله - أحد علماء الهند .

(٣٠٩) ذكر في هدية العارفين (١ : ٤٣٨) .

(٣١٠) المرجع السابق .

١٠ - كتاب السنن في الفقه (٣١١) .

١١ - كتاب المسند .

يوجد منه في المكتبة الظاهرية جزءان مخطوطان (الجزء الثاني والجزء الثالث وهو آخرها) نسخة جيدة بخط الحافظ أبي محمد القاسم بن الحافظ محمد بن عساكر ، وسماعه بتاريخ سنة تسع وأربعين وخمسمائة .

وأول حديث فيهما : « إذا أحب أحدكم أن يعلم قدر نعمة الله عليه ، فلينظر إلى من هو تحته ، ولا ينظر إلى من هو فوقه » .

ورقمه في الظاهرية : مجموع ١٨ (١٠٧ - ١٢٤ مخطوط) .

هذا ما عرفناه عن كتب ابن المبارك رضي الله عنه ، ومن ذلك يبدو أي ثروة فقدها المسلمون بفقد كتبهم ، وما عددناه من كتب ابن المبارك لا يمنع من وجود كتب غيرها ضاعت معها أسماؤها أيضاً .

شعره

سبق قول أصحاب ابن المبارك أنه كان جامعاً للعلم ، وأنه جمع من جملة ما جمع من الثقافات : الأدب والنحو واللغة والشعر

(٣١١) ذكر في هدية العارفين .

والفصاحة •• وهذه الاستعدادات - مع ما عرفت من مواهب ابن المبارك وسعة ثقافته - إذا اجتمعت في إنسان - مع موهبة الشعر والقدرة على النظم - لخليقة أن تفتق أبكار الكلام المختتم ، وأن تجعل من صاحبها مالىء الدنيا وشاغل الناس كما جعلت من أبي الطيب وأبي تمام •

وقد كان والده منذ صغره يحضه على حفظ الشعر وروايته ، فعن زنيح عن أبي تميلة قال : كان أبي والمبارك والد عبد الله تاجرين ، وكانا قد جعلنا لنا أن من حفظ منا قصيدة فله درهم • قال أبو غسان : فخرجا شاعرين (٣١٢) •

وقد شبَّ ابن المبارك على الفصاحة وسلامة العربية حتى ليروى عنه أنه كان يقول : اللحن في الكلام أقبح من آثار الجدري في الوجه (٣١٣) •

وقد أجمعت المصادر على أن ابن المبارك كان شاعراً فصيحاً ، ذا شعر رائق ، وقظم عذب ، حتى قال فيه ابن جريج : ما رأيت أفصح منه (٣١٤) • ولكنها مع ذلك لم تنصفه في شعره كما أنصفته

(٣١٢) تهذيب التهذيب (١١ : ٢٩٤) في ترجمة أبي تميلة يحيى بن واضح المروزي ، وأبو غسان هو زنيح نفسه راوي الخبر .

(٣١٣) بهجة المجالس (١ : ٦٥) .

(٣١٤) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٦) .

في باقي نواحي عبقريته ، ولعل السبب في ذلك نظرة العلماء
الأقدمين من السلف إلى الشعر والشعراء ، وأن ذلك يحط من
مقام العالم ، ويزري بمكاته كما عبّر عن ذلك الإمام الشافعي
رضي الله عنه بقوله في بيته المشهور :

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الجوانب الأخرى من شخصية ابن
المبارك العلمية والعملية هي أولى بالاهتمام والعناية من شعره ،
عرفنا السبب الذي دعا كنب التراجم كلها إلى إهمال الناحية
الشعرية فيه ، والاكتفاء بالإشارة السريعة عن الحديث المستفيض .

وعلى كل حال فإن ما حفظ لنا التاريخ من شعر ابن المبارك
المنثور في بطون الكتب ، يعطينا فكرة واضحة عن شاعرية ابن
المبارك، وعن الأغراض التي كان يتغنّى بها ويدور حول محورها .
وأشعار ابن المبارك ربما لا نجد لها على درجة عالية من الإبداع
والبلاغة ، وعلى مستوى رفيع من الفصاحة ، بحيث تهتز لها
المشاعر ، ويجيش لها القلب ، وتتوتر لها الأعصاب ، حتى تطير
بنا على أجنحة الخيال ، وذلك لأن ابن المبارك لم يكن همه منها
طلب الشهرة وجلب أقطار الناس ، كما لم يكن قصده مدح
الأمراء والسلاطين طمعاً في عرض من الدنيا ، فما كان له - وهو
الإمام العظيم الذي أبى أن يتكسب بعلمه - أن يعود ليقف على
أبواب الخلفاء والرؤساء ، فهو شاعر شغله دينه عما يشتغل به

طلاب الدنيا ، وشغلته آخرته عن الالتفات إلى ما يطوف في خاطر الشعراء من أغراض ، فهو يرى نفسه أسمى من أن يقول الشعر في غير حث الناس على الجهاد في سبيل الله وطلب الشهادة ، وفي تحبيب الزهد والتقليل من شأن الدنيا، وتضمين الحكم والتجارب، وعن ذلك يقول فيه محمد بن سعد^(٣١٥) : وقال الشعر في الزهد والحث على الجهاد . ويقول فيه ابن كثير^(٣١٦) : وله الشعر الحسن المتضمن حكماً جمة .

وسترى مما سنعرض من أشعاره التي عثرنا عليها متفرقة في مطويّ الكتب أنها لا تخلو من حكمة عالية ، أو تجربة صادقة، أو غرض أخلاقي نبيل .

فمن شعره في الذين يبيعون دينهم بدنياهم ، ويجعلون من العلم وسيلة لأكل أموال الناس بالباطل :

قد يفتح المرء حانوتاً لمتجره وقد فتحت لك الحانوت بالدين
بين الأساطين حانوت بلاغلق تبتاع بالدين أموال السلاطين
صيرت دينك شاهيناً تصيد به وليس يفلح أصحاب الشواهين^(٣١٧)

ومن شعره في ذلك أيضاً ، ولعله من القصيدة نفسها :

أرى رجالاً بدون الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا في العيش بالدون

• (٣١٥) الطبقات الكبرى (٧ : ٣٧٢) .

• (٣١٦) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٧) .

• (٣١٧) وفيات الأعيان (٢ : ٢٣٩) .

فاستغفر بالله عن دنيا الملوك كما

استغنى الملوك بدنياهم عن الدين (٣١٨)

وقد كان رضي الله عنه قليل الخلاف على أصحابه ، وكان ينصح بمصاحبة الصديق العَفَّ ، الكريم النفس ، الذي لا يشاكس حياً في العناد والمشاكسة ، ولذلك كان كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين :

وإذا صاحبت فاصحب صاحباً ذا حياءٍ وعفافٍ وكرم
قائلاً للشيء لا إن قلت لا وإذا قلت نعم قال نعم (٣١٩)

وله رضي الله عنه في الصديق ورفيق السفر :

إذا رافقت في الأسفار قوماً فكن لهم كذي الرحم الشفيق
يعيب النفس ذا بصرٍ وسلمٍ عمي القلب عن عيب الرفيق
ولا تأخذ بهفوة كل قومٍ ولكن قل: هلم إلى الطريق
متى تأخذ بهفوتهم تمل وتبقى في الزمان بلا صديق (٣٢٠)

ومن قوله في الجهاد في سبيل الله ، وأنه أفضل العبادات ، وأنه أليق بالمسلم من العكوف في زاوية المسجد وترك الثغور مفتوحة أمام العدو ، ما حدث به محمد بن إبراهيم بن أبي سكينه

(٣١٨) بهجة المجالس (٢ : ٣١٣) .

(٣١٩) شذرات الذهب (١ : ٢٩٧) .

(٣٢٠) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٣٠) .

قال : أملى عليّ ابن المبارك بطرسوس - ثغر من ثغور الروم - ورقة فيها هذه الأبيات ، وودعته ، وأنفذها معي إلى الفضيل بن عياض في سنة سبع وسبعين ومائة :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك بالعبادة تلبّ
من كان يخضب جيده^(٣٢١) بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ، ونحن عبرنا

رَهَجُ السَّنَابِكِ^(٣٢٢) وَالغَبَارِ الْأَطِيبِ
ولقد أتانا من مقال نينا قول صحيح صادق لا يكذب
لايستوي^(٣٢٣) غبار خيل الله في أنف امرئٍ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت لا يكتب^(٣٢٤)

(٣٢١) في تفسير ابن كثير آخر « آل عمران » : خده بدل جيده .

(٣٢٢) رهج : غبار . والسنايك : جمع سنيك بضم فسكون فضم ، وهو طرف مقدم الحافر . والمراد الغبار الذي يتصاعد بسبب سير الخيول .

(٣٢٣) هكذا وجدتها في أكثر من كتاب ، وقد دخل الوقص - وهو حذف الثاني المتحرك من متفاعلن - وهو صالح في الكامل . وفي ذيل الجواهر المضية : « لا جمع بين غبار خيل الله في . . . » وعلى ذلك يكون البيت خالياً من العلة، وهو بذلك يشير إلى الحديث الشريف الذي رواه النسائي : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً » .

(٣٢٤) في تفسير ابن كثير : لا يكذب بدل لا يكتب .

قال : فلقيت الفضيل بكتابه في الحرم ، فلما قرأه ذرفت
عيناه ، ثم قال : صدق أبو عبد الرحمن ونصح (٣٢٥) .

وقال رضي الله عنه في الذين يشهدون الزور : هم السفلة
وأشد :

قوم إذا غضبوا كانت رماحهم
بث الشهادة بين الناس بالزور
هم السلاطين إلا أن حكمهم
على السجلات والأملاك والدور (٣٢٦)

ودخل عليه أبو أسامة - حماد بن أسامة الكوفي - فرأى
في وجهه أثر ضر ، فلما خرج وجه إليه أربعة آلاف درهم ورزمة
ثياب ورقعة كتب إليه فيها :

وفتى خلا من ماله ومن المروءة خير خال
أعطاك قبل سؤاله وكفاك مكروه السؤال (٣٢٧)

وكان يقول في فضل الحاكم العادل :

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا منه بعروته الوثقى لمن دانا (٣٢٨)

(٣٢٥) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٢ : ١٠٣) .

(٣٢٦) فيض القدير (٢ : ٩٤) .

(٣٢٧) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٣١) .

(٣٢٨) بهجة المجالس (١ : ٣٣٢) .

الله يدفع بالسلطان معضلةً عن ديننا رحمة منه ورضوانا
لولا الأئمة لم تأمن لنا سُبُلٌ وكان أضعفنا نهياً لأقوانا (٣٢٩)

وكان يقول في رواية الحديث ومجالس المحدثين :

مالذتي إلا روايةً مُسَنَدٌ قد قيّدت بفصاحة الألفاظ
ومجالس فيها عليّ سَكِينَةٌ ومذاكرات معاشر الحفاظ
نالوا الفضيلة والكرامة والنشهى من ربهم برعاية الألفاظ
لاظوا برب العرش لما أيقنوا أن الجنان لعصبة لثوًاظ (٣٣٠)

ومن شعره يمدح أبا حنيفة رضي الله عنه :

لقد زان البلاد ومن عليها إمامُ المسلمين أبو حنيفة
بآثاره وفقهه في حديثه كآيات الزبور على الصحيفة
فما في المشرقين له نظيرٌ ولا بالمغربين ولا بكوفة
رأيت العائبين له سفاهاً خلاف الحق مع حجج ضعيفة (٣٣١)

ومن شعره في مدحه أيضاً :

رأيتُ أبا حنيفة كل يوم يزيد نبالة ويزيد خيرا
وينطق بالصواب ويصطفيه إذا ما قال أهل الجور جورا
يقايس من يقايسه بلب فمن ذا يجعلون له نظيرا

• (٣٢٩) حلية الأولياء (٨ : ١٦٤) .

• (٣٣٠) المحدث الفاصل للرامهرمزي ص ٥٤٧ والإلظاظ :

لزوم الشيء والمثابرة عليه .

• (٣٣١) الفهرست لابن النديم ص ٤١٨ .

كفانا فقد حماد وكانت مصيبتنا به أمراً كبيراً
فردّه شماتة الأعداء عنا وأبدى بعده علماً كثيراً
رأيتُ أبا حنيفة حين يُؤتى ويطلب علمه بحرّاً غزيراً
إذا ما المشكلات تدافعتها رجال العلم كان بها بصيراً (٣٣٢)

ويقول في مسعر بن كدام :

من كان ملتمساً جليساً صالحاً فليأت حلقة مسعر بن كدام
فيها السكينة والوقار وأهلها
أهل الوقار وعلية الأقبام (٣٣٣)

ومن شعره في التلief على ما مضى من الأزمان وصالح
الإخوان قوله :

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت في خلف يزيّن بعضهم

بعضاً ليأخذ معورٍ عن معور
ركبوا ثنيت الطريق فأصبحوا متنكبين عن الطريق الأكبر
ما أقرب الأشياء حين يسوقها قدر ، وأبعدها إذا لم تقدر
العلم زين للرجال مروءة والعلم أنفع من كنوز الجواهر

(٣٣٢) تاريخ بغداد (١٣ : ٣٥٠) .

(٣٣٣) تذكرة الحفاظ (١ : ١٨٩) ولم يجزم بنسبتها إليه ،
لكن جزم ابن حجر في « التهذيب » (١٠ : ١١٥) بنسبة الأبيات
إلى ابن المبارك .

أَخْيَّ إِنَّ مِنْ الرِّجَالِ بَهِيمَةً فِي صُورَةِ الرَّجُلِ السَّمِيعِ الْمُبْصِرِ
فَطَنَ لِكُلِّ مَصِيبَةٍ فِي مَالِهِ وَإِذَا يَصَابُ بِدِينِهِ لَمْ يَشْعُرْ (٣٣٤)

وفي حقيقة المحبة لله سبحانه ، وأن دعوى المحبة بدون
الاتباع والطاعة دعوى فارغة يكذبها واقع الإنسان وحاله ،
ينسب لابن المبارك :

تَعْصِي الْإِلَهِ وَأَنْتَ تَطْهَرُ حَبَّهُ هَذَا لِعَمْرِي فِي الْفِعَالِ بَدِيعٌ
لَوْ كَانَ حَبُّكَ صَادِقًا لِأَطْعَمْتَهُ إِنْ الْمَحَبُّ لِمَنْ يَحِبُّ مَطِيعٌ (٣٣٥)

ومن الشعر الحكيم ما أرسله إلى علي بن بشر المروزي ،
يقول علي : كتب إلي ابن المبارك هذه الأبيات :

كُلُّ الْعِدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتَتِهَا إِلَّا عِدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ
فَإِنَّ فِي الْقَلْبِ مِنْهَا عَقْدَةٌ مُعْقَدَةٌ وَلَيْسَ يَفْتَحُهَا رَاقٍ إِلَى الْأَبَدِ
إِلَّا الْإِلَهِ فَإِنْ يَرْحَمُ تَحُلُّ بِهِ وَإِنْ أَبَاهُ فَلَا تُرْجَوُهُ مِنْ أَحَدٍ (٣٣٦)

(٣٣٤) بهجة المجالس (١ : ٧٩٩) وقد نسبت بعض هذه
الآبيات إلى دعبل الخزامي في معجم الشعراء ٣٨٣ .

وورد بعضها منسوباً إلى الحسن بن عبد الله الأصبهاني في
معجم الأدباء ١٤٣/٨ وينسب بعضها لغير هؤلاء كذلك . فالله أعلم .

(٣٣٥) إحياء علوم الدين من كتاب المحبة والشوق والأنس
والرضا ، وقد نسبت إلى ابن المبارك .

(٣٣٦) العقد الفريد (٢ : ١٤٩) .

وله رحمه الله تعالى في هوى النفس :

ومن البلاء وللبلاء علامة أن لا يرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواته والحر يشبع تارةً ويجوع^(٣٣٧)

ومن شعره في الزهد والقناعة :

لله دَر القنوع من خلقٍ يضيق صدر الفتى بحاجته
كم من وضع به قد ارتفعا ومن تأسَى بدونه اتسعا^(٣٣٨)

ومن قوله رضي الله عنه :

الصمتُ أزين بالفتى والصدق أجمل بالفتى
وعلى الفتى بوقاره فمن الذي يخفى عليك إذا نظرت إلى قرينه[°]
من منطلق في غير حينه في القول عندي من يمينه[°]
سمة تلوح على جبينه[°] ربّ امرئٍ متيقنٍ فأزاله عن رأيه
غلب الشقاء على يقينه[°] فابتاع دنياه بدينه^{°(٣٣٩)}

ومن أرق الشعر بيت كان ينشده إذا ودع شخصاً من
إخوانه وهو :

وهوَّانٌ وجدي أن فرقة بيننا فراق حياة لا فراق ممات^(٣٤٠)

٠ (٣٣٧) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٠٠) .

٠ (٣٣٨) بهجة المجالس ٢/٣٠٤ .

٠ (٣٣٩) حلية الأولياء (٨ : ١٧٠) .

٠ (٣٤٠) طبقات الشعراني (١ : ٦٠) .

ومن الشعر اللطيف قوله في جارية له :

كهبَّتِ الرِّيحُ من الشرِّ ق فجاءتني بريحك °
كيف أنساك وروحي صنعت من جنس روحك (٣٤١)

ومن الشعر الذي ينسب له :

ألم يأنِ لي منك أن ترحماً وتعضِ العواذلَ والثوَّما
وترثي لصبِّ بكم مفرم أقام على هجركم مأتما
يبيت إذا جنته ليلته يراعي الكواكب والأنجما
وماذا على الظبي لو أنه أحلَّ من الوصل ما حرما (٣٤٢)

وكان رضي الله عنه يرى أن الذنوب تमित القلوب ، وتورث
الذل ، كما يرى أن مصيبة الدين وسبب بلائه وشقائه يكون
دائماً من أمراء السوء وعلماء السوء ، ولذلك كان كثيراً ما يتمثل
بهذه الأبيات من كلامه :

رأيت الذنوب تमित القلوبَ وقد يورث الذلَّ إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوبِ وخير لنفسك عصيانها (٣٤٣)

(٣٤١) الكنز المدفون والفلک المشحون « ص ٤٦ » للعلامة
الشيخ يونس السيوطي المالكي تلميذ الحافظ الذهبي ، وليس
للجلال السيوطي الإمام المشهور ، كما طبع منسوباً إليه .

(٣٤٢) تفسير القرطبي ١٧ : ٢٥١ .

(٣٤٣) بهجة المجالس (٢ : ٣٣٤) .

وهل بدّل الدين إلا الملوكة
لقد رتع القوم في جيفة
وأجبار سوء ورهبانها
يبين لذي العلم إلتانها (٣٤٤)

وبلغه رضي الله عنه أن إسماعيل بن عليّة - أحد أئمة
الحديث في عصره - قد ولي الصدقات ، فكتب إليه ابن المبارك :

يا جاعل العلم له بازيماً
احتلتَ للدنيا ولذاتها
يصادد أموال السلاطين
بحيلة تذهب بالدين
فصرت مجنوناً بها بعدما
أين رواياتك فيما مضى
عن ابن عون وابن سيرين
أين رواياتك في سردها
في ترك أبواب السلاطين
زل حمار الشيخ في الطين (٣٤٥)

وقال يذم الناسك الذي سكن بغداد معلماً إياه أن العبادة
عند الثغور ، حيث يجمع مع العبادة الجهاد ومع العلم العمل :

أيها الناسك الذي لبس الصو
الزمن الثغر والتعبّد فيه
فَ وأضحى يُعده في العباد
ليس بغداد مسكن الزهاد
إن بغداد للملوك محل
و"مناخ" للقارئ الصياد (٣٤٦)

(٣٤٤) طبقات الشعرا (١ : ٥٩) .

(٣٤٥) طبقات الشافعية الكبرى (١ : ١٤٩) .

(٣٤٦) تاريخ بغداد (١ : ٢١) . وفي بهجة المجالس (٢ : ٦٤)

أن ابن المبارك نظر ببغداد إلى رجل عليه ثياب صوف ، فقال : من
هذا ؟ فقليل له : هذا أبو العتاهية الشاعر . فكتب إليه هذه
الآيات .

ومن قوله في الفقراء الذين لا تعجب الناس مظاهرهم
وصورهم ، ولم ينتشر بين الناس صيتهم وشهرتهم ، وهم مع
ذلك ربما يكونون أفضل من ملء الأرض ممن له الجاه العريض
والمال الوفير ، لأن الله لا ينظر إلى الصور والأشكال ، ولكن
ينظر إلى القلوب وماحوت ، وفي هؤلاء يقول :

ألا ربّ ذي طمرين في منزل غدا
زرايشه مبثوثة ونمارقه (٣٤٧)

قد اطردت أنواره حول قصره
وأشرق والتفت عليه حدائقه (٣٤٨)

ومن كلامه رضي الله عنه في قوائم الليل الذين يبيتون لله
سجداً وقياماً ، أطار الخوف منه نومهم ، وسلبهم أمنهم ، فهم
يعبدون الله ليلاً ونهاراً ، ويدعونه رغماً ورهباً :

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع (٣٤٩)

وكان رضي الله عنه شديد الخوف من الله سبحانه وتعالى ،
وكان إذا خرج إلى مكة ينشد :

(٣٤٧) الزرابي : الطنافس والبسط . والنمارق : الوسائد .

(٣٤٨) تفسير ابن كثير (٣ : ٤٤٨) .

(٣٤٩) إحياء علوم الدين (١ : ١٦٥) وتنبيه المغترين ١١٣ .

بفض الحياة وخوف الله أخرجني
إني وزنت الذي يبقى ليعدله

وكان يقول :

أيضمن لي فتى ترك المعاصي
أطاع الله قوم فاستراحوا

ومن شعره رضي الله عنه :

فكيف قرّت لأهل العلم أعينهم
والنار ضاحية لا بدّ مودّها

وطارت الصحف في الأيدي منشّرة
إما نعيم وعيش لا انقضاء له

تهوي بساكنها طوراً وترفعه
لينفع العلم قبل الموتِ عالمه

ومن شعره الذي يدل على سعة كرمه :

ويع تسي بما ليست له ثمننا
ماليس يبقى فلا والله ما اتزنا (٣٥٠)

وأرهنه الكفالة بالخلاص
ولم يتجرعوا غصص المعاصي (٣٥١)

أو استلذوا لذيد النوم أو هجموا
وليس يدرون من ينجو ومن يقع

فيها السرائر والجبار مطلع
أو الجحيم فلا تبقي ولا تدع

إذا رجوا مخرجاً من غيرها منعوا
قد سال قوم بها الرجعى فما رجعوا (٣٥٢)

(٣٥٠) وفيات الأعيان (٢ : ٢٣٩) وشذرات الذهب

(١ : ١٩٦) .

(٣٥١) أدب الدنيا والدين : ٨٨ .

(٣٥٢) سير أعلام النبلاء - مصور مخطوط - (الجمع)

(٦ : ٢٥٥) . وسال : أي سال .

أحضر طعامك وابدله لمن أكلا واحلف على من أبى واشكر لمن فعلا
ولا تكن سابري العرض محتشماً من القليل فلست الدهر محتفلاً (٢٥٣)

وكان عند الفضيل بن عياض فقال له قائل : إن أهلك وعيالك
قد احتاجوا ، مجهودين محتاجين إلى هذا المال ، فاتق الله وخذ
من هؤلاء القوم . فزجره ابن المبارك وأنشأ يقول :

خذ من الجاروش والآرز^٢ والخبز الشعير^٣ (٢٥٤)
واجعلن^٤ ذاك حاللاً تنج^٥ من حر السعير
وانثأ^٦ ما سطعت - هداك الله - عن دار الأمير
لا تزررها واجتنبها إنها شرّ مزور
توهن الدين وتدنيك من الحبوب الكبير
قبل أن تسقط يا مغرور^٧ في حفرة بير
وارض^٨ يا ويحك من دنيك بالقوت اليسير
إنها دار بلاء^٩ وزوال^{١٠} و غرور
ما ترى قد صرعت^{١١} قبلك أصحاب القصور
كم يبطن الأرض من ثاوي^{١٢} شريف^{١٣} ووزير

(٢٥٣) بهجة المجالس (٢ : ٨٥) .

والسابري : ثوب رقيق جيد نادر ولهذا يرغب فيه الناس
مهما كان عرضه ضئيلاً . ومن هنا أخذ هذا التعبير . ومعناه :
لا يكن عرضك في الافضال ضيقاً كالثوب السابري .

(٢٥٤) الجاروش : الذي لم ينعم دقه من الحبوب .

وصغير الشأن عبدٍ خاملٍ الذكر حقير
لو تصفحت وجوه القوم في يوم نضير
لم تميزهم ولم تعرف غنياً من فقير
خمدوا فالقوم صرعى تحت أشقاق الصخور
واستووا عند خير بمساويهم خير
احذر الصرعة يا مسكين من دهر عثور
أين فرعون وهامان ونمرود النسور
أو ما تحذر من يوم عبوسٍ قمطير (٢٥٥)
اقمطره الشرُّ فيه بعذاب الزمهير
قال : فغشي على الفضيل ، فرد ذلك ولم يأخذه (٢٥٦) .

وله أيضاً :

يا عاتب الفقر ألا تزدجر°	عاب الغنى أكثر لو تعتبر°
من شرف الفقر ومن فضله	على الغنى لو صح منك النظر
أنك تعصي لسؤال الغنى	وليس تعصي الله كي تفتقر (٢٥٧)

(٢٥٥) قمطير : شديد . واقمطر : اشتد .

(٢٥٦) سير أعلام النبلاء (٦ : ٢٥٦) .

(٢٥٧) المرجع السابق (٦ : ٢٥٦) . قلت : ومعنى هذه
الآيات مأخوذ من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ يقول :
« من نبيل الفقر أنك لا تجد أحداً يعصي الله ليفتقر » وقد نسبت
هذه الآيات في أدب الدنيا والدين (١٩٩) لمحمود الوراق .

وأشدد ابن المبارك أخاً له كان يصحبه هذه الأبيات ، وكان كثيراً ما يتمثل بها :

اغتنم ركعتين زلقتني إلى الله إذا كنت فارغاً مستريحاً
وإذا ما هممت بالنطق بالبا طل فاجعل مكانه تسيحاً
فاغتنم السكوت أفضل من

خوض وإن كنت بالكلام فصيحاً (٣٥٨)

وفي صنع المعروف يقول :

يد المعروف غنم " حيث كانت
ففي شكر الشكور له جزاء
تحملها شكور " أو كفور
وعند الله ما كفر الكفور (٣٥٩)

وحفر حصن بخراسان ، فأصابوا فيه رأس إنسان ، فوزنوا
سناً من أسنانه فوجدوها قدر مئتين (٣٦٠) فأنشأ ابن المبارك
يقول :

أتيتُ بسنَّينِ قد رُمِّتا
على وزن مئتينِ إحداهما
ثلاثون أخرى على قدرها
فماذا يقوم لأفواههم
من الحصن لما أثاروا الدفينا
تقلُّ به الكف شيئاً رزينا
تباركت يا أحسن الخالقينا
وما كان يملأ تلك البطونا

(٣٥٨) طبقات الشافعية الكبرى (١ : ١٥٠) . وبهجة
المجالس ١ / ٨١ .

(٣٥٩) بهجة المجالس وانس المجالس لابن عبد البر (١ : ٣٠٧) .

(٣٦٠) المنيان أو المنوان : مثنى منا ، وهو قطعة من الحديد
كان يوزن بها .

إذا ما تذكرت أجسامهم تقاصرت النفس حتى تهونا
وكل على ذلك ذاق الردى وبادوا جميعاً فهل خالدونا (٣٦١)

وقد سبقت أبياته التي قالها في وصف هيبة الإمام مالك ووقاره ، ثم في رثائه له . كما سبقت أبياته في عمرو بن عبيد ، تم التبرؤ ممن شتم الصحابة والرد على من يتجرأ على ذلك . وبذلك نكون قد عرضنا نماذج من شعره يتجلّى فيها أدب ابن المبارك وشاعريته ، والأغراض التي كان يدور حول محورها . رحمه الله ورضي عنه .

مِنَ أَقْوَالِهِ وَحِكْمِهِ

أقوال المرء صورة لروحه ، ومرآة لنفسه ، ينعكس فيها ما يكنه الضمير ، وما يهفو إليه الوجدان . وقد عرفت شيئاً عن ابن المبارك ، فما عساه أن يقول إلا ما يعبر عن حكمة عالية ، أو نظرة دقيقة ينظر فيها بنور الله . فلو جمعت كلماته لكانت نظرات فيلسوف ، ولكنها الفلسفة المؤمنة التي ما ينطق صاحبها عن الهوى ، إن هو إلا الاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، اتباع العارف بأسرار شرعه ، العارف من بحر معرفته ، حيث ترى النظرات الإيمانية الدقيقة التي يملها الورع والتقوى ،

(٣٦١) بهجة المجالس ٢/ ١٥٥ .

والنظرات الاجتماعية الصائبة التي تمليها الملاحظة والتجربة ،
والنظرات الصوفية البعيدة التي يملها العلم والمعرفة ، إلى غير
ذلك من النظرات • فأنت تنتقل بين أقواله من ثمرة إلى ثمرة ،
ومن زهرة إلى زهرة • ثمرات العلم والتقوى ، وزهور الأخلاق
والفضيلة ، فكأنك في حدائق ذات بهجة •

فمن أقواله :

كم من حامل للقرآن والقرآن يلعنه من جوفه ، وإذا عصى
حامل القرآن ربه ، ناداه القرآن من جوفه : والله ما لهذا حملت ،
ألا تستحي من ربك (٣٦٢) ؟ •

ومن أقواله : الدنيا سجن المؤمن ، وأعظم أعماله في السجن
الصبر وكظم الغيظ ، وليس للمؤمن في الدنيا دولة ، وإنما دولته
في الآخرة (٣٦٣) •

وكان يقول : إذا غلبت محاسن الرجل لم تذكر المساوىء ،
وإذا غلبت المساوىء على المحاسن لم تذكر المحاسن (٣٦٤) •

وقال رجل لابن المبارك : بقي من ينصح ؟ قال : فهل بقي
من يقبل ؟ (٣٦٥) •

(٣٦٢) تنبيه المغترين ١٨١ •

(٣٦٣) تنبيه المغترين ٨٣ • والمراد بالدولة هنا الرخاء
والسرور •

(٣٦٤) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) •

(٣٦٥) حلية الأولياء (٨ : ١٦٦) •

وعن سنيد بن داود قال : سألت ابن المبارك : من
الناس ؟ فقال : العلماء • قلت : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد •
قلت : فمن السّفلة ؟ قال : الذين يعيشون بدينهم (٣٦٦) •

وكان يقول : على العاقل أن لا يستخف بثلاثة : العلماء ،
والسلطان ، والإخوان ؛ فإن من استخف بالعلماء ذهب آخرته ،
ومن استخف بالسلطان ذهب دنياه ، ومن استخف بالإخوان
ذهب مروءته (٣٦٧) •

وسئل : ما خير ما أعطي الإنسان ؟ قال : غريزة عقل •
قيل فإن لم يكن ؟ قال : حسن أدب • قيل فإن لم يكن ؟ قال : أخ
شفيق يستشيره • قيل : فإن لم يكن ؟ قال : صمت طويل •
قيل : فإن لم يكن ؟ قال : موت عاجل (٣٦٨) •

ومر براهب عند مقبرة ومزبلة فقال : ياراهب عندك كنز
الرجال و كنز الأموال وفيهما يعتبر (٣٦٩) •

ومن أقواله : لو أن رجلين اصطحبا في الطريق ، فأراد

(٣٦٦) حلية الاولياء (٨ : ١٦٧) •

(٣٦٧) الطبقات الكبرى للشعراني (١ : ٦٠) •

(٣٦٨) سر اعلام النبلاء (٦ : ٢٥١) •

(٣٦٩) المرجع السابق (٦ : ٢٥٤) •

أحدهما أن يصلي ركعتين ، فتركهما لأجل صاحبه كان ذلك رياء .
وإن صلاهما من أجل صاحبه فهو شرك (٣٧٠) .

وسئل رضي الله عنه عن قول لقمان لابنه : إن كان الكلام من
فضة فإن الصمت من ذهب ؛ فقال : معناه لو كان الكلام بطاعة الله
من فضة ، فإن الصمت عن معصية الله من ذهب (٣٧١) .

ومن أقواله : إن الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان
ف قيل له : وكيف ذلك؟ قال : يجب أن يذكر أنه مجاور بمكة (٣٧٢) .
ومن أقواله : من دخل النار بالمعاصي الظاهرة أخف ممن دخلها
بالرياء والسمعة (٣٧٣) .

• وكان يقول : ليس من الدنيا إلا قوت اليوم فقط (٣٧٤) .

ومن أقواله : من صبر فما أقل ما يصبر ، ومن جزع فما
أقل ما يتمتع (٣٧٥) .

(٣٧٠) حلية الأولياء (٨ : ١٧١) .

(٣٧١) جامع العلوم والحكم ص ١١٧ . وهذا يرجع إلى أن
الكف عن المعاصي أفضل من عمل الطاعات .

(٣٧٢) إحياء علوم الدين (٣ : ٢٩٧) ، وذلك لأن الرياء
يحبط العمل ويبطل ثوابه .

(٣٧٣) تنبيه المغترين ٩٥ .

(٤٧٤) طبقات الشعراني (١ : ٦٠) .

(٣٧٥) جامع العلوم والحكم ص ١٧٢ .

وقال له رجل : أوصني . فقال له : اترك فضول النظر
توفق للخشوع ، و اترك فضول الكلام توفق للحكمة ، و اترك
فضول الطعام توفق للعبادة ، و اترك التجسس على عيون الناس
توفق للاطلاع على عيوب نفسك ، و اترك الخوض في ذات الله
توق الشك والنفاق (٣٧٦) .

وكان رضي الله عنه يقول : أربع كلمات اتخبن من أربعة
آلاف حديث : لا تثقن بامرأة ، ولا تغترن بمال ، ولا تحمّل
معدتك مالا تطيق ، وتعلم من العلم ما ينفعك فقط (٣٧٧) .

وقال له رجل : إني لأرى نفسي أحسن حالا ممن قتل نفساً
ظلماً . فقال له : إن أمنك على نفسك لشر ممن قتل نفساً ظلماً (٣٧٨) .

ومن كلامه المؤثر : إن العلماء ورثة الأنبياء فإذا كانوا على
طمع فبمن يُقتدى ؟ والتجار أمناء الله فإذا خانوا فمن يؤتمن ؟
والغزاة أضياف الله فإذا غلّوا فبمن يظفر على العدو ؟ والزهاد
ملوك الأرض فإذا كانوا ذوي رياء فمن يتبع ؟ والولاة رعاة
الأنام فإذا كان الراعي ذئباً فبمن تحفظ الرعية ؟ (٣٧٩) .

(٣٧٦) تنبيه المغترين ٨٨ .

(٣٧٧) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

(٣٧٨) تنبيه المغترين ١٦٦ .

(٣٧٩) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٣٠) .

وحدث ابن المبارك عن أبي بكر بن عياش قال : اجتمع
أربعة ملوك : ملك فارس وملك الروم وملك الهند وملك الصين،
فتكلموا بأربع كلمات كأنما رُمي بهنّ عن قوس واحدة . فقال
أحدهم : أنا على قول ما لم أقل أقدر مني على رَد ما قلت .
وقال الآخر : الكلمة إذا قلتها ملكتني وإذا لم أقلها ملكتها . وقال
الآخر : لا أندم على قول ما لم أقل وقد أندم على ما قلت .
وقال الآخر : عجبت لمن يتكلم بالكلمة إن رفعت عليه ضرته وإن
لم ترفع عليه لم تنفعه (٣٨٠) .

وسترى كثيراً من أقواله منشورة خلال الصفحات المقبلة فلا
نرى ضرورة لذكرها هنا لثلاثتكررها هناك .



(٣٨٠) حلية الأولياء (٨ : ١٧٠) .

الفصل الرابع

حياة ابن المبارك العملية

تمهيد

رأيت ابن المبارك الإمام البارع ، والمحدث الثقة ، والفقيه المبرز ، ورأيت مكاتبه في العلم وعظيم منزلته . ولكن ابن المبارك عرف أن العلم ليس إلا طريقاً للعمل ، فهو لم يتعلم العلم ليحاري به العلماء ، ولا ليحاري به السفهاء ، ولا ليلفت إليه الأظار ويشار إليه بالبنان . فالعلم منذ خلقه الله طريق العمل . على هذا الأساس طلبه الصحابة رضوان الله عليهم وعلى من نهج نهجهم بإحسان ، وعلى هذه الطريق كان العلم فريضة على كل مسلم . أما العلم الذي لا يرافقه عمل ، بل ليست غايته العمل ، فهو علم لا يزيد من الله إلا بعداً ، ولا يستجلب منه إلا المقت والسخط . فالعلم الذي يأمر به الله ، ويحض عليه رسوله ، هو العلم الدالّ على الآخرة ، المعروف بالله سبحانه ، وهذا هو العلم الذي رتب الله عليه الفضل ، وجاءت بمدحه الأحاديث الكثيرة .

وفي ذلك يقول حجة الاسلام : المراد بالعلم في هذه الأخبار

كلها العلم النافع ، المعرف للصانع ، والدال على طريق الآخرة ، فهو الذي نفعه عظيم وأجره عظيم • أوحى الله إلى داود : تعلم العلم النافع • قال : ما العلم النافع ؟ قال : أن تعرف جلالتي وعظمتي وكبريائي وكمال قدرتي على كل شيء ، فهذا الذي يقربك إليّ • وقال علي كرم الله وجهه : ما يسرنى لو مت طفلاً وأدخلت الجنة ، ولم أكبر فأعرف ربي ، فإن أعلم الناس بالله أشدهم خشية ، وأكثرهم عبادة ، وأحسنهم في الله نصيحة • فمن طلب العلم ليصرف به الوجوه إليه ، ويجالس به الأمراء ، ويباهي النظراء ، ويتصيد الحكام ، فتجارته بائرة ، وصفقته خاسرة (١) •

فابن المبارك عمل بما علم حتى لا يكون علمه حجة عليه يوم القيامة ، يوم لا ينفع إلا قلب سليم وعمل متقبل • وقد كان رضي الله عنه يرى أن الزيادة في العلم ينبغي أن تتبعها زيادة في العمل ، وإلا فلا فائدة في العلم ، وقد كان يلتزم هذا في نفسه ، وينبه الناس إليه بسلوكه وبكلامه ، ومن حكاياته النافعة التي توجه إلى هذا المعنى : أن رجلاً كان ذا مال ، لم يسمع بعالم إلا أتاه حتى يقتبس منه ، فسمع أن في موضع كذا عالماً ، فركب السفينة إليه ، وفيها امرأة فقالت : ما أمرك يا هذا ؟ قال : إني مشغوف بحب العلم ، وقد سمعت أن في موضع كذا عالماً ، فأريد أن آتيه ، قالت : يا هذا كلما زيد في علمك تزيد في عمك ، أو تزيد

(١) فيض القدير (٢ : ١٨) •

في علمك والعمل موقوف ؟ فاتبه الرجل ، ورجع وأخذ
في العمل (٢) .

وسنرى في الصفحات المقبلة إلى أي حد عمل ابن
المبارك بعلمه . وإذا كنت قد عرفت شيئاً عن سعة علمه ، فيمكنك
أن تتصور شدة اجتهاده في العمل لتطبيق ذلك العلم .

ونسارع فنقول: إن ابن المبارك قد جمع كل خصلة محمودة،
حتى أصبحت سيرته نسيماً تستروح به القلوب، وتشرح له الصدور،
وتتلذذ به النفوس ، حتى قال فيه إسماعيل بن عياش :

ما على وجه الأرض مثل عبد الله بن المبارك ، ولا أعلم أن
الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها في عبد الله
ابن المبارك (٣) .

وليس عجباً أن تجتمع الفضائل كلها في رجل ، لأن جميع
الفضائل مستمدة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم وسيرته .
فمن جعل ذلك قدوته وإمامه في كل أمر كبير وصغير ، اجتمعت
فيه خصال الخير وأنواع المحامد ؛ حتى ليتقرب الناس بحبه إلى
الله تعالى ، بل حتى يتقرب العلماء والصلحاء بحبه إلى الله تعالى ،
كما كان الحال في إمامنا ابن المبارك رضي الله عنه ؛ وذلك لعبادته
وتقواه وصلاحه واجتهاده في العمل والجهاد في سبيل الله .

(٢) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ص ١٩٠ .

(٣) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٧) .

ويكفي أن نجمل هنا فضله وتقواه بما ورد عن ابن عيينة قال : ظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك ، فما رأيت لهم عليه فضلاً ؛ إلا بصحبتهم النبي صلى الله عليه وسلم وغزوهم معه (٤) .

زُهْدُهُ

زهـد وتـرف

رأيتَ أن ابن المبارك قضى معظم حياته في عصر الحكم العباسي ، عصر المادية الجارفة والمال الوفير . وقد كان ذلك العصر يمثل الذروة في كثرة المال وأدوات الترف ؛ فنشأت طبقة المترفين ، واشتدت الاغراءات المادية ، وظهر انهيار الأخلاق ، وخمود العاطفة ، وضعف الشعور الديني . وأصبحت الأمة الاسلامية معرضة لكارثة أليمة ، كارثة الإفلاس في الروح والإيمان ، والجري وراء الحياة المادية الحلوة الخَضِرَة . وكارثة المادية ليست أقلَّ خطراً من الخطر الخارجي والعدوان العسكري .

وقد نبأ بهذا الخطر لسان النبوة قبل وقوعه . فقد أندر الرسول عليه الصلاة والسلام المسلمين بهذا الخطر وقال : « ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم

(٤) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٣) .

الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ،
وتهلككم كما أهلكتهم» (٥) .

لقد وقع هذا الخطر الذي تخوفه الرسول الكريم على هذه
الأمّة ، وقد بلغ ذلك أوجه في عصر ابن المبارك ، حيث كثرت
الأموال ، وبسطت الدنيا ، وازدادت زخارف الحياة . فأسرع
الناس وراء الشهوات وتفننوا في اللهو والسرف ، والبذخ والترف ،
وانطلق الناس يعبثون بالأموال ، ويعترفون من لذائد الحياة ،
وكان هذا نذيراً للناس بالدمار والانهيـار السريعين ؛ لولا أن
قيّض الله رجالاً انقطعوا إلى الدعوة إلى الله وتزكية النفوس ،
ونشر العلوم الدينية ، والعكوف على العلم والتعليم . وقد ثاروا
على هذه الحياة المادية ، وترفعوا عن إغراءاتها المتعددة ، فأنحسرت
عنهم أمواجها ، وارتدت خائبة حسيرة وكأنها لم تجد إلى قلوبهم
المؤمنـة سبيلاً .

لقد كان أولئك الرجال الذين شغلوا بالمحافظة على روح
الأمّة وصلتها بالله ، وبالمحافظة على منابع الحياة الإسلامية ، كانوا
جزراً بشرية في بحر المادية المائج يأوي إليها الغرقى والتائهون كما
سبق أن بينا ذلك عند بحثنا عن العصر الاجتماعي . وقد كان من
أولئك الرجال الزهاد ، والعلماء المخلصين ، والدعاة الكبار الذين

(٥) صحيح مسلم « كتاب الزهد » .

زهدوا في حطام الدنيا وتمردوا على الشهوات ، فكان لسيرتهم
الطيبة وحياتهم النزيهة الأثر الكبير في إصلاح المجتمع ؛ لقد كان
من هؤلاء الإمام الزاهد عبد الله بن المبارك رضي الله عنه .

حقيقة الزهد

نحن أمام زاهد حقيقي عرف حقيقة الزهد، ونفذ من مظاهره
وقشوره إلى قلبه ولبه ، وإذا كان يحلو لبعض الناس أن يفهم
الزهد على أنه رفض للدنيا ، واعتزال للناس ، واعتماد على هبات
المحسنين والمتصدقين ، فيعتزل في بيته ، وينطوي على نفسه ،
ليكون متعبداً لله ومشتغلاً بخويصة نفسه ، تاركاً الدنيا ، لا يجده
فيها ولا يعمل وكأن الدنيا خلقت لغيره . فإن ابن المبارك لم يفهم
الزهد كذلك ، إنه فهم الزهد على أن تجده في الحياة ، فتكسب
المال وتتاجر في البلدان تبغي من فضل الله ورزقه ، فإذا صار
المال إليك أتفقته في سبيل الله ، واستعنت به على طاعة ربك ،
لا ترى محتاجاً إلا ساعدته ، ولا مريضاً إلا واسيته ،
ولا مسكيناً إلا أعتته ، ولا حقاً لله إلا أدبته . لقد فهم
الزهد هذا الفهم العالي ، فجد في الحياة وتاجر بالبضائع وكسب
المال ، ولكن لا ليركمه في الصناديق ، ولا ليشتري به لذات الدنيا
العاجلة ، بل كسبه ليصون به وجهه ، ويكرم به عرضه ، ويستعين
به على طاعة ربه ، وينفقه في وجوه الخير . والاسلام لا يحرم

على الناس أسباب الغنى ، ولا يمنعهم من البيع والشراء . وقد تاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكسب وأتق ، وتاجر أبو بكر رضي الله عنه واكتسب وأتق ، وتاجر الصحابة رضي عنهم ؛ ولكنه يحرم أن يستغني الإنسان بماله عن الله ، وأن يشغله الفرح بالمال عن حق الله فيه ، يقول الإمام الغزالي (٦) : « قد سمى الله المالَ خيراً في مواضع من كتابه العزيز ، فقال عز وجل : إن ترك خيراً الوصية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم المال الصالح للرجل الصالح (٧) » . ويقول ابن عطاء الله السكندري (٨) بعد أن ذكر قوله تعالى : « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال . لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . » : « لم ينف عنهم الأسباب ولا التجارة ولا البيع ولا الشراء ، فلا يخرجهم عن المدحة غناهم إذا قاموا بحقوق مولاهم » .

هكذا فهم الصحابة والسلف رضي الله عنهم الزهد ، وهم أزهد الزاهدين ، وقد وجد منهم تجار ، ووجد منهم أغنياء ، ولكنهم مع ذلك كانوا زهاداً ، وذلك أنهم جعلوا المال في أكفهم ،

(٦) إحياء علوم الدين (٢ : ٢٣٤) .

(٧) أخرجه الإمام أحمد والطبراني بسند صحيح .

(٨) تاج العروس ص ٥١ .

وفرغوا قلوبهم لله وحده ، فإذا أدبرت الدنيا عنهم صبروا وما كفروا ، وإذا أقبلت عليهم شكروا وما بطروا ، وتصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين ، ممثلين قول الله عز وجل : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . ولما كانت الدنيا في أيديهم لا في سويداء قلوبهم ، هان عليهم أن يخرجوا عن أموالهم ابتغاء وجه الله ، وأن يذلوا في سبيله يرجون رحمة من الله ورضواناً . فليس كل طالب للدنيا مذموماً ، بل المذموم من طلبها ولم يعرف حق الله فيها ، كما أنه ليس كل معرض عن الدنيا ممدوحاً . وفي هذا المعنى يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لو أن رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد ، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس بزاهد (٩) .

فإن المبارك طلب الدنيا لا لنفسه بل لله ، لينفقها في سبيله ثم ليصون بها ماء وجهه عن أن يراق على أبواب السلاطين وأعتاب الأغنياء ، وليربأ بنفسه من أن تمتد يده إلى مخلوق بسؤال ، حدث علي بن الفضيل بن عياض قال : سمعت أبي وهو يقول لابن المبارك : أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبُلغة ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام ، كيف ذا؟! فقال ابن المبارك : يا أبا علي ، إنما أفعل ذا لأصون به وجهي ، وأكرم به

(٩) إحياء علوم الدين (٣ : ٢٦٤) .

عرضي ، وأستعين به على طاعة ربي ، لا أرى لله حقاً إلا سارعت إليه حتى أقوم به . فقال له الفضيل : يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تمّ ذاك! (١٠) وكان رضي الله عنه يقول : لا يُخرج العبدَ عن الزهد إمساكُ الدنيا ليصون بها وجهه عن سؤال الناس (١١) .

زاهد غني

فهو زاهد لكنه غني ، وله أموال وفيرة وتجارة واسعة لكنه زاهد ، وقد كان له رأس مال نحو أربعمئة ألف يتجر به في البلدان ، وكان يربو كسبه في كل سنة على مائة ألف ينفقها كلها في أهل العبادة والزهد والعلم ، وربما أنفق من رأس ماله (١٢) . وكانت سُفرته تحمل على بعير وحدها ، وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك . ثم يطعم الناس وهو الدهرَ صائم في الحر الشديد (١٣) ، وقد صحبه قوم من مصر إلى مكة ، فكان يطعمهم الخبيص وهو الدهر صائم (١٤) .

(١٠) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٠) .

(١١) طبقات الشعرا (١ : ٦٠) .

(١٢) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٧) .

(١٣) المرجع السابق (١٠ : ١٧٨) .

(١٤) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٧) . والخبيص : طعام يصنع

من التمر والسمن .

هذا هو الزهد الحقيقي ، زهد الاختيار لازهد الاضطرار ،
 وزهد الغنى لازهد النفاقة والحرمان ، ولرب غني واسع الغنى
 كعثمان والزبير وابن عوف كان أزهد في الدنيا من كثيرين ممن
 يلبسون مرقعات الصوف ، ويكتفون بالخبز والملح ، وينامون
 على التراب ، وقلوبهم متعلقة بالدنيا ، وأظواهرهم شرهة إلى ما في
 أيدي الأغنياء . يقول حجة الاسلام الغزالي (١٥) : « إن الزهد
 عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة ، أو عن غير الله
 تعالى عدولاً إلى الله تعالى ، وهي الدرجة العليا . وكما يشترط
 في المرغوب فيه أن يكون خيراً عنده ، فيشترط في المرغوب عنه
 أن يكون مقدوراً عليه ، فإن تَرَكَ ما لا يقدر عليه محال ،
 وبالترك يتبين زوال الرغبة » .

فليس الزهد في الدنيا أن يزهد فيها الإنسان وهي عنه مدبرة
 فهذا زهد الاضطرار ، وكذلك فليس الغنى مانعاً من الزهد لأن
 الزهد محله القلب ، وكم من كدعيٍّ للزهد والطمع يملك قلبه ،
 وما أحسن قول ابن القيم في ذلك إذ يقول :

« الزهد فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليد منها ، وقد
 جهل قوم فظنوا أن الزهد تجنّب الحلال ، فاعتزلوا الناس ،
 فضيّعوا الحقوق ، وقطعوا الأرحام ، وجفّوا الأنام ، واكفّروا

(١٥) إحياء علوم الدين (٤ : ٢١٧) .

في وجوه الأغنياء ، وفي قلوبهم شهوة الغنى أمثال الجبال ، ولم يعلموا أن الزهد إنما هو بالقلب ، وأن أصله موت الشهوة القلبية ، فلما اعتزلوها بالجوارح ظنوا أنهم استكملوا الزهد ، فأداهم ذلك إلى الطعن في كثير من الأئمة (١٦) » .

سبب الزهد

الزهد ثمرة العلم الرباني الذي يعرف به العالم مكانة الدنيا ومكانة الآخرة ، ويوازن به بينهما ، ثم يصل إلى أن يبصر التفاوت الكبير بين الدنيا والآخرة ، بين الحقير الفاني والباقي الخالد . ومتى علم الإنسان أن ماعنده يفنى ويزول ، وأن ما عند الله خير وأبقى ، وأيقن قلبه بذلك ، زهد في الدنيا وأقبل على الآخرة ، لأنها خير ثواباً وخير أملاً . وإنما قلنا : العلم الرباني ؛ لأنه هو وحده الذي يحمل صاحبه على الموازنة بين الدنيا والآخرة ، أما سوى هذا العلم فيحمل صاحبه على التهاون والغفلة والغرور ، ويفمسه في حب الجاه والشهرة . .

وقد كان ابن المبارك رضي الله عنه يرى الزهد من لوازم العلم ، وكان يقول : من شرط العالم أن لا تخطر محبة الدنيا على باله . ويقول : كيف يدعي رجل أنه أكثر علماً وهو أقل

(١٦) فيض القدير (٤ : ٧٣) .

خوفاً وزهداً^(١٧) ؟ وقد قيل له : كيف يعرف العالم الصادق ؟
 فقال : الذي يزهد في الدنيا ويقبل على أمر آخرته^(١٨) . ومن
 كلامه في ذلك : تعلمنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا^(١٩) .
 وكان يقول : جمعت علم العلماء فليس فيما جمعت أحب إليّ من
 علم الفضيل بن عياض^(٢٠) . وسئل رضي الله عنه : ما ينبغي للعالم
 أن يتكرم عنه ؟ قال : ينبغي أن يتكرم عما حرم الله تعالى عليه ،
 ويرفع نفسه عن الدنيا فلا تكون منه على بال^(٢١) . وكان يقول :
 عجبت لطالب العلم ؛ كيف تدعوه نفسه إلى محبة الدنيا مع إيمانه
 بما حمل من العلم^(٢٢) . وسئل ما ينبغي أن يجعل عظة شكرنا له :
 قال : زيادة آخرتكم ونقصان دنياكم ، وذلك أن زيادة آخرتكم
 لا تكون إلا بنقصان دنياكم ، وزيادة دنياكم لا تكون إلا بنقصان
 آخرتكم^(٢٣) . فالعلم من شأنه أن يزهد في الدنيا ويرغب في
 الآخرة ، ومن هنا كان لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ،
 وكان الذين يخشون الله من عباده هم العلماء .

(١٧) طبقات الشعرا ني (١ : ٥٩) .

(١٨) الورع لآحمد بن حنبل ص ٧٤ .

(١٩) وفيات الأعيان (٢ : ٢٣٩) .

(٢٠) حلية الأولياء (٨ : ١٦٨) .

(٢١) المرجع السابق (٨ : ١٦٦) .

(٢٢) طبقات الشعرا ني (١ : ٦٠) .

(٢٣) حلية الأولياء (٨ : ١٦٧) .

وإن الموازنة بين مكانة الدنيا ومكانة الآخرة إذا كانت صحيحة فلا بد أن تؤدي بصاحبها إلى الزهد في الدنيا واحتقارها وتسخير كل ما فيها ليكون وسيلة إلى الآخرة ، وذلك لاشتداد الفارق واتساعه . فالدنيا - كما يقول الغزالي - كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان إلى الانقراض ، والآخرة كالجوهر الذي لا فناء له ، ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللائيء ، فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة ، حتى إن من قوي يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ثم بين أن صفقتهم رابحة ، فقال : « فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به » . فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر ، وهو أن الآخرة خير وأبقى ، وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا إما لضعف علمه ويقينه ، وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهوراً في يد الشيطان ، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوماً بعد يوم إلى أن يختطفه الموت ، ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت (٢٤) .

ولقد دلَّ ابنُ المبارك علمه على تفضيلِ الآخرة وجعلِ الدنيا طريقاً لها ، فوازن بين الدنيا دار البلاغ وبين الآخرة دار

(٢٤) انظر إحياء علوم الدين (٤ : ٢١٧) .

القرار ، فوجد أن الدنيا الفانية لا تعدل الآخرة الباقية الخالدة
ونعيمها المقيم ، وما فيها مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولم يخطر
على قلب مخلوق ، ولأجل هذا كان ينشد إذا خرج إلى مكة :

بغض الحياة وخوف الله أخرجني

ويبع نفسي بما ليست له ثمننا

إني وزنت الذي يبقى ليعدله

مالمس يبقى فلا والله ما اتزنا (٢٥)

عرف ابن المبارك بعد هذه الموازنة بين الدنيا والآخرة أن
الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، وأن من عظم الدنيا فهو
أحق من جناح البعوضة ، ولذلك كان قدوة الزاهدين وإمامهم ،
ومضرب المثل فيهم ، حتى ليقول فيه الإمام الزاهد التقي الورع
الفضيل بن عياض : ورب هذا البيت ما رأته عيناى مثل ابن
المبارك (٢٦) .

ومع كل هذا الزهد كان لإخلاصه وتقواه رضي الله عنه
وأرضاه لا يدعي الزهد ، ولا يجب أن يعرف الناس فيه ذلك ،
ويرى نفسه أقل من أن يكون زاهداً ، فقد قيل له مرة : يا زاهد .
فقال : الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ،

(٢٥) شذرات الذهب (١ : ١٩٦) ووفيات الأعيان (٢ : ٢٣٩) .

(٢٦) المرجع السابق .

وأما أنا ففي ماذا زهدت (٢٧)؟! وكان يقول : أفضل الزهد إخفاء
الزهد (٢٨) .

هذا هو ابن المبارك الزاهد الغني ، الذي جاءت به الدنيا بمالها
ومتاعها ، فما جعل لها مكاناً من قلبه ، ولا حظاً من نفسه ، ولم
يكن زهده قولاً لا يصدق العمل ، ولا فكرة نظريّة فلسفية لم
تقترن بتنفيذ ، وسترى في روايات جوده وإتقانه ما يظنه الناس من
الأساطير والخيال ؛ مع أنه الواقع والحقيقة التي تشهد بها المراجع
الأمينة ، والمصادر الموثوقة .

كَرْمُهُ

تعوّدَ بسط الكفّ حتى لو انه أراد انقباضاً لم تطعه أنامله°
ولولم يكن في كفه غير روحه لجاد بها ، فليتنق الله سائله°

ألا ما أصدق هذا القول من الشاعر لو كان في الإمام عبد الله
ابن المبارك رضي الله عنه ، فقد رأيت أنه كان غنياً واسع الغنى ،
وأنه كانت له تجارة واسعة يدور بها في البلدان ، وأن رأس ماله
كان أكثر من أربعمئة ألف ، وأن كسبه كان يربو في كل سنة على
مئة ألف . ولكن غناه هذا لم يكن إرثاً عن أبيه ، فأبوه كان -

(٢٧) إحياء علوم الدين (٤ : ٢١٧) .

(٢٨) ادب الدنيا والدين ص ٩٥ .

كما سبق - ناطوراً في بستان ولم يكن من أرباب الأموال • ولم ينله من هبات الحكام ، فما كان لمثل ابن المبارك أن يقبل عطايا السلاطين • ولكنه جمع هذا المال من عمل يده وكسب يمينه ، جمعه لا ليخلفه إرثاً لمن بعده، ولا ليركمه في الصناديق، ولا ليذره في الحصول على الأثاث والرياش والتحف النفيسة • لقد كان ابن المبارك أعقل من ذلك ، فما كان له - وهو الورع العاقل الزاهد التقى الذي باع ديناه بآخرته ، وآثر ما يبقى على ما يفنى - أن يعود فيجمع المال ليكون عليه وزراً ، وأن لا يسارع إلى إنفاقه في سبيل الله وسائر وجوه الخير ، فقد جعل غناه طاعة لله ، وباع الله نفسه فجاهد في سبيل الله ، وماله فأنفقه في طرق البر، ثم استبشر بهذا البيع موقناً أن الصفقة رابحة وأن الآخرة خير لمن اتقى •

وقد سبق أنه كان يخصص مائة ألف درهم في كل سنة ينفقها كلها في أهل العبادة والزهد والعلم، وهذا كل ما يربحه من تجارته، بل كان كثيراً ما ينفق من رأس ماله أيضاً ، بل لقد كانت غايته من التجارة والكسب أن ينفق على الفقراء والعلماء والزهاد والعباد، ولأجل هذا كان يعمل ويسافر ويتاجر ، وقد قال يوماً للفضيل بن عياض : لولا أنت وأصحابك ما اتجرت (٢٩) •

وهكذا كانت الصدقة هي غايته من عمله وتجارته ، لما كان يرى لها من المكانة والنفع في الدنيا والآخرة ، حتى إنه ربما جاءه

(٢٩) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٦) .

المريض الذي استعصى عليه الشفاء ، فيرشده الى صدقة جارية يستشفى بها ؛ فعن علي بن الحسن بن شقيق قال : سمعت ابن المبارك وسأله رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن ، قرحة خرجت من ركبتي منذ سبع سنين ، وقد عالجتها بأنواع العلاج ، وسألت الأطباء فلم أتففع به ؟ قال : اذهب فانظر موضعاً يحتاج الناس الماء فاحفر هناك بئراً ، فإني أرجو أن تنبع هناك عين ، ويمسك عنك الدم . ففعل الرجل فبرأ . رواه البيهقي (٣٠) .

ولقد عوتب فيما يفرق من المال في البلدان ولا يفعل مثل ذلك في أهل بلده ، فقال : إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق ، طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب للحديث ، بحاجة الناس إليهم احتاجوا ، فإن تركناهم ضاع علمهم ، وإن أعتناهم بشوا العلم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم (٣١) .

ولقد سبق أن رأيت بعضاً من كثرة إنفاقه ، حتى كان يزيد على مائة ألف كل عام ، ورأيت كيف كان يطعم الناس أطيب الطعام وهو صائم في الحر الشديد ، وكان إذا اشتهى طعاماً لا يأكله إلا مع ضيف ، ويقول : بلغنا أن طعام الضيف لاحتساب عليه (٣٢) . قال الحسن : وصحبت ابن المبارك من خراسان إلى

(٣٠) الترغيب والترهيب ٧٤/٢ .

(٣١) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٠) .

(٣٢) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

بغداد فما رأته أكل وحده (٣٣) ، وكان يشتري التمر ويأتي به إلى الأيتام والمساكين ويقول لهم : من يأكل من تمرى فله درهم على كل تمرة ، ثم يعدّ نوى كل واحد منهم فيعطيه لكل نواة درهماً (٣٤) . وكان يقول : لقمة في بطن جائع أرجح في ميزاني من عمارة المسجد لو عمرته وحدي (٣٥) .

هذه كانت غايته من التجارة والربح ، ولأجل هذا جمع المال ، وبسبب هذا بارك الله له فيه ، فهو ينفق ولا يخاف من الله إقلاقاً ، وإن أخبار جوده وكرمه تكاد لا تصدق وهي أشبه بالأساطير .

● منها أنه خرج مرة من بغداد يريد المصيبة للجهاد والغزو في سبيل الله — وهي ثغر من ثغور الروم — فصحبه جماعة من الصوفية الذين تطوعوا للجهاد ، فقال لهم : أتمم لكم أنفس تحتشمون أن ينفق عليكم . ثم قال لغلامه : يا غلام هات الطست ، فألقى على الطست منديلاً غطاه به ثم قال : يلقي كل رجل منكم تحت المنديل ما معه . فجعل الرجل يلقي عشرة دراهم والرجل يلقي عشرين ، فأثفق عليهم إلى المصيبة ، فلما بلغ المصيبة قال هذه بلاد نغير فنقسم ما بقي ، فجعل يعطي الرجل عشرين ديناراً ،

(٣٣) صفة الصفة (٤ : ١١٠) .

(٣٤) كنوز الأولياء — مخطوط — ص ٨٥ .

(٣٥) تنبيه المغترين ١٦٨ .

فيقول : يا أبا عبد الرحمن إنما أعطيت عشرين درهماً ، فيقول :
وما تنكر أن يبارك الله للغازي في نفقته؟ (٣٦) .

● وكان إذا عزم على الحج يقول لأصحابه من أهل مرو : من
عزم منكم في هذا العام على الحج فليأتني بنفقته حتى أكون أنا
أنفق عليه ، فكان يأخذ منهم نفقاتهم ، ويكتب على كل صرة اسم
صاحبها ، ويجمعها في صندوق فيقبل عليها . ثم يكتري لهم
ويخرجهم من مرو إلى بغداد ، في أوسع ما يكون من النفقات
والركوب وحسن الخلق والتيسير عليهم ، فلا يزال ينفق عليهم
ويطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلواء . ثم يخرجهم من بغداد
بأحسن زي وأجمل مروءة حتى يصلوا إلى مدينة الرسول صلى
الله عليه وسلم ، فإذا صاروا إلى المدينة قال لكل رجل منهم :
ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من طرَفِ المدينة ؟ فيقول : كذا ،
فيشتري لكل واحد منهم ما وصاه أهله من الهدايا . ثم يخرجهم
إلى مكة ، فإذا وصلوا إلى مكة وقضوا حجهم قال لكل واحد
منهم : ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من متاع مكة ؟ فيقول :
كذا وكذا ، فيشتري لهم ، ثم يخرجهم من مكة ، فلا يزال ينفق
عليهم . فإذا رجعوا إلى بلادهم بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم ،
فأصلحت وبقيت ورؤم شعثها وجصصت أبوابها . فإذا

(٣٦) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٧) .

وصلوا إلى البلد عمل وليمة بعد قدومهم بثلاثة أيام ودعاهم فأطعمهم ، فإذا أكلوا وسروا كساهم الثياب الجديدة ، ثم دعا بذلك الصندوق ففتحه وأخرج منه تلك الصرر ، ثم يقسم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه ، فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم وهم شاكرون ناشرون لواء الثناء والجميل (٣٧) .

وقد أخبر خادمه أنه عمل آخر سفرة سافرها دعوة ، فقدّم إلى الناس خمسة وعشرين خواناً عليها الفالوذج (٣٨) . وعن الحسن بن الربيع قال : ما رأيتاه - الزماورد - (٣٩) إلا عند ابن المبارك بالكوفة ، يتخذ طعاماً ويدعو أصحاب الحديث ويمد كرباسه (٤٠) بالطول ويلقي عليه الثياب ، ويؤكل عليه ، وكان يتخذ الفالوذجات المعقدة ويطعم أصحاب الحديث (٤١) .

● وخرج مرة إلى الحج فاجتاز ببعض البلاد ، فمات طائر معهم فأمر بإلقائه على مزبلة هناك . وسار أصحابه أمامه وتخلّف

(٣٧) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٨) وتاريخ بغداد (١٠ : ١٥٨) وغيرهما .

(٣٨) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٨) والفالوذج : طعام يتخذ من الدقيق والماء والعسل والسمن .

(٣٩) الزماورد : طعام من البيض واللحم ، وهو معرب .

(٤٠) الكرباس : ثوب من القطن الأبيض ، وهو معرب .

(٤١) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٧ .

هو وراءهم ، فلما مر بالمزبلة إذا بنت قد خرجت من دار قريبة منها ، فأخذت ذلك الطائر الميت ثم لفته وأسرعت به إلى الدار . فجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميتة ، فقالت : أنا وأجبي هنا ليس لنا شيء إلا هذا الإزار ، وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة ، وقد حلت لنا الميتة منذ أيام ، وكان أبونا له مال فظلم وأخذ ماله وقتل . فأمر ابن المبارك بردّ الأحمال وقال لو كي له : كم معك من النفقة ؟ قال : ألف دينار ، فقال : عدّ منها عشرين ديناراً تكفينا إلى مرو وأعطها الباقي فهذا أفضل من حجبنا في هذا العام ثم رجع (٤٢) .

● وسأله مرة سائل فأعطاه درهماً ، فقال له بعض أصحابه : إن هؤلاء يأكلون الشواء والفالودج وقد كان يكفيهم قطعة . فقال : والله ما ظننت أنه يأكل إلا البقل والخبز ، فأما إذا كان يأكل الفالودج والشواء فإنه لا يكفيهم درهم . ثم أمر بعض غلمانه فقال : رده وادفع إليه عشرة دراهم (٤٣) .

● وشكا أبو أسامة إلى ابن المبارك ديناً عليه وسأله أن يكلم له بعض إخوانه ، فعمد ابن المبارك إلى خمسمائة درهم من ماله فوجهها ليلاً مع رسول له ، وطلب من الرسول أن لا يعلمه

(٤٢) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٨) .

(٤٣) المرجع السابق .

من وجهه إليه • قال : فأتاه الرسول فدفع إليه الخمسمائة فقبضها منه ، وظن أنها جاءتته من مكان آخر • ثم إن أبا أسامة لقي عبد الله ابن المبارك بعد ذلك فذكره الحاجة فسكت عنه ابن المبارك ، فأعاد عليه مرتين أو ثلاثاً ، فقال له ابن المبارك : فلعلها قد أتتك (٤٤) •

● وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فسأله أن يقضي ديناً عليه، فكتب له إلى وكيل له، فلما ورد الكتاب على الوكيل سأله: كم الدين الذي سألت عبد الله بن المبارك أن يقضيه عنك؟ قال: سبعمائة درهم • فنظر في الكتاب فإذا قد أمر له بسبعة آلاف درهم، فكتب إلى عبد الله: إن هذا الرجل سألك أن تقضي عنه سبعمائة درهم وكتبت له سبعة آلاف درهم وقد فנית الغلات، فكتب عبد الله بن المبارك: إن كانت الغلات قد فנית فإن العمر قد فني، فأجر له ما سبق به قلبي (٤٥) •

وفي حادثة مشابهة يلح عليه الوكيل فيكتب إليه ابن المبارك: إن كنت وكيلي فأنفذ ما أمرك به، وإن كنت أنا وكيلك فتعال إلى موضعي حتى أصير إلى موضعك فأنفذ ما تأمرني به • فعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من فاجأ

(٤٤) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٧ •

(٤٥) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٩) •

من أخيه المسلم فرحة غفر الله له » . فأحبت أن أفاجئه فرحة
على فرحة (٤٦) .

● وكان عبد الله بن المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس —
ثغر من ثغور الروم — وكان ينزل الرقة في خان (٤٧) ، فكان شاب
يختلف إليه ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث . فقدم عبد الله
الرقة مرة فلم يرد ذلك الشاب ، وكان مستعجلاً فخرج في النفير ،
فلما قفل من غزوته ورجع إلى الرقة سأل عن الشاب ، فقالوا :
إنه محبوب لدين ركه . فقال عبد الله : وكم مبلغ دينه ؟ فقالوا :
عشرة آلاف درهم ، فلم يزل يستقصي حتى "دل" على صاحب
المال فدعا به ليلاً ووزن له عشرة آلاف درهم ، وحلفه أن لا يخبر
أحدًا ما دام عبد الله حياً . وقال : إذا أصبحت فأخرج الرجل
من الحبس ، وأدلج عبد الله . فأخرج الفتى من الحبس وقيل له :
عبد الله بن المبارك كان ههنا ، وكان يذكرك وقد خرج ، فخرج
الفتى في أثره فلحقه على مرحلتين أو ثلاث من الرقة . فقال :
يا فتى أين كنت لم أرك في الخان ؟ قال : نعم يا أبا عبد الرحمن
كنت محبوباً بدين . قال : فكيف كان سبب خلاصك ؟ قال :
جاء رجل فقضى ديني ولم أعلم به حتى أخرجت من الحبس .

(٤٦) صفة الصفوة (٤ : ١١٨) .

(٤٧) الخان يشبه الفندق في هذه الأيام .

فقال له عبد الله : يا فتى ، احمد الله على ما وفق لك من قضاء دينك • فلم يخبر ذلك الرجل أحداً إلا بعد موت عبد الله (٤٨) •

هكذا كان جود عبد الله بن المبارك ، وهكذا كان إخلاصه فيما ينفقه • لا يتبغي أن يقال عنه جواد ، ولا يجب أن تكون له الشهرة بين الناس • يجمع المال ولكن لينفقه في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، ولا يجمعه للتكاثر والعلو والفخر والزينة في الدنيا • وبذلك يكون يوم القيامة من القلة الذين يستظلون بظل صدقاتهم ، ممن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا : عن يمينه ، وشماله ، وقدامه ، وخلفه ، وقليل " ما هم » (٤٩) •

جِهَادُهُ وَبَطُولَتُهُ

إن الإيمان بالله رباً لهذا الكون ومُصَرِّفاً لأمواره يقتضي أن لا يخشى المؤمنون به أحداً سواه ، لأن الله أحق أن يخشى منه ، وإن الإيمان بالحياة الآخرة وما أعدَّ الله فيها للمؤمنين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، يجعل الحياة الدنيا كلها أهوناً على نفس المؤمن من جناح بعوضة ، كما يجعل الحياة

(٤٨) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٩) .

(٤٩) متفق عليه .

في الوقت نفسه أكبر في ظره وأوسع من تحقيق المنافع الشخصية والمصالح المادية واللذائذ الوقتية . وإن القلب متى تذوق حلاوة الإيمان الثابت المتغلغل في سويدائه المختلط بلحمه ودمه ، لا بد مندفع لتحقيق ذلك الإيمان في واقع الحياة ودنيا الناس ، وذلك بالعمل على بناء الأمة التي تحمل العقيدة وتحرسها من أعدائها والحاquدين عليها ، وبذلك تكون الخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ، ناشئة من نفس المؤمن التي تريد لهذا الإيمان القلبي أن تظهر آثاره في الواقع العملي .

ولكن هذا العمل الإيماني الذي نسميه (الجهاد) يحتاج إلى تكاليف ضخمة تتقاصر دونها الهمم الساقطة ، والعزائم الضعيفة ، والأرواح الهزيلة ، وذلك لأنها ماذاقت حلاوة الإيمان ، ولاعرفت حقيقته التي بينها الله بقوله : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون(٥٠) » .

ولن يكمل إيمان المسلم وهو يقعد به عن الجهاد في سبيل الله الخوفُ على الحياة ، أو الخوفُ على المال ، أو الخوفُ على اللذائذ ، أو الخوفُ على المصالح الشخصية ، أو الحرصُ على الدعة والراحة والاستقرار .

(٥٠) الآية ١٥ من سورة الحجرات .

ومن ثمَّ كان العتاب الشديد للمتخلفين ، والتهديد بعاقبة
التناقل عن الجهاد في سبيل الله ، والتنديد بمن رضي بالحياة الدنيا
واطمان بها ، فأثر المتاع الفاني واللذة العاجلة ، وشغلته خضرة
الدنيا وحلاوتها عن الاستجابة لداعي الجهاد :

« يا أيها الذين آمنوا ، مالكم إذا قيل لكم اتفروا في سبيل
الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟
فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » وفي الآية التي
تليها التهديد والوعيد بالعذاب الأليم لمن لم يجاهد في سبيل الله
ولم يجب النفير : « إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ، ويستبدل
قوماً غيركم ولا تضره شيئاً^(٥١) » .

ولئلا يقعد بالناس الخوف - وخاصة على الحياة - ويكون
ذلك مبرراً للخضوع للذل ، والاحتجاج بالضعف ، أطلق الاسلام
الروح الإنسانية من ضغط الخوف على الحياة ، فقرر أن الموت
والحياة بيد الله ، وأن الجبن لا يعصم من الموت ، وأن كل
نفس ذائقة الموت سواء قعدت أم جاهدت ، وذلك في قوله تعالى :
« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج
مشيدة^(٥٢) » . وكذلك أطلقها من ضغط الخوف على المال

(٥١) الأيتان ٣٨ - ٣٩ من سورة التوبة .

(٥٢) الآية ٧٨ من سورة النساء .

والمصالح ، فقرر الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أن الأمة لو اجتمعت كلها على ضرر شخص واحد لم يضره إلا بما كتبه الله عليه ، ولذلك كان المؤمن القوي الصادق لا تهوله كثرة الأعداء ، ولا ينخلع قلبه لمراى الجموع ، ولا يبالي أوقع عليه الموت أم على الموت وقع ؛ لأنه يؤمن أن الموت بيد الله الذي خلق الموت والحياة .

ومن هذا الطراز الممتاز كان الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك رضي الله عنه ، العالم العامل ، والمؤمن القوي ، فقد كان مع علمه الغزير ، وزهده العجيب ، وورعه وتقواه ، كان مع ذلك من أكبر المجاهدين ، كان من أرباب السيف كما كان من أرباب القلم والقرطاس ، كان إماماً في ساحة الجهاد كما كان إماماً في محراب المسجد ، وذلك لأن العلم والتقى والزهد والورع ليست من مبررات القعود عن الجهاد كما اعتاد المسلمون أن يروا في عصرنا الحاضر ، أو كما يجب أن يرى بعض أدعياء العلم والزهد في العصر الحاضر ، بل كل ذلك يؤكد الجهاد ويدفع إليه ويجعله أوجب وأكد .

فمن الطراز الممتاز من العلماء والمجاهدين كان ابن المبارك رضي الله عنه وعن أمثاله ، وقد قال فيه ابن كثير^(٥٣) : وكان

(٥٣) البداية والنهاية (١٠ : ١٧٧) .

كثير الغزو والحج • وقال عنه الذهبي^(٥٤) في تذكركه : فخر
المجاهدين • وفي العبر^(٥٥) : « كان رأساً في الشجاعة ... وكان
يحج سنة ويفزو مرابطاً في سبيل الله في الثغور سنة » فمرة يربط
في طرسوس^(٥٦) وأخرى في المصيصة^(٥٧) وفي غير ذلك من
الثغور الإسلامية ، حتى أدركته الوفاة وهو منصرف من بعض
الثغور حيث كان يفزو ويجاهد في سبيل الله ، ويعلم الناس
كيف تكون البطولة والشجاعة • وكان وهو في الثغور للرباط
والجهاد لا ينسى أن يعلم الناس العلم والحديث ؛ فكان إذا
وصل إلى الثغر اجتمع المجاهدون حوله يتعلمون منه العلم ،
ويكتبون عنه الحديث كما يتعلمون منه الشجاعة^(٥٨) .

(٥٤) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

(٥٥) العبر ١ / ٢٨١ .

(٥٦) طرسوس : بفتح أوله وثانيه ، مدينة بثغور الشام بين
انطاكية وحلب وبلاد الروم ، وبها قبر المأمون جاءها غازياً فأدركته
منيته فمات ، وكانت موطناً للصالحين والزهاد يقصدونها للرباط
والجهاد لأنها من ثغور المسلمين ، انظر معجم البلدان (٦ : ٣٨) .

(٥٧) المصيصة : بالفتح ثم الكسر والتشديد وباء ساكنة ،
وهي مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد
الروم ، تقارب طرسوس ، وكانت من مشهور ثغور الاسلام ، قد
ربط بها الصالحون قديماً . انظر معجم البلدان (٨ : ٨٠) .

(٥٨) انظر مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٨ .

وقد سبق أن رأيت في شعره كيف كان يحث الناس على
 الجهاد في سبيل الله ، ويفهمهم أن العبادة تحت ظلال السيوف
 خير من العبادة في محراب المسجد حيث الأمن والاطمئنان ، وذلك
 في أبياته التي بعثها من الثغر مع محمد بن إبراهيم إلى صديقه
 الفضيل بن عياض والتي يقول فيها :

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتنا لعلمتَ أنك بالعبادة تلعبُ
 من كان يخضب جيده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضبُ
 أو كان يتعب خيله في باطلٍ فخيولنا يوم الصبيحة تتعبُ
 ريح العبير لكم ونحن غيرنا رهج السنايك والغبار الأطيبُ

ولما قرأ الفضيل هذه الأبيات بكى وذرفت عيناه بالدموع ،
 وقال : صدق أبو عبد الرحمن ونصح . وروي أنه قال لمن جاءه
 بالرسالة : اكتب هذا الحديث جزاء لحمل الكتاب ؛ وقال : حدثني
 المنصور بن المعتمر ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، أن رجلاً قال
 لرسول الله صلى الله عليه وسلم : دُلّني على عمل أنال به ثواب
 المجاهد في سبيل الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «هل تستطيع
 أن تصوم ولا تفطر ، وتصلي ولا تفتر ؟» فقال : يارسول الله إني
 أضعف عن ذلك . فقال عليه السلام : « فوالذي نفسي بيده ، لو
 طوّقتَ ذلك لما بلغت فضل المجاهد في سبيل الله ، أما علمت أن
 فرس المجاهد ليستن في طوكه ، فيكتب لصاحبه بذلك
 الحسنات » (٥٩) ؟

(٥٩) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٣٣) .

هكذا كان عبد الله بن المبارك يقاتل ويحرض المؤمنين على القتال ، ويجاهد ويكون في أول الصفوف ، ويجالد بقوة ويتقدم حيث يتأخر الأبطال ، وهذا ما حدث به أحد المرافقين لابن المبارك في إحدى المعارك مع الروم . حدث عبدة المروزي قال : كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم ، فصادفنا العدو ، فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز ، فخرج إليه رجل فقتله الرومي ، ثم آخر فقتله ، فتأخر عنه المسلمون فصال وجال بين الصفين ودعا إلى البراز ، فخرج إليه رجل فطارده ساعة ، ثم طعنه فقتله ، فزدحم إليه الناس ، فكنت فيمن ازدحم إليه ، فإذا هو يلبس وجهه بكمه حتى لا يعرفه الناس ، فأخذت بطرف كفه فمددته وأزحته عن وجهه ، فإذا هو عبد الله ابن المبارك ، فقال : وأنت يا أبا عمرو ممن يشنع علينا (٦٠) !! وعن عبيد الله بن سنان قال : كنت مع ابن المبارك ومع المعتمر ابن سليمان بطرسوس فصاح الناس : النفير ، فلما اصطف الناس خرج علق رومي يطلب البراز ، فخرج إليه مسلم ، فقتله الرومي ثم .. وثم .. حتى قتل ستة من المسلمين ، ثم لم يخرج إليه أحد ، فلما رأى ابن المبارك ذلك أوصى إليّ وقال : إن

(٦٠) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٧) ومرآة الجنان (١ : ٣٨٠) ، ومراده تنشر خبرنا .

قتلت فافعل كذا وكذا ، ثم خرج من الصف فقتله وقتل ستة
من الكافرين ثم امتنعوا عنه ، فغاب ، ثم نظرتة فإذا هو بالمكان
الذي كان فيه •

وكان يحضر القتال ويولي بلاء حسناً فإذا كان وقت القسمة
غاب ، فقيل له في ذلك ، فقال : يعرفني الذي أقاتل له (٦١) •

أرأيت كل هذه البطولة النادرة ، وكل هذا الجهاد في سبيل
الله ، وكل هذا الإخلاص في ابتغاء وجه الله • إن ابن المبارك كان
أكبر من ذلك أيضاً ، لقد كان رضي الله عنه شديد الندم على الأيام
التي شغل فيها عن الجهاد في سبيل الله ، لنصر دينه ، وإعلاء كلمته ،
وتحمل المشقة من أجل شريعته ، يندم على أيامه الماضية مع أن
الشاغل له لم يكن اللهو والترف ، ولا التمتع بالدعة والراحة ،
بل كان مشغولاً بالعلم بالحلال والحرام ، وبالفقه في الدين ،
ومع ذلك كان يندم على أنه ضيّع أيامه في الفقه وشغل عن
الجهاد •

حدث عبدة بن سليمان قال : كنا مع ابن المبارك في أرض
الروم ، فبينما نحن نسير ذات ليلة والسماء - يعني المطر - من
فوقنا ، والبلبة من تحتنا ، قال ابن المبارك : يا أبا محمد ، أفئينا
أيامنا في الإيلاء والظهار عن مثل هذه الليالي •

(٦١) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٣٤) •

أرأيت كيف يندم على أيام قضاها في الفقه في الدين لأنه شغل عن جهاد الروم ، وعن السير في ظلمات الليل تحت وابل المطر وفوق سيول الماء وإن للقصة تنمة . يقول عبدة : « . . . فلما أصبحنا نزلنا على عين ماء ، فجعل الناس يتبادرون ويسقون دوابهم ، فقدّم ابن المبارك دابته ، فضرب رجل من أهل الثغر وجه دابة ابن المبارك وقدم دابته ، فقال : يا أبا محمد المنافسة في مثل هذا الموضع ليس في الموضع الذي إذا رأونا قالوا : وسّعوا لأبي عبد الرحمن ارتفع يا أبا عبد الرحمن^(٦٢) . هنا المنافسة حيث الظمّ والجوع ، وحيث التعب والنصب ، وحيث الناس لا يعرفون من هو ابن المبارك ليكرموه ويقدموه ويوسعوا له الطريق .

هكذا كان ابن المبارك المجاهد البطل ، يجاهد ويجالد ولا يريد أن يعرف ويشتهر ويرابط على الثغور ويحضر المعارك والغزوات ، ويخرج لبراز أكبر الفرسان ، ويعف عند المغنم ، ويسير في حالك الظلمات في ظل الأمطار ، ويدافع الناس ليستقي دابته ؛ وهو مع ذلك إمام عصره ووحيد وقته ، وذلك لأنه كان يعلم من جملة ما يعلم من العلم الرباني أنه لا يستوي المجاهدون والقاعدون ولو كانوا جميعاً من المؤمنين، وأن الله فضّل المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً ، وكان يعلم أيضاً أن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وإن كان في كل خير .

(٦٢) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٨٠ .

وبعد هذا ، أفلا ترى معي أنه ليس من قبيل المصادفة أن يكون ابن المبارك أول من يصنف كتاباً في « الجهاد » والحث عليه ؟ ولكنه الإكرام الرباني الذي اختص الله به هذا الإمام المجاهد ، ليكون القول مطابقاً للعمل •

رحمه الله تعالى ورحم أمثاله فقد كانوا حجة على من

بعدهم •

دَعْوَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَنَشْرُهُ الْعِلْمَ

أترى ابن المبارك يجمع هذا العلم الجم ، وهذه المواهب الغزيرة ، ثم يقعد بعد ذلك عن الدعوة إلى الله ؟!

أتراه يجاهد بماله فينفقه في سبيل الله ، ويجاهد بنفسه فينازل أكبر الفرسان في ساحة الجهاد ، ثم يقعد عن الجهاد بلسانه للدعوة إلى الله ؟!

أتراه يكتم العلم وهو الذي تعلمه الله ، وقرأ العهد الوثيق الذي أخذه الله سبحانه على العلماء أن يبشروا للناس ولا يكتموا ؟!

لقد كان ابن المبارك من الدعاة الصادقين إلى دين الله الحنيف وشرعه المطهر ، ينشره بين الناس بنفسه وماله ولسانه ، ويعلم الناس مما آتاه الله من فضله من العلم ، وإلا فما خير من يتعلم العلم ليكتمه في صدره ، أو ليكسب به احترام الناس ، أو ليتصدّر

به المجالس ، ولا يرعى حق الله فيه بنشره بين الناس؟! ولقد كان ابن المبارك من الذين يتعلمون العلم ويعلمونه ، وقد قيل له رحمه الله : من الناس عندك؟ فقال: العلماء العاملون المخلصون (٦٣) . وكان يرى نشر العلم المرحلة الأخيرة من مراحل العلم فهو يقول : اول العلم النية ، ثم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم العلم ، ثم الحفظ ، ثم النشر (٦٤) .

وقد جمع الله لابن المبارك النية الصالحة فطلب العلم لله ، والاستماع الكثير فاستمع لآلاف العلماء ، والفهم ، والعلم ، والحفظ ، وقد سبقت الشواهد الكثيرة على سعة حفظه وقوة ذاكرته ، والنشر للعلم فنشره الله كما جمعه الله . وكانت داره بمرور كبيرة صحن الدار نحو خمسين ذراعاً في خمسين ذراعاً ، فكنت لا تحب أن ترى في داره صاحب علم ، أو صاحب عبادة ، أو رجلاً له مروءة وقدر بمرور إلا رأيت فيه ، يجتمعون في كل يوم حلقاً يتذكرون حتى إذا خرج ابن المبارك انضموا إليه (٦٥) .

وقد نشر العلم في كل بلد وصل إليه على كثرة أسفاره ورحلاته منذ صباه ، فقد قدم بغداد غير مرة وحديثاً بها (٦٦) ،

(٦٣) تنبيه المفترين ١٤ .

(٦٤) الديباج المذهب لابن فرحون ص ١٣١ .

(٦٥) صفة الصفوة (٤ : ١٠٩) .

(٦٦) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٣) .

وكان يلتفت حوله العلماء بمكة ويطلبون منه التحديث (٦٧) ،
فيحدث في كل صقع ، وينشر العلم حيثما حل ، حتى ولو كان
على ثغور العدو مستعداً للجهاد . وكان في حديثه ونشره للعلم
لا يتبغي من غير الله جزاء ولا شكوراً ، فقد أغناه الله عن المال
من فضله العميم ، وعن الجاه بالشهرة الواسعة مع الكره لها ،
إنما كان يحدث لله فقط وابتغاء وجهه . قال يحيى بن معين :
ما رأيت أحداً يحدث لله إلا ستة نفر منهم عبد الله بن المبارك (٦٨) .
وكما كان يحدث لله ، فقد كان لا يحدث إلا من علم أنه يطلب
الحديث لله ، فربما جاءه من يريد الحديث فيمتنع عن تحديثه إذا
ظن أنه يريد بذلك المباهاة والتفاخر ، ثم إذا حدثه حدثه بما
يكون له زجراً وواعظاً ، فعن عبيد بن جناد قال : عرضت
لابن المبارك فقلت : أمل عليّ . فقال : أقرأت القرآن ؟ قلت :
نعم قال : اقرأ ، فقرأت عشراً . فقال : هل علمت ماختلف
الناس فيه من الوقوف والابتداء ؟ قلت : أبصر الناس بالوقوف
والابتداء . فقال : « مدهامتان » ؟ قلت : آية . قال : فالألفاظ ؟
قلت : عبقرى ، وعباقرى ، ورفرف ، ورفارف ، وسررق ،
وسررق . قال : فالحديث سمعته من أحد غيري ؟ قلت : نعم .

(٦٧) انظر تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٢) .

(٦٨) انظر تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٠) .

قال : فحدثني • قال فحدثته في المناسك بأحاديث • فقال لي :
أحسنت • ثم قال : أخرج ألواحك • فأخرجت • ثم قال لي : من
أين أنت ؟ قلت من بغداد • قال : قم • قلت : هل رأيت إلا خيراً ؟
قال : قم • قلت : امرأة الآخر طالق ثلاثاً إن قمت أو تملي عليّ
وتقتيني وتغينيني - أقولها أربعاً - • قال : اكتب :

أيها القارئ الذي لبس الصو ف وأمسى يُعدّ في الزهاد
إلزم الثغر والتواضع فيه ليس بغداد منزل العبّاد
إن بغداد للملوك محلّ ومناخ للقارئ الصياد

قلت : من الناس ؟ قال : العلماء • قلت : من الملوك ؟ قال :
الزهاد • قلت : من الغوغاء ؟ قال : هرثمة وخزيمة بن خازم
- كلاهما من قواد الرشيد والمأمون - قلت : من السفلة ؟ قال :
من باع دينه بدنيا غيره^(٦٩) • وقد نفع الله الناس بعلم ابن المبارك ،
وبارك له فيه ، فأسلم ناس على يديه مثل ماسرجس وكان
نصرانياً^(٧٠) ، وتعلم منه خلق لا يحصون ، حيث كان يقصده طلاب

(٦٩) الاماع للقاضي عياض ٢٣٨ • والمحدث الفاصل
للرامهرمزي ٢٠٣ •

(٧٠) النجوم الزاهرة (٤ : ١١١) ، وهو الحسن بن عيسى
ابن ماسرجس وله ترجمة في التهذيب (٢ : ٣١٣ - ٣١٥) وفيها :
انه كان من أهل بيت الثروة والقدم في النصرانية ، ثم أسلم على
يدي ابن المبارك ، ورحل في العلم ولقي المشايخ ، وكان ديناً ورعاً
ثقة ، ولم يزل من عقبه بنيسابور فقهاء ومحدثون ، قال الحاكم :
←

العلم من الآفاق ، ويأتونه من كل فج عميق ، ينهلون من معينه الصافي ، ويتأدبون بأدبه العالي ، ويستفيدون من ورعه وتقواه ، فهذا أسلم بن سليمان يرحل من نيسابور إلى مرو ليكتب عن ابن المبارك ويترك وراءه زوجته الباكية وصيته الصغار ، ويسير نحوه يقطع المفاوز ويتجشم مشقات الطريق ، ليجلس كل يوم ساعة يعترف فيها من بحر علم ابن المبارك ، ويقول آيات ينشدها بين يديه :

خَلَقْتُ عَرَسِيَ يَوْمَ السَّيْرِ بَاكِيَةً يَا ابْنَ الْمُبَارِكِ تَبْكِينِي بَرْنَاتِ
 خَلَقْتَهَا سَحْرًا فِي النَّوْمِ لَمْ أَرَهَا فِي فِئَادِي مِنْهَا شَبَهَ كِيَاتِ
 أَهْلِي وَعَرَسِي وَصَبِيَانِي رَفَضْتَهُمْ وَسَرْتُ نَحْوَكُ فِي تِلْكَ الْمَفَازَاتِ
 أَخَافُ وَاللَّهِ - قَطَاعَ الطَّرِيقِ بِهَا وَمَأْمَنْتُ بِهَا مِنْ لَدَغِ حَيَّاتِ
 مَسْتَوْفَزَاتِ بِهَا رَقَشَ مَشْوَهَةٌ أَخَافُ صَوْلْتَهَا فِي كُلِّ سَاعَاتِي

سمعت ابا علي الحافظ يحكي عن شيوخه ان ابن المبارك كان قد نزل مرة رأس سكة عيسى ، وكان الحسن بن عيسى يركب فيجتاز به وهو في المجلس ، وكان الحسن من احسن الشباب وجهاً ، فسأل عنه ابن المبارك فقيل : إنه نصراني ، فقال : اللهم ارزقه الاسلام ، فاستجاب الله دعوته فيه .. قال ابو بكر بن المؤمل بن الحسن بن عيسى : أنفق جدي في حجه الأخيرة ثلاثمائة ألف درهم .. التهذيب (٢ : ٣١٤) ، فكانه كان على مذهب شيخه ابن المبارك في الإنفاق والجود .

اجلس لناكل يوم ساعة بكرة إن خفّ ذاك وإلا بالعشيّاتِ
يا أهل مروٍ أعينونا بكفكمُ عنا وإلا رميناكم بأبياتِ
لا تضجرونا فإننا معشر صُبْر

وليس نرجو سوى رب السموات (٧١)

وقد قام ابن المبارك بحق العلم ، وأدّى أماته إلى الناس ،
وجهد في تعليمهم وحثهم على طلب العلم ؛ وأنفق المال الكثير على
طلاب الحديث تشجيعاً لنشر العلم وبثّه في أمة محمد صلى الله
عليه وسلم ؛ وكان يقول : لا أعلم بعد النبوة أفضل من بثّ
العلم (٧٢) . وكان يقول : عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه
نفسه إلى مكّمة ! (٧٣) وقد سئل مرة : من الناس ؟ فقال : العلماء .
فلم يجعل غير العالم من الناس ؛ لأن العلم هو الخاصية التي
يتميز بها الإنسان عن سائر البهائم ، وهو لم يخلق إلا للعلم (٧٤) .

وكان يحضّر الناس جميعاً على طلب العلم عالمهم وجاهلهم ،
لأن العالم متى انقطع عن طلب العلم فإنه لا بد سيسري إلى علمه
النقصان ، وسيقضي عليه النسيان . وكان يقول : لا يزال المرء

(٧١) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٥ .

(٧٢) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٠) .

(٧٣) إحياء علوم الدين (١ : ٩) .

(٧٤) المرجع السابق (١ : ٧) .

علماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل (٧٥) . وكان يرى العلم عبادة لازمة ويقول : إذ تعلم أحدكم من القرآن ما يقيم به صلاته ، فليشتغل بالعلم فإن به تعرف معاني القرآن (٧٦) . وسأله رجل فقال : يا أبا عبد الرحمن في أي شيء أجعل فضل يومي ؟ في تعلم القرآن أو في طلب العلم ؟ فقال : هل تقرأ من القرآن ما تقيم به صلاتك ؟ قال : نعم . قال : فاجعله في طلب العلم الذي يعرف به القرآن (٧٧) . وذلك لأن الاشتغال بمعنى القرآن المستفاد من التفسير والحديث والفقه أفضل من مجرد تلاوته وكثرة قراءته .

هكذا كان يحض الناس على طلب العلم مبيناً لهم فضل العلم والعلماء ، ثم لا يفتأ هو عن نشر العلم وتعليمه للناس ، حتى أصبح نشر العلم راحة نفسه وغذاء روحه وحاجة من حاجاته ولذة من لذائذه ، وقد سبقت آياته التي يقول في أولها :

ما لذتي إلا روايةً مسندٍ قد قيدت بفصاحة الألفاظ

حدث أحمد بن أبي الحواري قال : سمعت أبا أسامة يقول : مررت بعبد الله بن المبارك بطرسوس وهو يحدث ، فقلت :

(٧٥) إحياء علوم الدين (١ : ٥٩) .

(٧٦) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

(٧٧) حلية الأولياء (٨ : ١٦٥) .

يا أبا عبد الرحمن ، إني لأنكر هذه الأبواب والتصنيف الذي
وضعتوه ، ما هكذا أدركنا المشيخة ! قال : فأضرب عن
الحديث نحواً من عشرين يوماً . ثم مرت به وقد احتوشوه (٧٨)
وهو يحدث ، فسلمت عليه فقال : يا أبا أسامة شهوة الحديث (٧٩) .

وكان لا يألو جهداً ولا يدخر وسعاً في تعليم الناس ونشر
حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتحمل المشقة الشديدة
في سبيل ذلك ، وربما وقف الساعات الطوال في البرد الشديد
وفي الليلة المظلمة ، يعلم العلم ويذاكر في الحديث . قال عبد الله
الخراساني : غدوت أنا وصاحب لي إلى عبد الله بن المبارك في
يوم شديد البرد ، فاستأذنا فخرج إلينا ، فقال : جئتم من موضع
كذا هذه الساعة ؟ فقعد معنا ، فظننا أنه قعد مقدار ما جئنا من
موضعنا حتى بلغناه ليصيبه من البرد كما أصابنا (٨٠) !! فاظنر إلى
هذا اللطف الرفيع ، وإلى هذا الحب لنشر العلم ، والتضحية لتعليم
الناس ومذاكرتهم في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .
واظنر إلى ما رواه علي بن الحسن بن شقيق ، ثم اكتف به دليلاً
على شغف ابن المبارك بنشر العلم ، قال : قمت مع ابن المبارك

(٧٨) احتوشوه : جعلوه وسطهم .

(٧٩) حلية الاولياء (٨ : ١٦٥) .

(٨٠) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٨ .

ليلة باردة ليخرج من المسجد - بعد العشاء - فذاكرني عند
الباب بحديث وذاكرته ، فما زال يذاكرني حتى جاء المؤذن
فأذن للفجر (٨١) .

وكانت للعلم في نفسه هيبة ، يوقره ويحترمه لأنه عبادة من
جملة العبادات ، ولأنه ميراث الأنبياء ، فهو أرفع من أن يبتذل .
قال بشر بن الحارث الحافي الزاهد المشهور : سألت رجل ابن المبارك
عن حديث وهو يمشي ، فقال : ليس هذا من توقير العلم . قال
بشر : فاستحسنته جداً (٨٢) .

وكان وهو يعلم الناس وينصحهم ، ويأمرهم بالمعروف
وينهاهم عن المنكر ، يلتزم الأدب في تعليمه ، ويستعمل اللطف
في نصحه .

حدث محمد بن حميد قال : عطس رجل عند ابن المبارك -
ولم يحمد الله تعالى - فقال له ابن المبارك : إيش يقول الرجل
إذا عطس ؟ قال : يقول : الحمد لله ، فقال ابن المبارك : يرحمك
الله . (٨٣) واغتاب رجل من أهل مجلسه شخصاً ، فقال : إن أردتم

(٨١) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) .

(٨٢) حلية الأولياء (٨ : ١٦٦) .

(٨٣) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٥) .

أن تغتابوا اغتابوا أبويكم لئلا يرد أجر عملكم إلى الأجنبي بل إليهما (٨٤) . وهذا فيما أرى من أبداع ما يقال لمغتاب ليكف عن الغيبة .

وكان يقول : لو كنت مغتاباً أحداً لا غتبت والدي لأنهما أحق بحسناتي من غيرهما (٨٥) .

ومن تمام لطفه ، وكمال ذوقه : أنه قال مرة : التوبة من الغيبة أن تستغفر لمن اغتبتَه . فقال له سفيان بن عيينة : بل تستغفره مما قلت فيه . فقال ابن المبارك : لا تؤذ مرتين (٨٦) .

هكذا كان ابن المبارك الداعية إلى الله ، والناشر للعلم ، والمضحّي براحته بعد أن ضحى بنفسه وماله في سبيل الله . ينشر العلم بين الناس ، وينصح الأمة ويرشدها إلى آداب الاسلام وتعاليمه . وقد عرف الناس منه ذلك فأحبوه ، وقدروا منه ذلك حتى قال فيه ابن مهدي : ما رأيت رجلاً أعلم بالحديث من سفيان الثوري . ولا أحسن عقلاً من مالك . ولا أقشف من شعبة . ولا أنصح لهذه الأمة من عبد الله بن المبارك (٨٧) .

(٨٤) كنوز الاولياء - مخطوط - ص ٨٧

(٨٥) تنبيه المفترين . ١٣٠ .

(٨٦) بهجة المجالس ١/٣٩٨ .

(٨٧) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٠) وتهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٥) .

إِبَاؤُهُ وَعِزَّةُ نَفْسِهِ

كان ابن المبارك رضي الله عنه في إِبَاؤِهِ وعِزَّةِ نَفْسِهِ ملكاً فوق الملوك . وذلك لأنه أعز العلم وأخلص فيه ، وصانه عن أن يكون بضاعة للكسب والتجارة ، وعظَّم العلمَ فعظَّمه ، وصانه فصانه . وما أصدق قول الجرجاني في هذا المعنى :

ولو أنَّ أهلَ العلمِ صانوه صانهم ولو عظَّموه في النفوس لعظما ولكنَّ أهانوه فهانوا ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهَّما

عظَّم العلمَ وأكرمه ، فلم يدنسه على أبواب السلاطين وذوي الجاه ، وابتغى به وجه الله ونعيم الآخرة ، ولم يتغ به متاع الدنيا الزائل كما يفعل علماء السوء وتجار الدين في كل زمن . وكان كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين من كلامه :

وهل بدَّلَ الدينَ إلا الملوكُ وأحبار سوءٍ ورهبانها
لقد رَسَعَ القومُ في جيفةٍ بينَ لذي العلمِ إقَاتانها (٨٨)

وكان وما زال مصاب الدين من أمراء السوء وعلماء السوء . ولذلك كان ابن المبارك يضيق بهم ، ويتعد عنهم ، ويصب عليهم

(٨٨) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) وكان ابن المبارك أخذ هذا المعنى من قول الخليفة الراشد سيدنا عمر الذي رواه له الدارمي في أول « سننه » : « يهدم الاسلام : زلة العالم ، وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلين » .

جام غضبه • وقد قيل له مرة : من سقّلة الناس ؟ فقال : الذين
يتعيشون بدينهم (٨٩) وسئل : من السقّلة ؟ فقال : الذين يأكلون
الدنيا بالدين (٩٠) ، وكان يجب العزة للعلم والعلماء ، ويكره أن
تلحق العلم مهانة ولو صغرت • قال أبو داود الطيالسي : قلت
لعبد الله بن المبارك إنا نقرأ بهذه الألقان؟ فقال: •• إنا أدركنا القراء
وهم يؤثّون تُسمع قراءتهم ، وأتمّ تدعون اليوم كما يدعى
المنغشون (٩١) • وبلغه عن إسماعيل بن عليّة - أحد أئمة الحديث
في عصره - أنه قد ولي الصدقات ، فكتب إليه ابن المبارك يعتب
عليه ويلومه على ما فعل :

يا جاعل العلم له بازيًا يصطاد أموال السلاطينِ
احتلتَ للدنيا ولذاتها بحيلة تذهب بالدينِ
فصرتَ مجنوناً بها بعدما كنت دواءً للمجانينِ
أين رواياتك فيما مضى عن ابن عونٍ وابن سيرينِ
أين رواياتك في سردها في ترك أبواب السلاطينِ
إن قلتَ أكرهتُ فما هكذا زلّ حمار الشيخ في الطينِ

(٨٩) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) •

(٩٠) إحياء علوم الدين (١ : ٧) •

(٩١) حلية الأولياء (٨ : ١٦٩) •

فلما بلغت هذه الآيات ابنَ عليَّةَ بكى واستغفى ، وأنشأ يقول :

أفٍ لدنيا أبت تواتيني إلا بنقضي لها عرى ديني
عيني لحيني ضمير مقلتها تطلب ماساءها لترضييني (٩٢)

وقد سبق من شعره في الذين يبيعون دينهم بدنياهم ويتاجرون بعلمهم ، حتى كان لا يسمح لأحد أن يصحبه ما لم تكن له صناعة يتكسب منها ، ليكون العلم لله لا لكسب المال وجمع الثروة . وإليك ما يرويه أحد أصحابه :

قال الحسن بن الربيع : قال لي ابن المبارك : ما حرفتك ؟ قلت أنا بوراني . قال : وما بوراني ؟ قلت : لي غلمان يصنعون البواري . قال : لو لم تكن لك صناعة ما صحبتني (٩٣) ؛ وذلك لأنه كان يرى أن البعد عن الظلمة ، والنجاة من الرياء ، وصون ماء الوجه ، لا يكون إلا لمن ملك من الكفاية المالية ما يسد به حاجته ، للترفع عن ذل السؤال ، ولذلك ورد أنه لما فقدت له بضاعة بكى وقال : هي قوام ديني (٩٤) .

وكان رضي الله عنه لا يقبل عطايا السلاطين ، وإذا جاءته هدية من أحد إخوانه قبلها وأثاب عليها، حدث أبو علي الروذباري

(٩٢) طبقات الشافعية الكبرى (١ : ١٤٩) .

(٩٣) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٩ .

(٩٤) صيد الخاطر الفقرة ٢٩٥ .

قال : كان أربعة زمانهم واحد : كان أحدهم لا يقبل من السلطان ولا من الإخوان يوسف بن أسباط • وآخر كان يقبل من الإخوان والسلطان جميعاً أبو إسحاق الفزاري • والثالث كان يأخذ من الإخوان ولا يأخذ من السلطان وهو عبد الله بن المبارك ، يأخذ من الإخوان ويكافئ عليه • والرابع كان يأخذ من السلطان ولا يأخذ من الإخوان وهو مخلّد بن الحسين (٩٥) • وكان إذا بلغه عن أحد معارفه أنه قبل عطية السلطان نصحه أن ينفقها في وجوه الخير وأن لا يترك منها درهماً ، ولو كان الآخذ أكبر العلماء في عصره ، فقد أعطى الرشيد أبا إسحاق الفزاري ثلاثة آلاف دينار ، فلقبه ابن المبارك فقال له : من أين أقبلت ؟ قال : من عند أمير المؤمنين ، وقد أعطاني هذه الدنانير وأنا عنها غني ، قال : فإن كان في نفسك منها شيء فتصدق بها ، فما خرج من سوق الرافقة (٩٦) حتى تصدق بها كلها (٩٧) •

وكان بعيداً كل البعد عن السلاطين ، لا يقترب منهم كما أنه لا يستخف بهم • وكان يقول : على العاقل أن لا يستخف بثلاثة : العلماء ، والسلطان ، والإخوان (٩٨) ، وكان متبعاً في ذلك وصية

(٩٥) معجم الأدباء (١ : ٢١٤) •

(٩٦) الرافقة : مدينة الرقة بناها أبو جعفر المنصور •

(٩٧) معجم الأدباء (١ : ٢١٥) •

(٩٨) طبقات الشعراني (١ : ٦٠) •

أستأذه سفيان الثوري ، فعن عبد الله بن المبارك قال : كتب إليّ
سفيان بن سعيد : « إلى عبد الله بن المبارك ، أما بعد : فانشر في
الناس مما علمك الله وإياك والسلطان (٩٩) » .

وقد كان كثير من السلف يهون عن الدخول على الملوك
حتى لمن أراد أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر أيضاً ، ومن
نهى عن ذلك عمر بن عبد العزيز وابن المبارك والثوري وغيرهم
من الأئمة . وقال ابن المبارك : ليس الأمر الناهي عندنا من دخل
عليهم فأمرهم ونهاهم ، إنما الأمر الناهي من اعتزلهم .

ثم علل ابن رجب ذلك فقال : وسبب هذا ما يخشى من فتنة
الدخول عليهم ، فإن النفس قد تخيل للإنسان إذا كان بعيداً عنهم
أنه يأمرهم وينهاهم ويغلظ عليهم ، فإذا شاهدتهم قريباً مالت
النفس إليهم (١٠٠) .

وقد بلغ بابن المبارك البعد عن السلاطين والأمراء أنه ربما
جاءه الأمير إلى بابهِ يسأله عن الحديث ، فيمتنع عن تحديثه
إكراماً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحدث به من
لا يطلبه لوجه الله تعالى . فعن أحمد بن أبي الحواري قال :

(٩٩) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٣ .

(١٠٠) شرح حديث « ما ذُبان جائعان . . » لابن رجب
الحنبلي ص ١٢ - ١٣ من المجلد الثاني من « مجموعة الرسائل
المنيرية » .

حدثني بعض أصحابنا قال : جاء عبد الله بن أبي العباس الطرسوسي - وكان والياً بمر - إلى منزل عبد الله بن المبارك بالليل ومعه كاتبه والدواة والقرطاس ، فسأله عن حديث فأبى أن يحدثه ، ثم سأله عن حديث فأبى أن يحدثه - ثلاث مرات - فقال لكاتبه : اطوِ قرطاسك ما أرى أبا عبد الرحمن يرانا أهلاً أن يحدثنا ، فلما قام يركب مشى معه ابن المبارك إلى باب الدار ، فقال له : يا أبا عبد الرحمن ، لِمَ لَمْ تَرْنَا أَهْلًا أن تحدثنا وتمشي معنا ؟ فقال : إني أحببت أن أذل لك بدني ولا أذل لك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٠١) .

نعم يمنع الحديث عن الأمير إجلالاً لحديث الرسول عليه الصلاة والسلام أن يحدث به من ينبغي من ذلك الشهرة والجاه وحسن السمعة ، ولم يمنع من ذلك خوف أو رهبة ، فما كان للخوف أن يجد سبيلاً إلى نفسه وهو الذي باع الله نفسه وماله وما ملكت يده ، ولذلك كان موقفه من السلاطين دائماً موقف الأبي العزيز ، والحر الكريم ، والجريء الشجاع الذي لا يعبأ بالموت ولا يحسب لغير أحكام الله ودينه حساباً في ذهنه ، ولا يجد لغير الله رهبة في قلبه .

(١٠١) حلية الأولياء (٨ : ١٦٩) وذكرها الذهبي في تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) .

ولما قدم الرشيد « عين زربة » طلب ابن المبارك ، قال أبو سليمان : فذكرت وقلت : إن ابن المبارك رجل خراساني لا آمن أن يجيب أمير المؤمنين بما يكره فيقتله ، فأكون قد أهلكت أمير المؤمنين وأهلكت ابن المبارك وأهلكت نفسي ، فأمسك الرشيد عن السؤال عنه ثم عاود ، فقلت : يا أمير المؤمنين ابن المبارك جلف غليظ الطباع ، فأمسك الرشيد ، ثم ظهر ابن المبارك بعد ثلاث ف قيل له : تجنبت ثم ظهرت ؟ قال : أردت نفسي على الموت فأبت فلما أجابتنني ظهرت (١٠٢) .

وقد روي أن رجلاً خياطاً قال لابن المبارك :

أنا أخيط ثياب السلاطين ، فهل تخاف أن أكون من أعوان الظلمة ؟ قال : لا ، إنما أعوان الظلمة من يبيعك الخيط والإبرة ، أما أنت فمن الظلمة أنفسهم (١٠٣) .

وقد بلغ به البعد عن السلاطين ، والتعفف عن عطاياهم ، أنه لما حضرته الوفاة انتهى سويقاً ، فلم يوجد إلا عند رجل يعمل من أعمال السلطان ، فعرض عليه فلم يقبل ومات ولم يشرب (١٠٤) .

(١٠٢) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٦) .

(١٠٣) إحياء علوم الدين (٢ : ١٣) وتنسب هذه القصة لغيره كذلك .

(١٠٤) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٢٩) .

هكذا كان رضي الله عنه في إباءه وعزة نفسه ، يترفع عن
 عطاء الحكام وهباتهم ، ويجل العلم ويربأ به عن أن يكون سُلماً
 للوصول إلى الجاه والغنى ، ويقول كلمة الحق ولا يخشى في الله
 لومة لائم ، وفي مثل ابن المبارك يصدق قول الشاعر :

حَلَفَ الزمانُ لِيَأْتِيَنَّ بِمِثْلِهِ حنثٌ يمينك يا زمانُ فكفّرْ

تواضعه

لعلك تتصور ابن المبارك رجلاً متعالياً على الناس ، يختال
 في مشيته ، يكاد يخرق الأرض أو يبلغ الجبال طولاً ، بعد ما عرفت
 من تشعب نواحي العظمة فيه : العظمة في العلم ، والعظمة في المال ،
 والعظمة في الجود ، والعظمة في البطولة . . . ولكن ما أظنك
 تتصور هذا التصور بعد أن عرفت أنه كان رجلاً ربانياً ، يستعمل
 كل ذلك لله كما يفعل طلاب الآخرة لا كما يفعل عبيد الدنيا
 وعشاق زخارفها .

فقد كان متواضعاً للناس لا يرى في نفسه الفضل على أحد ،
 ولا يرى للمال الذي بين يديه قيمة ، فالغنى لا يرفع الأغنياء ،
 والفقير لا يخفض الفقراء ، وهو القائل : التعزز على الأغنياء
 تواضع (١٠٥) . والقائل : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من

(١٠٥) تنبيه المفتريين ١٩٤ .

هو دونك في نعمة الدنيا ، حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل . وأن ترفع نفسك عن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنيه فضل (١٠٦) . وقيل له : ما التواضع ؟ فقال : التكبر على الأغنياء (١٠٧) . وما كان ابن المبارك ليأمر الناس بالتكبر وهو يفسر التواضع ، ولكن التكبر هنا على الأغنياء حتى يعلموا أن أموالهم لا ترفعهم في أعين الناس شيئاً ، لئلا يحتقروا من هو دونهم في نعمة الدنيا ومتاعها فيكونون متكبرين . فقد سئل ابن المبارك عن الكبر فقال : أن تزدرى الناس (١٠٨) .

وكان متواضعاً في علمه ، فإنه رغم علمه الغزير وثقافته الفريدة ، فقد كان لا يرى أن ما عنده ليس عند غيره من الناس ، وكان يرى ذلك من العجب المحرم ، فقد سئل عن العجب فقال : أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك (١٠٩) . وكان لشدة تواضعه إذا بلغه عن أصحابه أنهم أضافوا إليه مسألة يرسل إليهم بكشطها بالسكين ، ويقول : من أنا حتى يكتب قولي ؟! (١١٠) ، وكان

١٠٦) إحياء علوم الدين (٣ : ٣٤٢) .

١٠٧) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٨٥ .

١٠٨) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٦) .

١٠٩) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٦) .

١١٠) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

بالكوفة يقرأ كتاب المناسك فانتهى إلى حديث فيه : « وفيه قال عبد الله . . . وبه نأخذ » فقال : من كتب هذا من قولي ؟ فقيل له : الكاتب الذي كتبه . فلم يزل يحكه بيده حتى دُرس . ثم قال : ومن أنا حتى يكتب قولي ؟ (١١١) . وسئل مسألة في المسجد الحرام فجعل يقول : مثلي يفتي في المسجد الحرام ؟ أو أنا أهل أن أفتي في المسجد الحرام ! (١١٢) .

أما تواضعه مع الله سبحانه وتعالى وشعوره بالتقصير والفقير أمامه فهذا أهم الأمور ، وما كان لأحد أن يتواضع مع الناس ثم لا يكون متواضعاً مع خالق الناس ورازقهم ، دعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال : أعطاك الله ما ترجوه ، فقال : إن الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة ؟ (١١٣) . وكان يعجبه قول مالك بن دينار : « لو أن منادياً ينادي بباب المسجد : ليخرج شركم رجلاً ، والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب إلا رجلاً بفضل قوة أو سعي » ولما بلغ ابن المبارك هذا القول قال : بهذا صار مالك مالكا (١١٤) . وكان رضي الله عنه لتواضعه إذا ذكر أخلاق من سلف ينشد :

(١١١) صفة الصفوة (٤ : ١١٠) ومعنى درس : زال اثره .

(١١٢) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٣ .

(١١٣) إحياء علوم الدين (٣ - ٣٤٣) .

(١١٤) إحياء علوم الدين (٣ : ٤٣) .

لا تعرضنّ بذكرنا مع ذكرهم

ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد (١١٥)

وكان يقول : أحب الصالحين ولست منهم وأبغض الطالحين
وأنا شر منهم (١١٦) ، ويشبه هذا قول الشافعي رضي الله عنه في
بيتين من الشعر :

أحب الصالحين ولست منهم لعلي أن أنالَ بهم شفاعته
وأكره من بضاعته المعاصي ولو كنا سواءً في البضاعة

وقد بلغ به تواضعه أنه كان يستحي أن يطلب من الله دخول
الجنة ، فقد خرج يوماً على أصحابه فقال : إني اجترأت البارحة
على الله ، سألته الجنة (١١٧) .

إلى هذا الحد بلغ تواضع ابن المبارك ، ولكن لا تظن أن
تواضعه كان ليقلل من مكاتته أو ليهوّنّه في أعين الناس ، فقد كان
يعرف قدر نفسه ويوصي الناس بذلك ، قيل له : أوصني فقال :
اعرف قدرك (١١٨) ، ولذلك كان هذا التواضع ينقلب شدة وصلابة
أمام السلاطين ، وترفعاً وسمواً على حطام الدنيا وعبيدها ، وقد

• (١١٥) فضل علم السلف على الخلف لابن رجب ص ١٩ .

• (١١٦) حلية الأولياء (٨ : ١٧٠) .

• (١١٧) إحياء علوم الدين (٤ : ١٨٥) .

• (١١٨) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٨٠ .

رأيت فيما سبق من عزة نفسه وإبائه ما يوضح لك كيفية تواضعه
رضي الله عنه وأرضاه .

حُسْنُ مُعَامَلَتِهِ

إن المعاملة الحسنة من الدين ، وإن أول ما يجب أن يتخلق
به الإنسان لمعاملة الناس حسن الخلق ، وفيه يقول الرسول صلى
الله عليه وسلم : « ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة
من حسن الخلق » (١١٩) ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول :
« إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً » (١٢٠) ، ولما سئل عن أكثر
ما يدخل الناس الجنة قال : « تقوى الله وحسن الخلق » (١٢١) .
وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم
خلقاً » (١٢٢) . ويقول : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة
الصائم القائم » (١٢٣) . وقد مدح الله تعالى رسوله الكريم في
كتابه بحسن الخلق بقوله : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ » (١٢٤) .

• (١١٩) رواه الترمذي .

• (١٢٠) متفق عليه .

• (١٢١) رواه الترمذي .

• (١٢٢) رواه الترمذي .

• (١٢٣) رواه أبو داود .

• (١٢٤) الآية ٤ من سورة القلم .

هذه مكانة حسن الخلق من الدين ، ولكن ترى ما هو حسن الخلق ؟ إن ابن المبارك رضي الله عنه وصف حسن الخلق فقال : هو بسط الوجه ، وبذل المعروف ، وكف الأذى (١٢٥) . وقيل له : أجمّل لنا حسن الخلق في كلمة ، فقال : ترك الغضب (١٢٦) . وهذه كلمات جامعة مقتبسة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد جاءه رجل فقال له : أوصني ، قال : « لا تغضب » فردد مراراً قال : « لا تغضب » (١٢٧) ، وقال له رجل : يا رسول الله ، دلني على عمل يدخلني الجنة . قال « لا تغضب » (١٢٨) .

لأجل هذا كان ابن المبارك مثلاً عالياً في حسن الأخلاق، وطيب المعاملة ، وحب الخير للمسلمين والنصح لهم جميعاً . فكان إذا ختم القرآن كان أكثر دعائه للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات (١٢٩) . وكان يحض الناس على التناصح ، فإذا سئل : أي الأعمال أفضل ؟ قال : النصح لله (١٣٠) . وكان يقول : ما بقي في زماننا أحد أعرف

• (١٢٥) سنن الترمذي (٦ : ٢١٤) .

• (١٢٦) إحياء علوم الدين (٣ : ١٦٦) .

• (١٢٧) رواه البخاري .

• (١٢٨) إحياء علوم الدين (٣ : ١٦٥) .

• (١٢٩) التبيان ص ٨٣ .

• (١٣٠) جامع العلوم والحكم ص ٧١ .

أنه يأخذ النصيحة بانسراح قلب (١٣١) ؛ لذلك كان على غاية اللطف في نصحه . وكان مع كرمه العريض يقبل هدية أصحابه ويثيب عليها زيادة في الملاطفة وتوثيقاً للمودة كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فعن عبدة بن سليمان قال : كنا مع ابن المبارك في المصيصة فأول ما جاء الليل أهديت إليه جاماً لباً على يد بني لي ، فقبل منه وصرّ في كفه ديناراً . ثم لقيته في السوق فقلت : يا أبا عبد الرحمن وجهت إليك . . . فقال : اسكت لا تتكلم بشيء . . . وكنت قد كتبت عنه قبل ذلك حديثاً كثيراً (١٣٢) .

وكان يجالس إخوانه ويلطفهم ولا يقصر في بذل المعروف إليهم ، وقد رأيت في كرمه أمثلة عالية من إكرامه لأصدقائه وغيرهم . وكان يقول : ألدّ الأشياء : مجالسة الإخوان ، والانقلاب إلى كفاية ، والمودة الدائمة في الله (١٣٣) ؛ وذلك لأن الإخوان عون على الدين ومسلاة للهموم ، ولكن بشرط أن تكون الأخوة في الله لأن ما يكون لغرض غير الله فإنه يزول بزوال ذلك الغرض ، والإخوان في الله قلائل حتى في عهد ابن المبارك ، فهو يقول :

(١٣١) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

(١٣٢) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٨ .

(١٣٣) إحياء علوم الدين (٢ : ١٨٧) .

ما أعياني شيء كما أعياني أني لا أجد أخاً في الله (١٣٤) ؛ فكيف في
زماننا هذا ؟!

وكان يجب إخوانه ويلطفهم ويحترمهم ويقول : من
استخف بالإخوان ذهب مروءته (١٣٥) .

قال عبيد بن جناد : ما رأيت أحداً مثل ابن المبارك ، إذا
ذكر أصحابه فخمهم يقول : وأين مثل فلان ؟ ثم يقول : الرفيع
من يرفعه الله بطاعته والوضيع من وضعه (١٣٦) ، وكان يحزن
لفرقتهم وإذا ودع شخصاً من أصحابه ينشد :
وهوّنَ وجدي أن فرقة بيننا فراق حياة لا فراق ممات (١٣٧)

وكان يحب الخير لمن يصاحبه ويجهد في إرشاده وهدايته ،
ويتألم ويأسف إذا لم يستطع أن يرشده سواء السبيل . صحب
رجلاً سيء الخلق في سفر ، فكان يحتمل منه ويداريه ، فلما
فارقه بكى ، فقيل له في ذلك فقال : بكيت رحمة له فارقه وخلقه
معه لم يفارقه (١٣٨) . ومن أمثلة معاملته الرائعة لإخوانه ما حدث

(١٣٤) حلية الاولياء (٨ : ١٦٨) .

(١٣٥) طبقات الشعراني (١ : ٦٠) .

(١٣٦) حلية الاولياء (٨ : ١٦٩) .

(١٣٧) طبقات الشعراني (١ : ٦٠) .

(١٣٨) إحياء علوم الدين (٣ : ٥٢) .

به أبو علي الروذباري قال : صحبتته في طريق مكة فلما دخلنا
البادية قال : تكون الأمير أم أكون أنا ؟ قلت : بل أنت ، قال :
فعليك بالسمع والطاعة ، فأخذ المخلاة ووضعها على عاتقه ، فقلت :
دعني أحمل ، فقال : أنا الأمير أم أنت ؟ قلت : أنت ، فمكثنا ذات
ليلة إذ أخذ المطر ، فأخذ الكساء فأظلني وترك نفسه إلى الصباح ،
فوددت أني مت ولم أقل كن أميراً ، فلما أردت الافتراق قال :
يا أبا علي إذا صحبت إنساناً فاصحبه هكذا (١٣٩) .

ومن لطيف آرائه التي تدل على ذوقه وحسن معاملته
لجيرانه ولطفه معهم ، ما أشار به علي الحسن بن عيسى قال :
سألت عبد الله بن المبارك قلت : الرجل يأتيني فيشكو غلامي
أنه أتى إليه أمراً والغلام ينكر ذلك ، فأكره أن أضربه ولعله
بريء ، وأكره أن أدعه فيجد عليّ جاري ، فكيف أصنع ؟ .

قال : إن غلامك لعله أن يحدث حدثاً يستوجب فيه الأدب ،
فاحفظ عليه . فإذا شكاه جارك فأدبه على ذلك الحدث ، فتكون
قد أرضيت جارك ، وأدبته على حدثه (١٤٠) .

ولم تكن هذه المعاملة الطيبة قاصرة على أصحابه وإخوانه ،

(١٣٩) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٢٩) .

(١٤٠) مكارم الاخلاق للخرائطي ص ٤٠ .

فقد كان قلب ابن المبارك أوسع من ذلك ، لقد كان يرى أن المعروف يجب أن يبذل للناس جميعاً ، وهو القائل :

يد المعروف غنم "حيث كانت" تحمّلها شكور" أو كفور" ففي شكر الشكور لها جزاء" وعند الله ما كفر الكفور" (١٤١)

بل لم تكن قاصرة على المسلمين وحدهم دون غيرهم ، فالخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله ، وقد كان يتمتع بطيب هذه المعاملة كل من عرف ابن المبارك حتى ولو كان يهودياً لا يدين بدين الحق ، وإليك هذا المثل الرائع من طيب معاملته لجاره اليهودي ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

قال الخوارزمي في مفيد العلوم : كان لعبد الله بن المبارك جار يهودي ، فأراد أن يبيع داره فقيل له : بكم تبيع ؟ قال : بألفين ، فقيل له : لا تساوي إلا ألفاً . قال : صدقتم ولكن ألف للدار وألف لجوار عبد الله ، فأخبر ابن المبارك بذلك فدعاه فأعطاه ثمن الدار وقال : لا تبعها (١٤٢) .

فكم يا ترى لقي هذا اليهودي من طيب المعاملة وحسن الخلق من ابن المبارك ، مما جعله يرفع سعر الدار إلى الضعف

(١٤١) بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر (٣٠٧:١) .

(١٤٢) القلائد من فرائد الفوائد ص ١٣٣ . وقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يقول : يزداد في ثمن الدار إذا كان جاراها طلق الوجه ، حلو اللسان . كما في « تنبيه المغترين » ص ٧١ .

بسبب جوارها لعبد الله بن المبارك؟! • انظر إلى هذه المعاملة
وتدبر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير الجيران
عند الله خيرهم لجاره (١٤٣) » •

وَرَعُهُ

لقد رأينا من ورع والد ابن المبارك الدقيق في معاملته
لصاحب البستان ما يحملنا على القول بأن ابن المبارك تأثر
بأبيه أولاً في دقة الورع والخوف، حتى قال عنه ابن خلكان (١٤٤):
« وكان شديد الورع » •

وكان لأساتذته الذين صحبهم أكبر الأثر في ذلك ، فقد
كان كل واحد منهم مثلاً في ورعه وبعده عن الشبهات ، من
أمثال : الثوري ، ومالك ، وأبي حنيفة ، وغيرهم • وقد كان
وهيب بن الورد أكثر أساتذته نفعا له في هذا المجال ، وذلك
لأنه كان من العبّاد الأتقياء وكانت له أحاديث ومواعظ وزهد ،
وكان سفيان الثوري إذا حدث الناس وفرغ من حديثهم قال :
قوموا بنا إلى الطيب — يعني وهيباً — (١٤٥) • وقد روى عنه ابن

(١٤٣) رواه الترمذي وحسنه •

(١٤٤) وفيات الأعيان (٢ : ٢٣٧) •

(١٤٥) تهذيب الأسماء واللغات (٢ : ١٤٩) •

المبارك كثيراً من الأحاديث ، وتأثر بمواعظه ورقائقه ، وكان يقول عنه : « كان يتكلم ودموعه تقطر (١٤٦) » . وكان يذكر ارتفاعه به وتأثره بأحاديثه ، ويحكي عنه من عجب الزهد والورع والتقشف ما يدهش العقل ، من ذلك قوله : ما جلست إلى أحد كان أنفع لي من مجالسة وهيب ، وكان لا يأكل الفواكه ، وإذا انقضت السنة وذهبت الفواكه يكشف عن بطنه وينظر إليها ويقول : يا وهيب ما أرى بك بأساً ، ما أرى تركك للفواكه شرك شيئاً (١٤٧) .

وقد حفظ لنا التاريخ من ورع ابن المبارك الأعاجيب ، فمن أقواله في الورع أنه كان يقول : لأن أردت درهماً من شبهة أحب إليّ من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف حتى بلغ ستمائة ألف (١٤٨) ، ويقول : لأن أتصدق بدرهم من حلال أحبّ إليّ من أن أتصدق بستين درهماً من شبهة (١٤٩) ، وكان يقول : الأمر ما كان عليه داود الطائي (١٥٠) . وداود الطائي هذا كان من العشرة الذين

• (١٤٦) خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٦٠ .

• (١٤٧) الورع ص ٥١ .

• (١٤٨) جامع العلوم والحكم ص ٨٣ .

• (١٤٩) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٨٠ .

• (١٥٠) الورع ص ٥ .

لا يدخلون بطونهم إلا ما يعرفون أنه من الحلال وإلا استفوا
التراب (١٥١) .

هذه أقوال ابن المبارك في الورع ، وسنرى في أفعاله أنه
لم يكن من الذين يقولون مالا يفعلون ، ويأمرون ولا يأمرون ،
وينهون ولا ينتهون . وقبل أن نروي شيئاً من ورعه نسوق كلمة
تدل على نظرته إلى الورع ، وكيف يكون المسلم ورعاً ، فهو
يقول : لو أن رجلاً اتقى مائة شيء ، ولم يتورع عن شيء واحد
لم يكن ورعاً ، ومن كان فيه خلة من الجهل كان من الجاهلين ،
أما سمعت الله تعالى قال لنوح عليه السلام : « قال : إن ابني من
أهلي » فقال الله : « إني أعظك أن تكون من الجاهلين (١٥٢) »
هذا هو الانسان الورع في نظر ابن المبارك ، وهكذا كان ورعه
هو ، وقد حكي من ورعه أنه كان إذا اشتهى شيئاً لم يأكله
حتى يشهد بعض أصحابه فيأكله معهم ، وكان إذا اشتهى شيئاً
دعا ضيفاً له ليأكل معه ، وكان يذكر عن الأوزاعي أنه قال : ثلاثة
لا حساب عليه في مطعمهم : المتسحر ، والصائم حين يفطر ،
وطعام الضيف (١٥٣) .

(١٥١) الورع ص ٧ .

(١٥٢) حلية الاولياء (٨ : ١٦٧) .

(١٥٣) جامع العلوم والحكم ص ١٧ .

وكان لا يأكل من كسب غلامه إذا باع شيئاً وصلى على النبي
صلى الله عليه وسلم عند بيعه • فكان يقول : إنك أطريت عليه
بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومدحته بها ،
حتى اشتراه الناس (١٥٤) •

وكان لا يصلي بمرور في المسجد الجامع إلا الجمعة لا يرى
أن يتطوع فيه بسبب أن أبا مسلم كان اغتصب منه شيئاً (١٥٥) •

وكان له أخوات ، وكان لأبيه المبارك بستان بمرور ، فنحله
عبد الله ، فلما كبر عبد الله وترعرع وجالس أهل العلم وطلب
العلم ، جاء إلى أخواته فقال لهن : إن أبانا كان صنع أمراً لم
ينبغي له أن يصنعه ، نحلني هذا البستان دونكن ، وليس أحد
أحق أن يخرج أباه مما جعل فيه مني ، فقد رددت هذا البستان
وجعلته ميراثاً بيننا على كتاب الله عز وجل ؛ فحللوا أبانا مما
كان دخل فيه ، فقلن له : أنت في حلّ وأبونا في حلّ وهو لك
كما كان والدنا فحللك ، قال : لا ، ولكنه ميراث بيننا فحللوه ،
فحللوه ، فتزوج عبد الله فولد له ابن ، فنحل الأخوات ابن
عبد الله حصصهن من البستان ، فمات الغلام فورثه عبد الله ، فرجع

• (١٥٤) تنبيه المفترين ص ١٢١

• (١٥٥) الورع ص ١٧

إليه البستان كما كان أبوه نعله (١٥٦) . وفي هذا عظة وعبرة لمن تدبر ، فإن الرزق لا ينقص إذا عرف الانسان حق الله فيه وتورّع عما فيه من شبهات .

وكان ابن المبارك لا يبالي ما بذل من الجهد لينجو يوم القيامة من عذاب الله ، ومن عجيب ورعه أنه استعار قلماً من رجل بأرض الشام ، فنسيه وذهب عليه أن يرده إلى صاحبه ، فلما قدم بلده مرو نظر فإذا القلم معه ، فرجع إلى أرض الشام حتى رده على صاحبه (١٥٧) . وقال له رجل : احمل لي هذا الكتاب معك لتوصله ، فقال : حتى أستامر الجمال فإني قد اكرت .

فاظفر كيف تورّع من استصحاب كتاب لا وزن له . وهو طريق الحزم في الورع ، فإنه إذا فتح باب القليل انجر إلى الكثير يسيراً يسيراً (١٥٨) .

وروي أنه خرج إلى العراء فنزل عند نهر ، ونصب رمحه وربط فرسه ، فتوضأ وشرع في الصلاة ، فلما سلّم رأى أن فرسه انفلت يأكل الزرع ، فقال : إنه أكل حراماً فلا ينبغي أن

(١٥٦) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٨٧ .

(١٥٧) تاريخ بغداد (١ : ١٦٧) وتهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٧) .

(١٥٨) إحياء علوم الدين (١ : ٢٣٨) .

يُغزى عليه ، وتركه لصاحب الزرع ، واشترى فرساً أخرى ومضى
لسبيله (١٥٩) .

هذا ورع ابن المبارك ، ورع الخائف الوَجَل من يوم
الحساب ، الذي لا يبالي ما خسر من دنياه إذا سلمت له آخرته
وسلم له دينه ، وهذا ما عناه رسول الله صلى الله عليه وسلم
بقوله : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس
به حذراً مما به بأس (١٦٠) » . وقد كان الإمام أحمد بن حنبل
إذا ذكر ورع ابن المبارك قال : إنما رفعه الله بمثل هذا (١٦١) .

وكان ابراهيم بن الشماس يقول : لو تمنيت كنت أتمنى
عقل ابن المبارك وورعه (١٦٢) .

عِبَادَتُهُ وَتَقْوَاهُ

أما عن عبادته وتقواه فذلك حديث يطول ، فقد كان رضي
الله عنه رجلاً ربانياً ، نظر إلى الدنيا كطريق إلى الآخرة ، فصار
يتزود منها ، لا يدع لحظة تفوته دون أن يجعل منها طاعة لله ،

(١٥٩) كنوز الأولياء - مخطوط - ص ١٨٦ .

(١٦٠) رواه الترمذي وحسنه .

(١٦١) الورع ص ٥ .

(١٦٢) تاريخ بغداد (١٣ : ٤٧٣) .

وعبادة خالصة له ، فقد عَبَدَ اللهُ في ماله فأنفقه في سبيل الله ،
وعَبَدَ اللهُ في جسمه فجاهد لإعلاء كلمة الله ، وَعَبَدَ اللهُ في علمه
فشره بين الناس ابتغاء مرضاة الله ، وَعَبَدَ اللهُ في نهاره فصامه ،
وعَبَدَ اللهُ في ليله فقامه ، وهو مع كل ذلك يخالط الناس
ويعلمهم ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وينصحهم في
دينهم . ورغم كل هذه الأعمال التي يقدمها ابتغاء ثواب الله
وثنماً لجنة عرضها السموات والأرض ، فقد كان يقضي وقته
خائفاً وجللاً محبباً لله تعالى ، يبكي ويذرف الدموع ، ويكثر من
الصلاة وتلاوة القرآن وذكر الله عز وجل . قال عبدة بن
سليمان : كان ابن المبارك إذا صلى العصر أتى مسجد المصيصة
فاستقبل القبلة يذكر الله ، ولم يكلم أحداً حتى تغرب الشمس (١٦٣) ،
وقال نعيم بن حماد : ما رأيت أكبر اجتهاداً منه في العبادة (١٦٤) ،
وقد كان رضي الله عنه يقوم الليل كله بالصلاة وتلاوة آيات الله .
قال علي بن الحسن بن شقيق : لم أرَ أحداً من الناس أقرأ من
ابن المبارك ، ولا أحسن قراءة ولا أكثر صلاة منه ، كان يصلي
الليل كله في السفر وغيره ، وكان يرتل القرآن ، وإنما ترك النوم
في المحمل لأنه كان يصلي وكان الناس لا يدرون (١٦٥) .

• (١٦٣) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٩

• (١٦٤) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٥) .

• (١٦٥) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٦ ، والمحمل : الهودج ،

وهو بيت من خشب يجعل لراكب الإبل .

وقال له رجل : قرأت البارحة القرآن في ركعة ، فقال : لكنني
أعرف رجلاً لم يزل البارحة يكرر « ألهاكم التكاثر » إلى الصباح ،
ماقدر أن يتجاوزها^(١٦٦) - وذلك لأنه كان يتدبر معاني القرآن
ويتفهمها - .

وكان يقوم الليل بطوله، ويصوم النهار في الحر الشديد سواء
في السفر والحضر، وحتى لو كان في الثغور للحرب والجهاد، وكان
يسرُّ العبادَة ويكره أن يطلع عليها الناس حتى ولو كانوا أصحابه
وذويه . قال قطن بن سعيد : ما أفطر ابن المبارك قط ولا رثي
صائماً قط^(١٦٧) . وذلك لتكون النية خالصة لله ، وأبعد عن الرياء
وحب السمعة ، وقد كان رحمه الله تعالى يقول : إن الرجل
ليطوف بالكعبة وهو يرائي أهل خراسان فقيل له : وكيف ذلك ؟
قال : يجب أن يقول فيه أهل خراسان : إن فلاناً مجاور بمكة على
طواف وسعي فهنيئاً له^(١٦٨) . ولما قدم من البصرة إلى بغداد
سأل عن محمد بن واسع فلم يعرفه أحد ، فقال : إنه من فضله
لم يُعرف، وازداد فيه محبة وتعظيماً^(١٦٩) - وذلك لإسراجه بالعبادة

(١٦٦) سير اعلام النبلاء - مخطوط - (٦ : ٢٥١) .

(١٦٧) حلية الاولياء (٨ : ١٦٧) .

(١٦٨) تنبيه المغترين ١٢ .

(١٦٩) المرجع السابق ١٥٥ .

وبعد عن الشهرة • ومن الحوادث النادرة في إسراره بالعبادة :
 ما حدث به خادمه الذي كان يخرج معه في الأسفار ويصحبه في
 الغزو والجهاد • أخبر محمد بن أعين - وكان صاحب ابن المبارك
 في الأسفار وكان كريماً عليه - قال : كان ذات ليلة ونحن في غزاة
 الروم ، ذهب ليضع رأسه ليريني أنه ينام ، فقعدت أنا ورمحي في
 يدي قبضت عليه ، ووضعت رأسي على الرمح كأني أنام كذلك ،
 فظن أنني قد نمت فقام فأخذ في صلاته ، فلم يزل كذلك حتى طلع
 الفجر وأنا أرمقه ، فلما طلع الفجر جاء فأيقظني وظن أنني نائم
 وقال : يا محمد ، فقلت : إني لم أنم ، فلما سمعها مني ما رأيته بعد
 ذلك يكلمني ولا ينبسط إليّ في شيء من غزاته كلها ، كأنه لم يعجبه
 ذلك مني لما فطنت له من العمل ، فلم أزل أعرفها فيه حتى مات ،
 ولم أر رجلاً قط أسرّ بالخير منه (١٧٠) •

هذا ما أخبر به خادمه وصديقه ومرافقه في السفر ، والسفر
 يسفر عن فضائل الرجال وعيوبهم ، فأسفر عن رجل صوام
 قوام يسرّ الخير ويكره أن يطلع عليه الناس ، أطار خوفه من
 الله النوم من أجفائه ، فكابد الليل متهجداً لله عابداً خاشعاً
 متضرعاً • وكان يقول : إن الصالحين فيما مضى كانت أنفسهم
 تواتيهم على الخير عفواً ، وإن أنفسنا لا تكاد تواتينا إلا على

(١٧٠) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٦ •

كره ، فينبغي لنا أن نكرهها (١٧١) ، وكان يقول : مسكين ابن آدم قد وُكِّلَ به خمسة أملاك : ملكان بالليل ، وملكان بالنهار يجيئان ويذهبان ، والخامس لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً (١٧٢) . وقيل له : كيف تعلم الملائكة أن الإنسان قد همَّ بحسنة ؟ فقال رضي الله عنه : يجدون ريحها (١٧٣) . ولذلك ملأ وقته بالعبادة ، وكان يتحرى أن يختم نهاره بذكر الله عز وجل ، ويقول : من ختم نهاره بذكر كتب نهاره ذاكراً (١٧٤) .

وكان يكثر الجلوس في بيته فقيل له : ألا تستوحش ؟ فقال : كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه (١٧٥) ؟ وكان يعتزل مجالس المنكر واغتياب الناس ، قيل له : إذا صليت معنا لم لا تجلس معنا ؟ قال : أذهب مع الصحابة والتابعين ، قيل له : ومن أين الصحابة والتابعون ؟ قال : أذهب أظفر في علمي فأدرك آثارهم وأعمالهم ، فما أصنع معكم أتم تغتابون الناس (١٧٦) .

(١٧١) صفة الصفوة (٤ : ١٢١) .

(١٧٢) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

(١٧٣) المرجع السابق (١ : ٦٠) .

(١٧٤) المرجع السابق (١ : ٥٩) .

(١٧٥) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٤) .

(١٧٦) حلية الأولياء (٨ : ١٦٤) .

وكان رضي الله عنه كثير الصمت ، وكثرة الصمت غالباً ما تكون دليل كمال العقل ، وانشغال الفكر بالتدبر ، وبالمقابل فكثرة الكلام علامة على عدم الاتزان ، تماماً كما قال الشاعر :

إذا تمّ عقل المرء قلّ كلامه وأيقن° بحمق المرء إن كان مهذارا

وقد حضر ابن المبارك يوماً عند الثوري فلم يتكلم بحرف حتى قام ، فلما قام قال الثوري لأصحابه : وددت أني أقدر أن أكون مثله (١٧٧) .

وكان مع هذه العبادة المتواصلة في الليل صلاة وقياماً ، وفي النهار جهاداً وصياماً ، وفي كليهما نشراً للعلم ودعوة إلى الله ، كان شديد الخوف من الله عز وجل ، وذلك لأن أعلم الناس بالله تعالى أشدهم منه خشية ، وأكثرهم له عبادة ، وإنما يخشى الله من عباده العلماء . وكان يقول : أكثركم علماً ينبغي أن يكون أشدكم خوفاً (١٧٨) ، ويقول : كيف يدعي رجل أنه أكثر علماً وهو أقلّ خوفاً وزهداً؟ (١٧٩) ولذلك كان خوفه من الله على قدر علمه بالله ومعرفته به . فهو في خشية شديدة دائماً ، وربما اشتد به البكاء حتى لا يستطيع أن يتكلم ولا يجرؤ أحد أن يكلمه .

(١٧٧) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٦ .

(١٧٨) حلية الاولياء (٨ : ١٦٨) .

(١٧٩) طبقات الشعراني (١ : ٥٩) .

فمن نعيم بن حماد قال : كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقاق يصير كأنه ثور منحور أو بقرة منحورة من البكاء ، لا يجتريء أحد منا أن يدنو منه أو يسأله عن شيء إلا دفعه (١٨٠) . وكان هذا الخوف من الله تعالى لا يفارقه في سفر ولا حضر ، وكان خوفه من هول يوم القيامة يخلع قلبه ، ويصرع فؤاده ، فعن سويد بن سعيد قال : رأيت ابن المبارك دخل زمزم فقال : اللهم إن ابن المؤمل حدثني عن أبي الزبير عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ماء زمزم لما شرب له » اللهم فإني أشربه لعطش يوم القيامة (١٨١) .

(١٨٠) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٧) .

(١٨١) فتح القدير (٣ : ١٩٠) . يستحب الدعاء عند الشرب من زمزم وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما إذا شرب ماء زمزم قال : اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاء من كل داء (كما في الترغيب ٢ / ٢١٠) . وقد شرب جماعة من العلماء ماء زمزم لمقاصد فحصلت ، فمنهم الإمام الشافعي شربه للرمي فكان يصيب بدقة ، وشربه الحاكم لحسن التصنيف فكان أحسن أهل عصره تصنيفاً ، قال ابن حجر : « ولا يحصى كم شربه من الأئمة لأمور نالوها ، قال : وأنا شربته في بداية طلب الحديث أن يرزقني الله حالة الذهبي في حفظ الحديث ، ثم حججت بعد مدة تقرب من عشرين سنة وأنا أجد من نفسي المزيد على تلك الرتبة ، فسألت رتبة أعلى منها وأرجو الله أنال ذلك منه » وقال الكمال بن الهمام :

←

هكذا كانت عبادته ، وهكذا كان خوفه من الله تعالى ، وكيف لا يخاف وذكر هاذم اللذات على لسانه ، يستعد له ويوصي من حوله بالاستعداد له أيضاً ، فقد كان يقول للفضيل : استعد للموت ولما بعد الموت (١٨٢) .

وكيف لا يخاف المؤمن ؟ والمؤمن إذا ذكر الله وجل قلبه ، وخشع بدنه وجوارحه ، وكيف لا يخاف مؤمن بالله ، وهو يعلم أن الموت يرتقبه ، وأن القبر سيضمه ، وأن على الصراط مشاه ، ويوم القيامة موعده ، وانه لا يعرف مصيره إلى جنة سيكون أم إلى نار . وما أروع ما كان ينشده عمر بن عبد العزيز رحمه الله عندما كان يغلبه النوم عند القيام في الأسحار ، فقد كان يقوم فيجول في الدار وينشد :

وكيف تنام العين وهي قريرة ولم تدر في أي المحلّين تنزل (١٨٣)

« والعبد الضعيف - يعني نفسه - يرجو الله سبحانه شربة الاستقامة والوفاء على حقيقة الاسلام معها » . راجع فتح القدير (٣ : ١٩١) . وكذلك ذكر السيوطي انه لما حج شرب من ماء زمزم لامور منها : ان يصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر . انظر ذلك في ترجمته لنفسه في « حسن المحاضرة » ١ / ٣٣٥ - ٣٣٩ .

(١٨٢) حلية الأولياء (٨ : ١٦٨) .

(١٨٣) تنبيه المفترين ٦٦ .

بهذه الخشية الشديدة رفع الله ابن المبارك وأعز ذكره .
 فعن القاسم بن محمد قال : كنا نساغر مع ابن المبارك ، فكثيراً
 ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي : بأي شيء فضل هذا الرجل
 علينا حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة ؟ إن كان يصلي إنا نصلي ،
 وإن كان يصوم إنا نصوم ، وإن كان يغزو فإننا نغزو ، وإن كان يحج
 إنا نحج . قال : فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة تتعشى
 في بيت إذ طفئ السراج ، فقام بعضنا فأخذ السراج وخرج
 يستصبح ، فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج ، فنظرت إلى وجه ابن
 المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع ، فقلت في نفسي : بهذه
 الخشية فضل هذا الرجل علينا . ولعله حين فقد السراج وصار
 في الظلمة ذكر القيامة (١٨٤) .

وقد ذكره أبو عبد الله أحمد بن حنبل يوماً ، فقال : ما
 رفعه الله إلا بخشية كانت له ، ما أخرجت خراسان مثل
 ابن المبارك (١٨٥) .

(١٨٤) صفة الصفوة (٤ : ١٢١) .

(١٨٥) الورع ص ٧٣ .

تصوفه

عرفنا أن ابن المبارك رضي الله عنه كان محدثاً ثقةً ، وفقهياً
إماماً ، وزاهداً أخروياً ، وغنياً سخياً ، ومجاهداً بطلاً ، وعزيراً
أبياً ، وداعيةً معلماً ، ولطيفاً متواضعاً ، وورعاً عابداً تقياً ، فهل
كان ابن المبارك مع ذلك صوفياً ؟

إن ابن المبارك خير من فهم التصوف الصحيح ، الذي معناه
الاتباع الكامل لشريعة الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ،
وتخلية القلب مما سوى الله عز وجل من شواغل الدنيا والتعلق
بالأغيار ، والرغبة الصادقة في الجنة ، والخشية الشديدة من
النار ، والإعراض عن حب الدنيا ، والإقبال بالكلية على الآخرة .
وذلك أن ابن المبارك كان رجلاً ربانياً محمدياً ، يتبع شرع الله
وسنة رسوله المطهرة وخلفائه الهادين المهديين يعرض عليها
بالنواجذ ، وكان إماماً في العلم قبل أن يكون إماماً في التصوف .
فهو يسير في عبادته وتصوفه وفي كل شؤونه على هدى وبصيرة ،
وأى تصوف أسمى من اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومما سبق من أقواله وأفعاله يبدو واضحاً من أي نوع كان
تصوفه . فقد كان غنياً فلم يخرجه عن التصوف غناه ، بل كان
غناه طاعة وعبادة كما رأيت ، وكان مجاهداً بطلاً يربط على
الشغور ويجالد الفرسان ويسهر للحراسة في سبيل الله ، ولم يفهم

من التصوف — كما يفهم بعض الجهلة من متصوفة هذا الزمان — أن يقعد مع القاعدين وأن يكون مع الخوائف . وقد كان ورعاً تقياً عابداً مخبتاً يحاسب نفسه وقيمتها على شرع الله ، وقد سأله رجل عن الرباط فقال : رباط بنفسك على الحق حتى تقيمتها عليه فذلك أفضل الرباط (١٨٦) .

وكان ناصحاً للناس يأمرهم وينهاهم ويعلمهم الخير ، وينشر بينهم علوم الدين ، وكان في كل ذلك لا يبتغي سوى مرضاة الله سبحانه ، وقد رأيت إسراره وإخلاصه بالعبادة وهو يتصدق بالآلاف ويحلف أن لا يذكر اسمه ، ورأيت إخلاصه وهو يجالد أكبر الفرسان ، فيصرعه ثم يغطي وجهه بكمه ليتوارى عن أظفار الناس ، ورأيته وهو يغافل أصحابه ليقوم الليل كله ، كل ذلك لتبقى النية خالصة لوجه الله ، وكان يقول : رُبَّ عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية (١٨٧) .

وكان محباً للصالحين يكرمهم ويحرص على مجالستهم ، ويقول : إن الرحمة تنزل عند ذكر الصالحين (١٨٨) . كما كان يحب المواعظ والرقائق ، يقرأها ويتأثر بها حتى يكاد يُغشى عليه من

(١٨٦) حلية الأولياء (٨ : ١٧١) .

(١٨٧) جامع الملووم والحكم ص ١٠ وطبقات الشعراني

(١ : ٥٩) .

(١٨٨) طبقات الشعراني (١ : ٦٠) .

شدة البكاء . وعن عبد الله بن حوشب الطائفي قال : زاملت ابن المبارك فذكر يوماً قصيدة لسليمان العدوي ، فقال لي : يا أبا محمد : هذه أحب إليّ من قصر ابن طاهر ! ثم ذكر يوماً كلاماً من هذه الرقائق ، فقال لي : يا أبا محمد ضيّعنا أيامنا في الإيلاء والظهار وتركنا هذا العلم (١٨٩) . وكان يقول : أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يطعموا أطيب ما فيها . قيل له : وما أطيب ما فيها ؟ قال : المعرفة بالله عز وجل (١٩٠) . وكان كارهاً للشهرة ينفر منها ولا يتكلف لها ، وينفّر منها الناس ، لأنّ الاشتهار مذموم إلا من شهره الله لنشر دينه من غير تكلف منه للشهرة . بل كان يرتفع بذلك إلى أن يقول : لا تحب من نفسك أنك تحب الخمول فترفع نفسك (١٩١) ، ويقول : « دعواك الزهد من نفسك يخرجك عن الزهد » و « سلطان الزهد أعظم من سلطان الرعية ؛ لأن سلطان الرعية لا يجمع الناس إلا بالعصا ، والزاهد يَنْفَرُ من الناس فيتبعوه » (١٩٢) . وكان مع كل ما رأته

(١٨٩) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٩ .

(١٩٠) حلية الأولياء (٨ : ١٦٧) .

(١٩١) طبقات الشعرا (١ : ٥٩) ومراده من الخمول عدم الشهرة .

(١٩٢) المرجع السابق .

من العبادة والزهد والإخلاص شديد الحياء من الله عز وجل ، يرى نفسه أقلّ من أن يسأل ربه الجنة • خرج يوماً على أصحابه فقال : إني اجترأت البارحة على الله ••• سألته الجنة (١٩٣) ، وإن الانسان ليقف خاشعاً أمام هذه الكلمة التي تدل على شدة المعرفة بالله وشدة الحياء من الله • ولعمري أي شيء يكون التصوف الصحيح إن لم يكن هذا ؟

وكان على استعداد دائم للموت ، إذا أصبح لا ينتظر المساء وإذا أمسى لا ينتظر الصباح ، يعمل لآخرته عمل الذي سيقبل غداً على الله بوجه أبيض متزوداً من كل ما ينفعه ، جاءه أحمد بن حامد الأسود فقال له : رأيت في المنام أنك تموت بعد سنة فلو استعددت للخروج • فقال له عبد الله بن المبارك : لقد أجلتنا إلى أمد بعيد ، أعيش أنا إلى سنة؟! لقد كان لي أنس بهذا البيت الذي سمعته من هذا الثقي - يعني أبا علي - :

يامن شكاشوقه من طول فرقة - اصبر لعلك تلقى من تحب غداً (١٩٤)

فابن المبارك خير من يمثل هذا العلم ، وخير من يتصدر ليدل الناس على الخير والهدى ، ويصل حبالهم بالله سبحانه ، لأن التصوف كما يقول الإمام الشعراني (١٩٥) : « إنما هو زبدة عمل

• (١٩٣) إحياء علوم الدين (٤ : ١٨٥) .

• (١٩٤) تنوير القلوب للشيخ أمين الكردي ص ٤٩٠ .

• (١٩٥) طبقات الشعراني (١ : ٤) .

العبد بأحكام الشريعة ، إذا خلا عمله من العلل وحظوظ النفس »
ولذلك صدّرت تراجم الصوفية باسمه ؛ لأن تصوفه لم يكن
تصوف الجاهل المتعالم ، الذي لا يعرف إلا التواكل والبطالة
والسلبية ، والقعود عن الجهاد في سبيل الله الذي قال فيه رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « لغدوة في سبيل الله أو روحة خير
من الدنيا وما فيها » (١٩٦) وقال : « رباط يوم في سبيل الله خير
من الدنيا وما عليها » (١٩٧) . بل كان تصوفه تصوف العالم بأحكام
الشرع ، العامل بها ، والدالّ عليها . وما كان يعرف ذلك الزمن
من يتصدى لذلك إلا أكابر الأئمة ورؤوس العلماء والمتبحرون في
الشريعة ؛ وهذا هو علة الاختلاف بين تصوف وتصوف . قال
الإمام الشعراني (١٩٨) : « وقد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر
في طريق الله عز وجل إلا من تبحر في علم الشريعة ، وعلم منطوقها
ومفهومها ، وخاصها وعامها ، وناسخها ومنسوخها ، وتبحر في لغة
العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك ، فكل صوفي
فقيه ولا عكس » .

وكان الإمام الجنيد رحمه الله يقول : « كتابنا هذا - يعني
القرآن - سيد الكتب وأجمعها ، وشريعتنا أوضح الشرائع وأدقها ،

(١٩٦) متفق عليه .

(١٩٧) متفق عليه .

(١٩٨) طبقات الشعراني (١ : ٤) .

وطريقتنا - يعني طريق أهل التصوف - مشيدة بالكتاب والسنة،
فمن لم يقرأ القرآن ، ويحفظ السنة ، ويفهم معانيهما ، فلا يصح
الاعتداء به . (١٩٩)

وشيء أخير نذكره عن تصوف ابن المبارك ، وهو أن تصوفه
لم يمنعه من مخالطة الناس والتآلف مع المؤمنين ، والتجرب إلى
الإخوان والاستعانة بهم في الدين تعاوناً على البر والتقوى ،
وكان يفضل ذلك على العزلة والانتقاع عن الناس . وقد استحب
ذلك أكثر النابغين وفضلوه على العزلة ، ومال إلى هذا سوى
ابن المبارك : سعيد بن المسيّب ، والشّعبي ، وابن أبي ليلى ،
وهشام بن عروة ، وابن شبرمة ، وشريح ، وشريك بن عبد الله ،
وابن عيينة ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وجماعة . فقد كان
هؤلاء جميعاً يفضلون المخالطة والصحبة والمؤاخاة في الله
والمؤالفة للمسلمين على اعتزال الناس ؛ وذلك ليعلموا ويتعلموا ،
وينفعوا وينتفعوا ، وهذا لا يكون إلا بالمخالطة . وذهب جماعة
من العبّاد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة
مثل : سفيان الثوري ، وإبراهيم بن أدهم ، وداود الطائي ،
وفضيل بن عياض . . وجماعة غيرهم وللطرفين أدلة وحجج .
والفصل في ذلك كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه إذ يقول :

(١٩٩) تنبيه المغترين ص ٨ .

« الاتقباض عن الناس مكسبة للعداوة ، والانبساط إليهم مجلبة
لقاء السوء ؛ فكن بين المنقبض والمنبسط » (٢٠٠) .

مما سبق يظهر لك نوع تصوف ابن المبارك . فهو تصوف
العالم العابد الذي فرغ قلبه مما سوى الله ، وأخلص كل أعماله
وأقواله لله . وهو تصوف الداعية الذي يخالط الناس ويعلمهم
ويؤدبهم ، ويأمرهم وينهاهم ، ويحسن إليهم ، ويخالطهم ويصبر
على أذاهم . وقد ذكر له يوماً ما كان عليه يوسف بن أسباط
من العبادة فقال : لقد ذكرتم قوماً يستشفون بذكرهم ؛ ولكن إن
فعل الناس جميعهم ذلك فمن لسنن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ؟ ومن لعيادة المرضى وشهود الجنائز ؟ واعد أنواعاً
من القرب (٢٠١) .

هذا هو ابن المبارك الصوفي ؛ فليتنا اتخذنا منه مثلاً
وأسوة : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » .

شيء من كراماته

وبعد ما رأيت من فضل ابن المبارك وتقواه وعبادته وورعه ؛
أكون عجباً أن يستجيب الله دعاءه ؟ وأن يكرمه ببعض الأمور
التي يكرم بها عباده الصالحين !؟

(٢٠٠) انظر البحث مفصلاً في إحياء علوم الدين ج ٢ بحث
العزلة .

(٢٠١) طبقات الشعراني (١ : ٦٠) .

ليس ذلك عجبياً ولا مستنكراً ، وقد ذهب جمهور أهل السنة إلى إثبات الكرامة ، وجواز وقوعها من أولياء الله المؤمنين المتقين . وفي ذلك يقول صاحب الجوهرة :

وأثبتن° للأوليا الكرامة ومن تفاهها فانبذن° كلامه°

والكرامة كما يعرفها اللقّاني (٢٠٢) : « أمر خارق للعادة . غير مقرون بدعوى النبوة ولا هو مقدمة لها . ويظهر على يد عبد ظاهر الصلاح . ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعته . مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح . علم بها أو لم يعلم » .

ولكن بالغ البعض في العناية بكرامات الأولياء أكثر من العناية بمعجزات الأنبياء ، وجعلوا في أغلب الأحيان من الحبة قبة ، ومن السراب حقيقة . وإن أكبر كرامة للمؤمن هي استقامته على الشريعة واتباعه لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذه هي الكرامة التي لا يمكن أن تكون استدراجاً .

وقد أكثر صاحب كنوز الأولياء من سرد كرامات وخوارق ابن المبارك، وجاء بما لم أجد له أثراً في غير هذا الكتاب من المصادر المعتمدة . ولذلك سنضرب صفحاً عما ذكره في كتابه من كرامات وقصص لعدم وجودها في الكتب المعتمدة التي ترجمت له .

وعلى كل حال فقد كان لابن المبارك رضي الله عنه كرامات أكرمه الله بها . قال الخليلي في الإرشاد : ابن المبارك الإمام المتفق

(٢٠٢) شرح جوهرة التوحيد لعبد السلام اللقاني ص ٢٠٦ .

عليه له من الكرامات مالا يحصى ، يقال : إنه من الأبدال . (٢٠٣)

وقال الحسن بن عيسى فيه : كان مجاب الدعوة . (٢٠٤)

ومن أمثلة دعواته المستجابة ما رواه شاهد عيان ؛ فعن أبي وهب قال : مر ابن المبارك برجل أعمى فقال : أسألك أن تدعو الله أن يرد الله عليّ بصري ، فدعا الله فرد عليه بصره وأنا أظن . (٢٠٥)

وقد سبق أنه دعا للحسن بن عيسى وكان نصرانياً : اللهم ارزقه الاسلام ، فاستجاب الله دعوته فيه . (٢٠٦)

(٢٠٣) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٧) والابدال : هم الاولياء والعباد ، جمع بدل ، سُموا بذلك لانهم « كلما مات رجل منهم ابدل الله مكانه رجلاً » وقد وردت احاديث كثيرة في الابدال وعددهم وأوصافهم ، منها المقبول ومنها المرود ، جمعها السيوطي في رسالة سماها «الخبر الدال» وأوردها في «حاويه» (٢ : ٤١٧-٤٣٧) ، وقال السخاوي في « المقاصد الحسنة » : ومما يتقوى به هذا الحديث - أي احاديث الابدال عامة - ويدل لانتشاره بين الأئمة قول إمامنا الشافعي رضي الله عنه في بعضهم : «كنا نعهده من الابدال» وقول البخاري في غيره : « كانوا لا يشكون أنه من الابدال » وكذلك وصف غيرهما من الحفاظ والنقاد والأئمة غير واحد بانهم من الابدال .

(٢٠٤) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٦) .

(٢٠٥) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٧) ، وقد ورد أيضاً في تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٦) . والفوائد البهية ص ١٠٤ ، وذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٣١) .

(٢٠٦) تهذيب التهذيب (٢ : ٣١٤) .

وهذه كرامة يكرمها الله لابن المبارك • وقد استجاب الله
دعاء كثير من الصحابة رضي الله عنهم • وإجابة دعوة سعد في
أسامة بن قتادة (٢٠٧) ، ودعوة سعيد بن زيد في المرأة (٢٠٨) •
ثابت في الصحيحين • وقد قال الله تعالى : « وقال ربكم ادعوني
أستجب لكم » •

وفضل ابن المبارك رضي الله عنه أوضح من أن نستدل عليه
بالكرامات فنكتفي بهذا القدر •

(٢٠٧) وذلك أن سعد بن أبي وقاص دعا على أسامة هذا لما
تكلم في إمارة سعد وعدله ، فقال سعد : أما والله لأدعون بثلاث :
اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً قام رياء وسمعة ، فاطل عمره ، وأطل
فقره ، وعرضه بالفتن •

فكان أسامة قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر ، ويتعرض
للجواني في الطرق ، وإذا سئل يقول : شيخ كبير مفتون أصابتنى
دعوة سعد •

والقصة موجودة في صحيح البخاري في أبواب صفة الصلاة •

(٢٠٨) وذلك أن أروى بنت أويس خاصمت سعيداً في بعض
داره ، فقال : دعوها وإياها ، فإني سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه طوّقه في
سبع أرضين يوم القيامة ، ثم دعا عليها فقال : اللهم إن كانت كاذبة
فأقم بصرها واجعل قبرها في دارها •

فعميت وصارت تلتمس الجدر تقول : أصابتنى دعوة سعيد
ابن زيد • فبينما هي تمشي في الدار مرت على بئر في الدار فوقعت
فيها فكانت قبرها •

والقصة موجودة في صحيح مسلم في باب تحريم الظلم
وغصب الأرض •

الفصل الخامس

مكاته عند العلماء والناس

عرفنا ابن المبارك الامام العلم ، شيخ الاسلام ، وفريد عصره
علماً وزهداً ، وشجاعة وسخاء ، وتقى وورعاً ، ونصحاً للأمة ،
واتباعاً للنبي صلى الله عليه وسلم . ورأينا كيف كان أئمة عصره
يطلقون عليه أسمى ألقاب التعظيم والتبجيل ، اعترافاً بمكاته في
العلم ، فهو أعلم أهل المشرق والمغرب ، وهو طيب الحديث وأمير
المؤمنين فيه ، وهو فقيه العرب وإمام المسلمين ، إلى غير ذلك من
الألقاب التي تدل على مكاته العالية ومنزلته الرفيعة بين علماء
عصره . فقد كان عبد الرحمن بن مهدي يقول : حدثني ابن المبارك
وكان نسيجاً وحده^(١) . وكان يفضل على سفيان الثوري .
وقيل له مرة : أيهما أفضل عندك ابن المبارك أو سفيان الثوري ؟
فقال : ابن المبارك ، فليل له : إن الناس يخالفونك . قال : إن
الناس لم يجربوا ، ما رأيت مثل ابن المبارك^(٢) . وقدم ابن مهدي

(١) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦١) وتقدمة الجرح والتعديل

ص ٢٦٨ .

(٢) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦١) .

بغداد في بيع دار له ، فاجتمع إليه أصحاب الحديث فقالوا له :
جالست سفيان الثوري وسمعت منه ، وسمعت من عبد الله ،
فأيهما أرجح ؟ فقال : ما تقولون لو أن سفيان جهد جهده على
أن يكون يوماً مثل عبد الله لم يقدر^(٣) ؟ وبالفعل فقد كان سفيان
يتمنى أن يكون أياماً مثل ابن المبارك . وكان يقول : إني لأشتهي
من عمري كله أن أكون سنة واحدة مثل عبد الله بن المبارك فما
أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام .^(٤) بل كان سفيان يتمنى أقل من
ذلك كان يقول : وددت عمري كله بثلاثة أيام من أيام ابن
المبارك .^(٥) وليس سفيان وحده الذي يتمنى ذلك ، فهذا شعيب
ابن حرب يقول : لو جهدت جهدي أن أكون في السنة ثلاثة أيام
مثل ابن المبارك لم أقدر .^(٦)

وكانت رؤيته تسر القلوب ، وتقر العيون ، ويتباهى بها
العلماء ؛ فعن عبد الرحمن الجهمي قال : قال الأوزاعي : رأيت

(٣) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦١) . وعبد الرحمن بن مهدي الذي
يشهد لابن المبارك هذه الشهادات هو الإمام الكبير الذي يقول فيه
علي بن المديني : لو حلفت بين الركن والمقام ، لحلفت أنني لم أر أحداً
أعلم من عبد الرحمن بن مهدي . كما في الترمذي (٩ : ٤٤٩) .

(٤) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٢) .

(٥) شذرات الذهب (١ : ٢٩٦) .

(٦) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٤) .

ابن المبارك ؟ قلت : لا . قال : لو رأيتَه لقرت عينك . (٧) وقال الأوزاعي أيضاً مثل ذلك لأبي عثمان الكلبى . وعن عبيد بن جناد قال : قال لي عطاء بن مسلم : يا عبيد هل رأيت ابن المبارك ؟ قلت : نعم . قال : ما رأيتَ بعينيك مثله ، ولا ترى بعينيك مثله حتى تموت . وقد قال فيه غير واحد : لم أر مثل عبد الله بن المبارك . (٨)

وكان فضيل بن عياض يقول : ما أحب أن يستأذن عليّ أحد إلا العُمري وابن المبارك . (٩)

وكان لعلو منزلته وعظيم قدره يقاس به العلماء والزهاد ، ويضرب به المثل في التوثيق والتثبت ، وذلك بعد موته بأكثر من مائة سنة ، فعن إبراهيم بن شماس قال : لوددت أن جميع ما عندي من حديث الصنعانيين — يعني : عبد الرزاق ، وهشام بن يونس ، وابن ثور — عند رجل بقومس ثقة مثل عبد الرحمن بن مهدي عن ابن المبارك عن معمر ، فكنت أعيده عنه (١٠) .

(٧) تاريخ بغداد (١٠ : ١٥٧) .

(٨) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٦٧ .

(٩) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٠٣) والعمرى هو عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وقد نقل ابن حجر قول الفضيل هذا في ترجمة العمرى .

(١٠) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٥ وقومس : بلدة جهة خراسان .

وفي ترجمة أحمد بن سيار بن أيوب الحافظ قال ابن تغري
بردي^(١١) : « إمام أهل الحديث بمرور ، كان جمع بين الحديث
والفقه ، والورع والزهد ، وكان يقاس بعبد الله بن المبارك » .
وقال الذهبي^(١٢) : كان بعض الأئمة يشبهه بابن المبارك في زمانه
علماء وفضلاء .

وكان إسماعيل بن عياش يقول في ابن المبارك :
ما على وجه الأرض مثل عبد الله بن المبارك . ولا أعلم أن الله خلق
خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها في عبد الله بن المبارك^(١٣) .

وقد بلغ من علو منزلته أن وضعه العلماء في صف الصحابة
رضي الله عنهم ، لا يفضلونه إلا بشرف الصحبة . وفي ذلك يقول
ابن عيينة كلمته التي نقلتها أكثر كتب التراجم إذ يقول :
نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك ، فما رايت لهم عليه فضلاً
إلا بصحبتهم النبي صلى الله عليه وسلم وغزاهم معه^(١٤) .

وبلغ من شهرته أن سلمة بن سليمان المروزي - وكان
وراثاً لابن المبارك - كان يقرأ كتاباً لعبد الله بن المبارك ، ويظهر

(١١) النجوم الزاهرة (٣ : ٤٤) .

(١٢) تذكرة الحفاظ (٢ : ١٢٦) .

(١٣) تاريخ بغداد (١٠٧ : ١٠٥) ، وتهذيب التهذيب (٣٨٥ : ٥) .

(١٤) تاريخ بغداد (١٦٣ : ١٠٥) ، وتهذيب التهذيب (٣٨٥ : ٥) .

أنه كان يقول : قال عبد الله ، فقيل له : قل ابن المبارك ، فقال سلمة : إذا قيل بمكة عبد الله فهو ابن عباس ، وإذا قيل بالمدينة عبد الله فهو ابن عمر، وإذا قيل بالكوفة عبد الله فهو ابن المبارك (١٥) .

وذلك لأنه كان يعتبر واحد عصره ، ونور بلاده ، وفيه كان يقول عمار بن الحسن :

إذا سار عبد الله من مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالها
إذا ذكر الأخبار في كل بلدة فهم أنجم فيها وأنت هلالها (١٦)

ولذلك صدرت ترجمته في كل كتاب ترجم له بألقاب الثناء والمديح :

ففي تقريب التهذيب (١٧) : « ثقة ، ثبت ، فقيه ، عالم ، جواد ، مجاهد ، جمعت فيه خصال الخير » .

وفي حلية الأولياء (١٨) : « السخي الجواد ، المهد للمعاد ، المتزود من الوداد ، أليف القرآن والحج والجهاد . جاد فساد ، وروجع فزاد . ماله مشارك ، وفعله مبارك . وقوله مبارك . شاهها نشاه عبد الله بن المبارك رضي الله عنه » .

(١٥) الورع ص ٧٣ .

(١٦) تهذيب الأسماء واللفات (١ : ٢٨٥) .

(١٧) تقريب التهذيب (١ : ٤٤٥) .

(١٨) حلية الأولياء (٨ : ١٦٢) وقد سبق التنبيه على النهي

عن التسمية بشاهها نشاه .

وفي العبر (١٩) : « الامام العلم الفقيه ، الحافظ الزاهد ، ذو المناقب رحمه الله . كان رأساً في الذكاء ، رأساً في الشجاعة والجهاد ، رأساً في الكرم » .

وقال الذهبي (٢٠) : « الامام الحافظ العلامة ، شيخ الاسلام ، فخر المجاهدين ، قدوة الزاهدين ، صاحب التصانيف النافعة . أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً . . . » إلى ان قال : « والله إني لأحبه في الله وأرجو الخير بحبه ، لما منحه الله من التقوى والعبادة والاخلاص والجهاد وسعة العلم والإتقان والمواساة والفتوة والصفات الحميدة » .

وكذلك افتتح الإمام النووي (٢١) ترجمته بالمدح والإطراء قال : « عبد الله بن المبارك أبو عبد الرحمن ، الامام المجمع على إمامته وجلالته في كل شيء ، الذي تستنزل الرحمة بذكره ، وترتجى المغفرة بحبه . . . » .

تلك بعض أقوال العلماء والأئمة فيه . تصور مكاتبه عندهم ومنزلته في أعينهم . أما منزلته عند عامة الناس فقد كانت أعظم من منزلة أكبر السلاطين ، وأعظم ملوك الدنيا في ذلك الزمن .

(١٩) العبر في أخبار من غير ص ٢٨٠ .

(٢٠) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٣) .

(٢١) تهذيب الاسماء واللغات (١ : ٢٨٥) .

يزدحم الناس لاستقباله ويحتشدون لرؤية وجهه ؛ أكثر مما
يزدحمون لرؤية الخليفة والسلطان • وإليك هذه القصة التي
تصور منزلته عند الناس :

قدم عبد الله بن المبارك مرة الرقة وبها هارون الرشيد ،
فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك ، وتقطعت النعال ، وارتفعت
الغبيرة (٢٢) ، واحتفل الناس به ، وازدحموا حوله • فأشرفت أم^ث
ولد لأمير المؤمنين الرشيد من برج من قصر الخشب ، فلما رأت
الناس قالت : ما هذا ؟ قالوا : عالم من أهل خراسان قدم الرقة
يقال له عبد الله بن المبارك • فقالت : هذا - والله - الملك
لا ملك هارون الرشيد الذي لا يجمع الناس إلا بشرط (٢٣)
وأعوان وبالسوط والعصا والرغبة والرغبة (٢٤) •

وفي نهاية الحديث عن مكاتبه نعيد إلى الذاكرة قول أسود
ابن سالم الذي يصور ثقة الناس به ، وظهرتهم السامية إليه
إذ يقول :

(٢٢) الغبيرة : بفتحين الغبار .

(٢٣) الشرط : بضم الشين وفتح الراء ، الواحد شرطي
وشرطة بسكون الراء فيهما ، وسموا بذلك لانهم جعلوا لانفسهم
علامة يعرفون بها .

(٢٤) البداية والنهاية (١٧٨:١٠) وتاريخ بغداد (١٥٦:١٠) •

« كان ابن المبارك إماماً يقتدى به . كان من أثبت الناس في
السنة . إذا رايت رجلاً يغمز ابن المبارك بشيء فاتهمه على
الاسلام(٢٥) » .

وقول الفضيل بن عياض الذي يبين أن ابن المبارك كان رجلاً
فريداً إذ يقول :

« ورب هذا البيت ما رأت عيناى مثل ابن المبارك »(٣١) .

وسبب هذه المكانة العالية بين العلماء وغيرهم على السواء
يوضحه ابن حبان في الثقات إذ يقول :

« كان فيه خصال لم تجتمع في أحد من أهل العلم في زمانه في
الأرض كلها »(٣٧) .

(٢٥) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٨) .

(٢٦) تذكرة الحفاظ (١ : ٢٥٠) .

(٢٧) تهذيب التهذيب (٥ : ٣٨٦) .

الفصل السادس في رحاب الجنة

مع رحلة الوفاة

سبق أن ابن المبارك رضي الله عنه توفاه الله سنة إحدى وثمانين ومائة في رمضان لعشر مضين منه • مات سحراً بعد انصرافه من الغزو على أقرب الأقوال • وبذلك يكون قد جمع الله لابن المبارك في وفاته الخير من أطرافه ؛ فقد توفاه الله بعد أفضل عمل وهو الغزو ، وفي أفضل شهر وهو رمضان ، وفي أفضل ساعة وهي ساعة السحر ، وقد دفن « بهيت » وقبره هناك ظاهر يزار (١) •

(١) راجع ذلك مفصلاً في سيرة ابن المبارك ، وقد سبق أن هيت بلدة على الفرات من نواحي بغداد ، وقد زار بعض الفضلاء قبر ابن المبارك فقال :

مررت بقبر ابن المبارك غدوة
وقد كنت في العلم الذي في جوانحي
ولكن أرى الذكرى تنبه عاقلاً
فأوسعني وعظاً وليس بناطق
غنياً وبالشيب الذي في مفارقي
إذا هي جاءت من رجال الحقائق
سير اعلام النبلاء (٦ : ٢٥٨) •

ولكن لنقف لحظات لنشاهد ابن المبارك رضي الله عنه ، وهو ينتقل من دار الدنيا إلى رحاب الله في جنة عرضها السموات والأرض ، حيث لافناء في ذاك الجنات ولا نَصَب :

لما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه : اجعل رأسي على التراب ، فبكى نصر ، فقال له : ما يبكيك ؟ قال : ذكرتُ ما كنتَ فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقيراً غريباً • قال : اسكتْ ° فإنني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء • ثم قال له : لقنني ولا تعد عليّ ما لم أتكلم بكلام ثان (٢) •

وعن الحسن بن الربيع قال : لما حضرته الوفاة قال : قد ترى شدة الكلام عليّ ، فإذا سمعتني قلت كلمة الشهادة ، فلا تردّها عليّ حتى تسمعي أخذت في كلام آخر ، فإنما كانوا يحبون أن يكون آخر كلامهم كلمة الشهادة لقوله عليه السلام : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » (٣) •

إن ذلك الغني الواسع الغنى، والرجل العظيم المنزلة، والإمام المجمع على جلالته ؛ يصل به زهده إلى أن يطلب من ربه أن يميتّه فقيراً غريباً !! وهكذا كان ؛ فمات فقيراً من المال ولكن غنياً بثواب

(٢) إحياء علوم الدين (٤ : ٤٨٢) •

(٣) ذيل الجواهر المضية (٢ : ٥٢٩) •

الله ورضوانه ورحمته ، وغريباً عن الأهل والوطن ولكن مستأنساً بالله سبحانه ، فرحاً بما أعدّه له عنده ، ثم لا ينسى وهو في سكرات الموت أن يحرص على أن يكون آخر كلامه كلمة الشهادة، تنفيذاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم لتتابع رحلة الوفاة لنرى ابن المبارك فقيراً غريباً ورأسه على التراب ، يقاسي سكرات الموت ومولاه نصر يراقبه . ثم ماذا ؟ . . . ثم « فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك ، وقال : لمثل هذا فليعمل العاملون .^(٤) » ويسلم الروح إلى بارئها وتنتهي رحلة حياة حافلة بالعلم والتقوى ، والزهد والورع ، والبذل والجهاد ، والدعوة ونشر العلم ، ولكن لماذا فتح عينه وضحك يا ترى ؟

هذا ما سيراه أصحابه بعد وفاته ، وستراه بعد قليل .

لقد توفي ابن المبارك رحمه الله ورضي عنه وأرضاه ، وأفضى إلى ما عمل ، متزوداً من كل ما ينفعه من الزاد في مثل هذه الرحلة الأبدية . وحزن عليه الناس جميعاً خاصتهم وعامتهم ، ودخل الخلل على العلم بموت عالم المشرق والمغرب ، وفجعت الأمة بموت ناصحها .

(٤) إحياء علوم الدين (٤ : ٤٨١) .

فهذا سفيان بن عيينة يُنعى إليه ابن المبارك فيقول : رحمه الله لقد كان فقيهاً ، عالماً ، عابداً ، زاهداً ، سخيّاً ، شجاعاً ، شاعراً^(٥) .

وهذا الفضيل بن عياض يُنعى إليه ابن المبارك فيقول : رحمه الله ، أما إنه ما خلفَ بعده مثله^(٦) .

ويقول سلام بن أبي مطيع : ما خلف ابن المبارك بالمشرق مثله^(٧) .

ويقول ابو إسحاق الفزاري : إني لأمقت نفسي على ما أرى بها من قلة الاكتراث لموت ابن المبارك^(٨) .

وعن أبي الوزير قال : قدمت على سفيان بن عيينة ، فقالوا له : هذا وصي عبد الله . فقال : رحم الله عبد الله ما خلف بخراسان مثله ، فقالوا : لا يرضون . قال : ما يقولون ؟ قالوا : يقولون ولا بالعراق ، قال : ما أخلق ما أخلق ما أخلق — ثلاثاً^(٩) .

وحدث أبو عصمة قال : شهدت سفيان بن عيينة وفضيل ابن عياض ، فقال سفيان لفضيل : يا أبا عليّ أيّ رجل ذهب ؟

(٥) مقدمة الجرح والتعديل ص ١٦٢ .

(٦) حلية الاولياء (٨ : ١٦٤) .

(٧) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٤) .

(٨) حلية الاولياء (٨ : ١٦٤) .

(٩) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٢) .

— يعني ابن المبارك — ، فقال له فضيل : يا أبا محمد وبقي بعد ابن المبارك من يستحيا منه ؟ (١٠) .

وينتقل الحزن إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد ، فقد ورد عليه كتاب صاحب الحيرة من هيت : أنه مات رجل بهذا الموضع غريب ، فاجتمع الناس على جنازته ، فسألت عنه فقالوا : عبد الله بن المبارك الخراساني . فقال الرشيد : إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا فضل — للفضل بن الربيع وزيره — ائذن للناس من يعزينا في عبد الله بن المبارك ، فأظهر الفضل تعجباً منه ، فقال له الرشيد : ويحك إن عبد الله هو الذي يقول :

الله يدفع بالسلطان معضلةً
عن ديننا رحمة منه ورضوانا
لولا الأئمة لم يأمن لنا سبل
وكان أضعفنا نهياً لأقوانا

من سمع هذا القول من مثل ابن المبارك مع فضله وزهده وعظمه في صدور العامة ولا يعرف حقنا ؟ (١١) .

وروي أنه لما بلغه خير موت ابن المبارك قال : مات سيد العلماء (١٢) ، ثم جلس للعزاء وأمر الأعيان أن يعزوه في ابن المبارك (١٣) .

(١٠) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٣) .

(١١) حلية الأولياء (٨ : ١٦٤) .

(١٢) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٣) .

(١٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٨٥ .

ويصور أبو خالد الأحمر فجيرة الناس بموت ابن المبارك إذ
يذكره فيقول :

ما هدت الأرض هدها منذ مات سفيان هدها لموت
ابن المبارك (١٤) .

وقد رثاه أبو تميلة الأنصاري بمرثية جيدة :

قال إسحاق بن راهويه : جلست إلى عبد الرحمن بن مهدي ،
فقال لي : من أين أنت ؟ فقلت : من أهل مرو ، قال : فترحم على
ابن المبارك - وكان شديد الحب له - وقال : هل معك مرثية ؟
رثي بها عبد الله ؟ فقلت : نعم ، فأشده قول أبي تميلة يحيى بن
واضح الأنصاري :

طرق الناعيان إذ نبهاني

بفضيح من فادح الحدّان

قلت للناعيين : من تعيان ؟

قالا أبا عبد ربنا الرحمان

فأثار الذي أتاني حزناً

وفؤاد المصاب ذو أحزان

ثم فاضت عيناى وجداً وشجواً

بدموع تحاذر الهطلان

(١٤) مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٦ .

فلئن كانت القلوب تبكي

لقلوب الثقات من إخوان

قد تبكيه بالدماء وفي الأجوا ف لذع كحرقه النيران

لتقي مضي حميداً فريداً

ماله في الرجال إن° عُدَّ ثانٍ

يا خليلي يا ابن المبارك عبـد الله خلّيتنا لهذا الزمان

حين ودعنا فأصبحت محموداً

حليف الحنوط والأكفان

قدّس الله مضجعاً أنت فيه

وتلقاك فيه بالرضوان

أرض هيتٍ فازت° بك الدهر

إذ صرت° غريباً بهاعن الإخوان

لا قريب بها ولا مؤنس

يؤنس إلا التقى مع الإيمان

ولمرّوٍ قد كنت فخرأ فصارت

أرض مروٍ كسائر البلدان

أوحشت بعدكم مجالس° علمٍ

حين غاب المعيث للّهفان

لهف نفسي عليك لهفأ بك الد

هر وفجعاً لفاجع لهفان

يا قريع القراء والسابق الأوّ

ل يوم الرهان عند الرهان

ومقيم الصلاة والقائم اللي
 سل إذا نام راهب الرهبان
 ومؤاتي الزكاة والصدقات الد
 هر في السر منك والإعلان
 دائماً في الجهاد والحج والعم
 رة يتلو منزل القرآن
 دائماً لا يمكثه يطلب الفو
 ز وليس المجدث كالمثواني
 عين فابكيه حين غاب بوا كيه بهاطل وساكب السيلان
 إن ذكرناك ساعة قط إلا
 هاج حزني وضاق عني مكاني
 ولعمري لئن جزعت على فقه دك إني لموجع ذو استكان
 خافق القلب ذاهب الذهن
 عبد الله أهذي كالواله الحيران
 أتلو سي مثل السليم^(١٥) لديغ الر
 قش قد مس جلدنه النابان
 بدلاً كنت من أخي العلم سفيا
 ن ويوم الوداع من سفيان

(١٥) السليم : اللديغ ، كأنهم تفاءلوا له بالسلامة ، ولديغ
 الرقش : الذي لدغته حية رقصاء ، أي فيها نقط سواد وبياض .

وبرأي النعمان كنت بصيراً

حين تبغي مقياس النعمان

قال : فما زال ابن مهدي يبكي وأنا أنشده (١٦) .

رُؤْيُ النَّاسِ فِي حَقِّهِ

لقد رأى له بعض الأئمة والصالحين ما يدل على القبول والرضا وحسن الجزاء عند الله سبحانه وتعالى :

فمن محمد بن فضيل بن عياض قال : رأيت عبد الله بن المبارك في المنام ، فقلت : أي الأعمال وجدت أفضل ؟ قال : الأمر الذي كنت فيه ، قلت : الرباط والجهاد ؟ قال : نعم ، قلت : وأي شيء صنع بك ؟ قال : غفر لي مغفرة ما بعدها مغفرة ، وكلمتني امرأة من أهل الجنة أو امرأة من الحور العين (١٧) .

وعن صخر بن راشد قال : رأيت عبد الله بن المبارك في منامي بعد موته ، فقلت : أليس قد مت ؟ قال : بلى ، قلت : فما صنع بك ربك ؟ قال : غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب . . . (١٨) .

(١٦) الورع ص ٧٤ .

(١٧) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٨) .

(١٨) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٩) والإحياء (٤ : ٥١٠) .

وقال زكريا بن عدي : رأيت ابن المبارك في النوم فقلت :
ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي برحمتي في الحديث (١٩) .

وقال الفريابي : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ،
فقلت : ما فعل ابن المبارك ؟ فقال : مع الذين أنعم الله عليهم من
النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك
رفيقاً . (٢٠)

ورؤي الثوري في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال :
رحمني ، فقيل له : ما حال عبد الله بن المبارك ؟ فقال : هو ممن
يلج على ربه كل يوم مرتين . (٢١)

ورأى بعضهم في النوم قائلاً يقول : عبد الله بن المبارك في
الفردوس الأعلى (٢٢) .

وعن محمد بن يوسف الفريابي قال : رأيت النبي صلى الله
عليه وسلم في المنام وقد مرّ به سفیان الثوري ؛ قلت : يا رسول
الله مات مسعر بن كدام . قال : نعم وتباشر بروحه أهل السماء .

(١٩) الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي ص ٤٧ من
« مجموعة ست رسائل في علوم الحديث » .

(٢٠) تاريخ بغداد (١٠ : ١٦٩) .

(٢١) إحياء علوم الدين (٤ : ٥٠٩) .

(٢٢) الديباج المذهب ص ١٣١ .

قلت : يا رسول الله ما فعل حماد بن سلمة ؟ قال : مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . قلت : يا رسول الله ما فعل حماد بن زيد ؟ قال : مع المقربين . قلت : يا رسول الله ما فعل عبد الله بن المبارك ؟ فقال لي : هيهات هيهات ! ذاك أرفع من هؤلاء . . (٢٣)

هذا ما رآه له الصالحون و « رؤيا المؤمن جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة » كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٤) . ولعل هذا هو الذي جعل ابن المبارك رضي الله عنه يفتح عينه عند الوفاة ليرى ما أعده الله له ، ويضحك فرحاً وسروراً ، ويقول : لمثل هذا فليعمل العاملون .

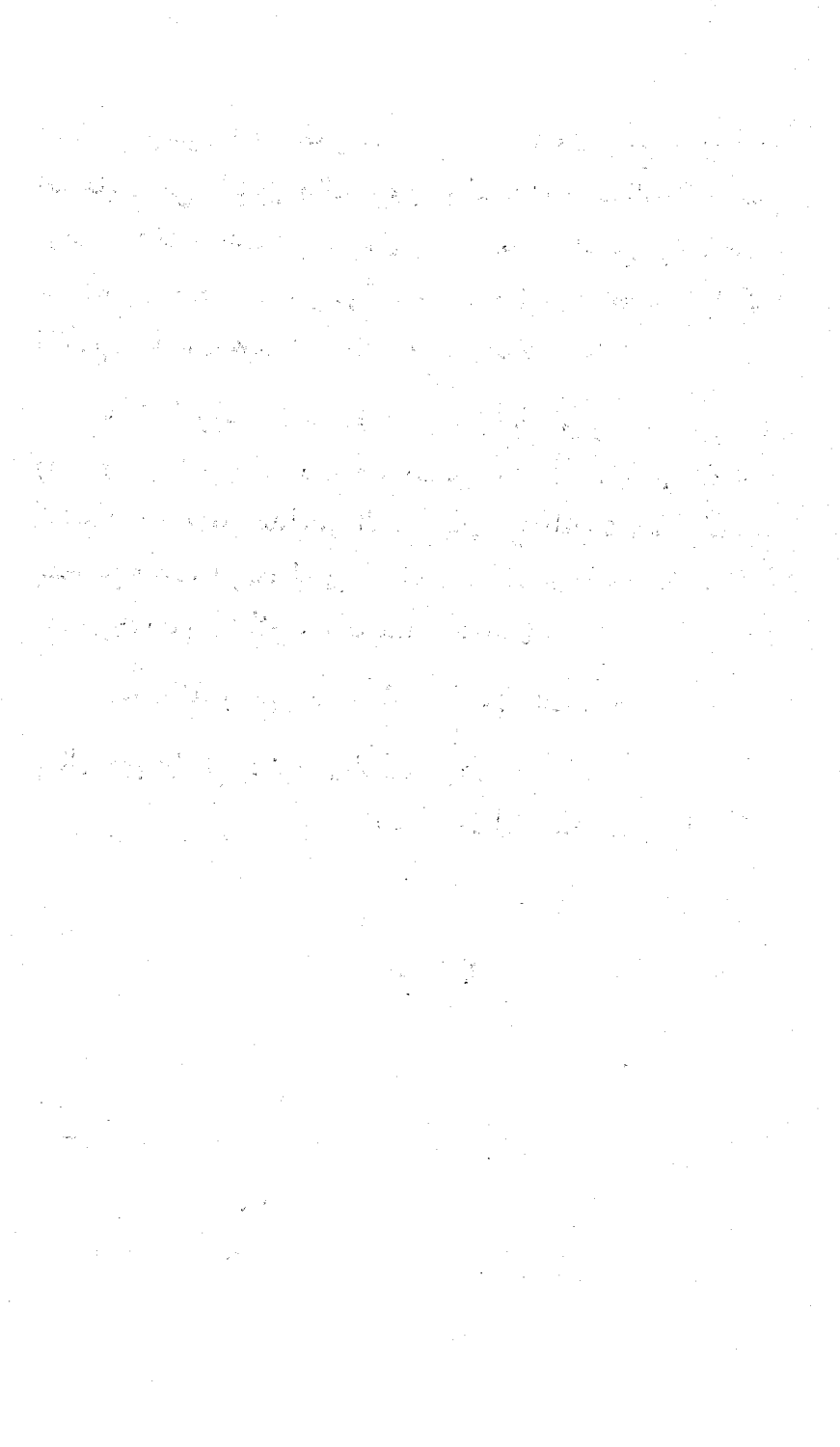
فرحمه الله ورضي عنه ما أصدق قول الشاعر فيه ! :

جمالَ ذي الأرض كأنوا في الحياة ، وهم
بعد الممات جمالُ الكتبِ والسَّيْرِ

* * *

(٢٣) الورع ص ٥٤ .

(٢٤) رواه البخاري ومسلم .



خاتمة

هذا هو عبد الله بن المبارك ، رجل أعجمي ، من أب تركي وأم خوارزمية ، وجد في زمن يحتقر فيه غير العربي ، ومع ذلك فقد صنع منه الاسلام إماماً مقدماً تعنو له الرقاب ، وجعل منه قدوة سالحة للأجيال . وهذا دليل واضح على عظمة هذا الاسلام الخالد ، ومدى تأثيره في النفوس ، وقدرته على صنع الرجال . ومن أين للعرب أمثال أبي بكر وعمر ، وخالد وسعد ، والبخاري ومسلم ، وأبي حنيفة والشافعي ، وصلاح الدين والعز بن عبد السلام ، وآلاف العظماء ، من الحكام والقادة ، والمحدثين والفقهاء ، والأبطال والمصلحين ، من الذين أشرق بهم تاريخ العرب ، لولا هذا الاسلام العظيم . وهذه ميزة تميز بها ديننا الخالد من بين سائر الدعوات ، حيث قدّم الفكرة وقدم معها آلاف النماذج العملية ، على حين اكتفت الدعوات الأخرى بالأفكار النظرية المهلهلة التي تعبت بها أعاصير النقص وريح الأهواء .

فالاسلام هو الحل الجذري الأصيل ، والدواء العملي المجرب ، وهو وحده طريق الخلاص مما تعانيه أمتنا من الضعف

والتخلف ، ومن الفوضى والانجلال ، ومن العجز عن إيجاد
القادة والمصلحين •

رحم الله ابن المبارك ، ورضي عنه ، وأعلى في عليين مقامه ،
ووقفنا للسير على نهجه ، وحشرنا في زمرة مع النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً •

والحمد لله رب العالمين



المراجع

اسم المؤلف	اسم الكتاب
محمد أبو زهرة	١ - أبو حنيفة
أبو حامد الغزالي	٢ - إحياء علوم الدين
مجد الدين الموصللي	٣ - الاختيار لتعليل المختار
ابن السمعاني	٤ - أدب الإماء والاستملاء
الماوردي	٥ - أدب الدنيا والدين
الشاطبي	٦ - الاعتصام
خير الدين الزركلي	٧ - الأعلام
الخطيب البغدادي	٨ - اقتضاء العلم العمل
ابن رشد	٩ - بداية المجتهد ونهاية المقتصد
ابن كثير	١٠ - البداية والنهاية
ابن عبد البر	١١ - بهجة المجالس وأنس المجالس
ابن عطاء الله السكندري	١٢ - تاج العروس
حسن إبراهيم حسن	١٣ - تاريخ الإسلام السياسي
الخطيب البغدادي	١٤ - تاريخ بغداد
السيوطي	١٥ - تاريخ الخلفاء
ابن عساكر	١٦ - تاريخ دمشق
المنذري	١٧ - الترغيب والترهيب

اسم المؤلف	اسم الكتاب
السيوطي	١٨ - تدريب الراوي
الذهبي	١٩ - تذكرة الحفاظ
ابن أبي حاتم	٢٠ - مقدمة الجرح والتعديل
ابن حجر العسقلاني	٢١ - تقريب التهذيب
الشعراني	٢٢ - تنبيه المقترين
محمد أمين الكردي	٢٣ - تنوير القلوب
النوي	٢٤ - تهذيب الأسماء واللغات
ابن حجر العسقلاني	٢٥ - تهذيب التهذيب
الامام مسلم	٢٦ - الجامع الصحيح
ابن رجب الحنبلي	٢٧ - جامع العلوم والحكم
عبد القادر القرشي	٢٨ - الجواهر المضية في طبقات الحنفية
أبو نعيم الأصفهاني	٢٩ - حلية الأولياء
الخزرجي	٣٠ - خلاصة تذهيب الكمال في أسماء الرجال
ابن حجر الهيثمي	٣١ - الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان
ابن فرحون	٣٢ - الديباج المذهب في أعيان المذهب (المالكي)
ملا علي القاري	٣٣ - ذيل الجواهر المضية

اسم المؤلف	اسم الكتاب
أبو الحسن الندوي	٣٤ - رجال الفكر والدعوة في الاسلام
الخطيب البغدادي	٣٥ - الرحلة في طلب الحديث
محمد بن جعفر الكتاني	٣٦ - الرسالة المستطرفة
أبو عيسى الترمذي	٣٧ - سنن الترمذي
	٣٨ - سير أعلام النبلاء - مصور
	مخطوط في المجمع العلمي العربي
الذهبي	٣٩ - شرح حديث « ما ذُبان جائفان » من المجلد الثاني من (مجموعة الرسائل المنيرية)
ابن رجب الحنبلي	٤٠ - شرح « المضمون به على غير أهله » لعز الدين الزنجاني
عبيد الله بن عبد الكافي	٤١ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب
ابن العماد الحنبلي	٤٢ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى
القاضي عياض	٤٣ - صفة الصفة
ابن الجوزي	٤٤ - طبقات الشافعية الكبرى
السبكي	٤٥ - الطبقات الكبرى
ابن سعد	٤٦ - الطبقات الكبرى
الشعراني	

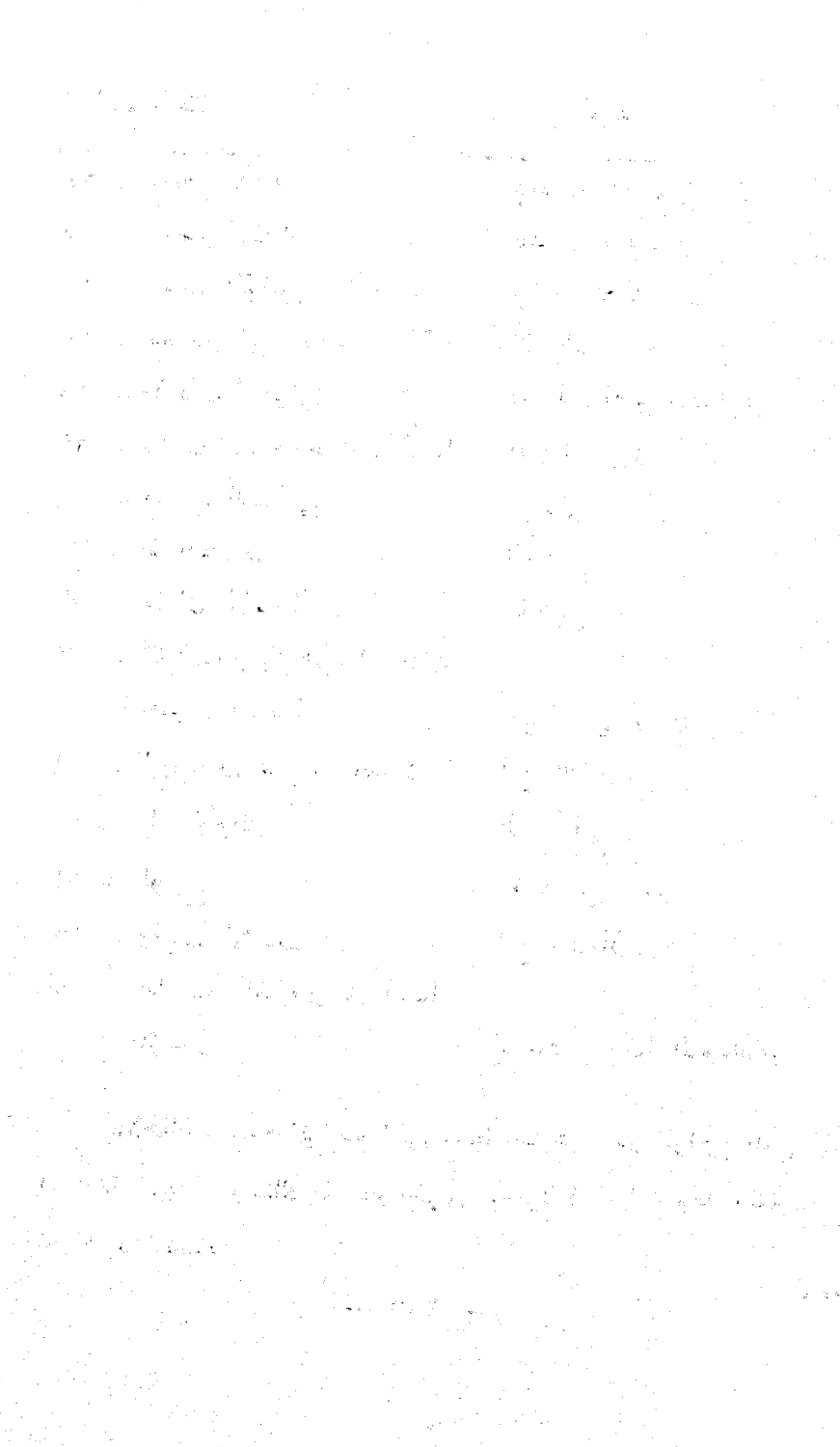
- الذهبي ٤٧ - العبر في أخبار من غبر
- ابن رجب الحنبلي ٤٨ - فضل علم السلف على الخلف
- ابن عبد ربه ٤٩ - العقد الفريد
- ابن النديم ٥٠ - الفهرست
- اللكنوي ٥١ - الفوائد البهية في تراجم الحنفية
- المناوي ٥٢ - فيض التقدير شرح الجامع الصغير
- مصطفى السباعي ٥٣ - القلائد من فرائد الفوائد
- ظفر أحمد العثماني التهانوي ٥٤ - قواعد في علوم الحديث
- الذهبي ٥٥ - الكبائر
- حاجي خليفة ٥٦ - كشف الظنون
- يونس السيوطي ٥٧ - الكنز المدفون والفلك المشحون
- ٥٨ - كنوز الأولياء - مخطوط -
- أبو الليث الزيلي ٥٩ - رقيه في الظاهرية ٣٩٧٢
- السيوطي ٥٩ - اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعية
- النووي ٦٠ - المجموع شرح المهذب
- الرامهرمزي ٦١ - المحلث الفاصل
- اليافعي ٦٢ - مرآة الجنان
- محمد زاهد الكوثري ٦٣ - مقدمة «الاختلاف في اللفظ»

اسم الكتاب

اسم المؤلف

ياقوت الحموي	٦٤ - معجم الأدباء
ياقوت الحموي	٦٥ - معجم البلدان
رضا كحالة	٦٦ - معجم المؤلفين
الحاكم	٦٧ - معرفة علوم الحديث
محمد زاهد الكوثري	٦٨ - مقالات الكوثري
ابن الجوزي	٦٩ - مناقب الامام أحمد بن حنبل
البيهقي	٧٠ - مناقب الشافعي
الشاطبي	٧١ - الموافقات
الذهبي	٧٢ - ميزان الاعتدال
ابن تغري بردي	٧٣ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
ابن الأثير	٧٤ - النهاية في غريب الحديث
الشوكاني	٧٥ - نيل الأوطار
أحمد بن حنبل	٧٦ - الورع
ابن خلكان	٧٧ - وفيات الأعيان
إسماعيل باشا البغدادي	٧٨ - هدية العارفين في أسماء المؤلفين

ملاحظة : هذه المراجع التي سجلناها هي اهم المراجع التي استفدنا منها ، وهناك مراجع اخرى لم يرد ذكرها ، وقد سبق ان اشرنا لبعضها .



فهرس

الصفحة

الموضوع

٣

هذا الرجل

٥

مقدمة الطبعة الثانية

٧

مقدمة الطبعة الأولى

١٣

الفصل الأول : عصر ابن المبارك

١٣

الحالة السياسية

٢٠

الحالة الاجتماعية

٢٦

الحالة العلمية

٣٠

العلم والموالي

٣٥

مدينة « مرو » والحالة العلمية فيها

٤٠

الفصل الثاني : سيرة ابن المبارك

٤٠

تمهيد

٤٢

اسمه ونسبه

٤٦

مولده

٤٨

نشأته

الصفحة	الموضوع
٥١	وفاته وعمره
٥٥	الفصل الثالث : حياة ابن المبارك العلمية
٥٥	طلبه للعلم
٦٤	تنوع ثقافته
٦٦	مكانته العلمية
٧٠	● ابن المبارك المحض
	اتفاق الائمة على توثيقه وإمامته ٧١ حفظه ٧٨ حذقه
	ومهارته ومعرفته بالأثار والرواة ٨٠ شيوخه ٨٧
	تلاميذه ٨٩ روايته عن ابن لهيعة ٩٣ اصح الاسانيد
	عنده ٩٥ نماذج من مروياته ٩٦
١٠١	● ابن المبارك الفقيه
	مكانته في الفقه ١٠١ شيوخه في الفقه ١٠٤ :
	(١) سفيان الثوري ١٠٥ (٢) مالك بن انس ١٠٦
	(٣) ابو حنيفة ١٠٩ بعض آرائه في الفقه ١١٧
١٣٨	● علوم اخرى
١٣٩	● منهجه العلمي
١٣٩	تشده في التحري والتثبت

- ١٤٢ حرصه على السند
 ١٤٣ دقته في الجرح والتعديل
 ١٤٦ دقته في النقل
 ١٤٦ جمعه بين الحديث وخير الراي

● عقيدة ابن المبارك

١٤٨

- فضل الصحبة ١٤٨ محاربة البدع ١٥٣ موقفه من
 المعتزلة والجهمية ١٥٥ موقفه من المرجئة ١٥٦
 موقفه من خلق القرآن ١٥٦ موقفه ممن يسب
 السلف ١٥٧
 رأيه في احاديث الصفات وفي التنول المذكور في
 الاحاديث ١٥٨

● كتبه

١٥٩

- ١٥٩ ابن المبارك من السابقين إلى تدوين الحديث
 ١٦١ كتبه
 ١٦٦ شعره
 ١٨٤ من اقواله وحكمه

الفصل الرابع : حياة ابن المبارك العميلة

١٩٠

- ١٩٠ تمهيد
 زهده : زهد وتوف ١٩٣ حقيقة الزهد ١٩٥

	زاهد غني ١٩٨ سبب الزهد ٢٠٠
٢٠٤	كرمه
٢١٣	جهاده وبطولته
٢٢٢	دعوته إلى الله ونشره للعلم
٢٣٢	إبائوه وعزة نفسه
٢٣٩	تواضعه
٢٤٣	حسن معاملته
٢٤٩	ورعه
٢٥٤	عبادته وتقواه
٢٦٣	تصوفه
٢٦٩	شيء من كراماته
٢٧٣	الفصل الخامس : مكاتبه عند العلماء والناس
٢٨١	الفصل السادس : في رحاب الجنة
	مع رحلة الوفاة ٢٨١ رؤى الناس في حقه ٢٨٩
٢٩٣	خاتمة
٢٩٥	المراجع